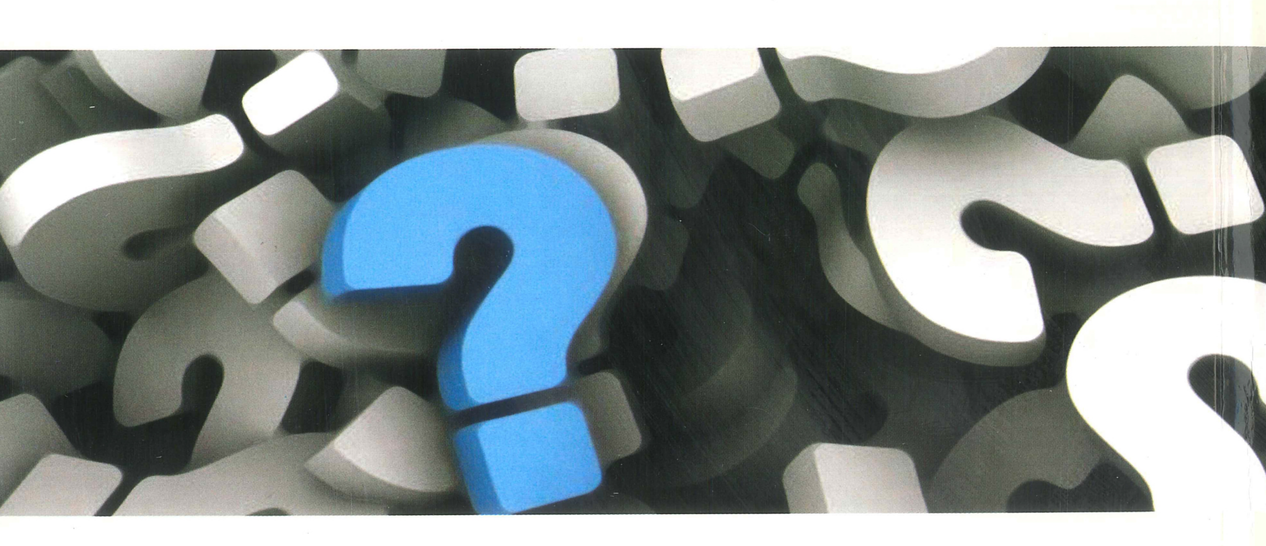


قلق الأسئلة

أجوبة على أسئلة الشباب المعاصرة



عبدالله بن صلاح الشهري

قلق الأسئلة

أجوبة على أسئلة الشباب المعاصرة


بسم الله الرحمن الرحيم

قلق الأسئلة

أجوبة على أسئلة الشباب المعاصرة

عبد الله بن صلاح الشهري

قلق الأسئلة

أجوبة على أسئلة الشباب المعاصرة

عبد الله بن صلاح الشهري

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م



Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

الموزع المعتمد

+966555744843

المملكة العربية السعودية - الدمام

المحتويات

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،،،

السؤال مفتاح خزائن العلم، وسبيل الحصول علىٰ المعرفة، وطريق الوصول إلىٰ المعلومات، وأداة معرفة الحقائق وإفاضة المعاني، به تتسع الآفاق، وتتوسع المدارك، وتُستثار الأذهان، وتُسترعىٰ الاهتمامات، وتُقطَع أسباب الجهل.

في مرحلة زمنية ماضية عندما كانت وسائط التربية محصورة في الأسرة والمدرسة، كان الوالدان والمعلمون هم المصدر المعرفي للشَّباب، وكان السؤال هو الطريق للحصول علىٰ المعرفة، وتعلُّم الأشياء، وبناء التصورات، وتكوين الاتجاهات، ويتفاوت المربون في طريقة تعاملهم مع هذه الأسئلة، بحسب شخصياتهم وثقافتهم ومرجعيَّاتهم الفكرية وأسلوب تربيتهم، وهذا كله مؤثر في تشكيل شخصية الفرد.

واليوم، ومع دخول وسائط جديدة كالإعلام بوسائله وتطبيقاته الاجتماعية المتنوعة أصبحت مصادر التربية مختلفة ومتنوعة ومضلِّلة في الوقت نفسه، وعندما

ينتقل الشاب إلىٰ مرحلة أخرىٰ من حياته فإنه يبحث فيها عن مصادر معرفية جديدة؛ فتزداد الأسئلة، وتكثر وتتنوع مصادر التلقي، وتختلف الإجابات وأبعادها، فلم نعد نستطيع أن نجزم بالصحيح والحقيقة إلا بعد توفير قرائنها ودلائلها المقنعة، ويشعر معها الشاب بالحيرة والاضطراب والقلق تجاه هذه الأسئلة التي أرهقت ذهنه، وأتعبت جسده.

من هذا المنطلق، وبناء علىٰ اهتمامي بمجال الشباب الممتدَّ لمدة تزيد عن ١٥ سنة في ميدان التعليم النظامي، وكذلك تعليم الشباب وتربيتهم من خلال البرامج الدعوية والتعليمية، ازداد اهتمامي في السنوات الأخيرة بمعايشتي لأطياف متنوعة من الشباب، أعان علىٰ ذلك المبادرات المعرفية ووسائل التواصل التي أزالت الحواجز بين الناس، وأَدْنَتْهُم من بعض، فتلمَّستُ واقع الشباب، وحاولت فهم قضاياهم، ومعرفة مشكلاتهم، والاستماع لطموحهم وآمالهم . . . ولم تكن الممارسة وحدها هي مصدر هذه المادة؛ فقد اطلعت علىٰ عشرات الكتب والرسائل العلمية، خاصة أن مجال الشباب هو موضوع أطروحتي الأكاديمية، وقد وجدت أنه هناك أسئلة متكررة تُشغل بال الشباب والفتيات، جمعتها من خلال اللقاءات العامة والجلسات الفردية والرسائل التي وصلتني علىٰ الهاتف أو البريد الإلكتروني.

في هذه المدة تواصل معي الأستاذ القدير، ياسر الحزيمي لتصوير حلقات نناقش فيها مواضيع تربوية مختلفة، وأخبرته أني قد جمعت سلسلة كبيرة من الأسئلة تتعلق بقضايا الشباب وأنا في طور كتابتها تحت عنوان **قلق الأسئلة**، ففرح بذلك، واقترح فكرة تصويرها حلقات مرئية علىٰ تطبيق «يوتيوب»، ولا شك أنه أحد الشركاء في محتوىٰ هذه المادَّة، فله جزيل الشكر.

أصل الكتاب:

وأشير إلىٰ أن التصوير المرئي سبق اكتمالَ كتابة هذه المادة؛ لذا فأصل هذا الكتاب سلسلة بعنوان «قلق الأسئلة» علىٰ تطبيق اليوتيوب، تم تفريغها وتحريرها وحذف بعض المواطن منها مع إضافات يسيرة تناسب النشر المكتوب، وسيكون كلُّ سؤالٍ مقلقٍ موضوعًا للبحث والدراسة في كل مبحث من هذا الكتاب.

وفي الختام، أشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل بمعلومة أو رأي أو دعم أو تشجيع أو مراجعة، وأرجو اللهَ تعالىٰ أن أسهم في الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل مفيد ومختصر للقارئ، ويُرضي ربَّ العالمين ﷻ قبل ذلك.

الفصل الأول
سـؤال السؤال

لماذا نتحدث عن الأسئلة؟

لقد كثُرَت الأسئلة وتعقَّدَت، وأصبح بعضها أكثر تركيبًا، وبعضها أكثر سطحيةً، وبعضها أكثر توغلًا، وبعضها بين ذلك، وأحيانًا يكون السؤال خطأً في ذاته، وبالتالي تنبني عليه إجابات خاطئة ... وتصورات وقناعات غير صحيحة .. فلماذا كل هذا؟

إنَّ الإنسان منذ أن يولَد، ولديه أسئلة كثيرة في ذِهنه، فالطفل يشبه الشخص الذي لا يرىٰ شيئًا في غرفة مظلمة، فيتحسَّس الأشياء من حوله، للبحث عن ماهيتها ومحاولة جادة لمعرفة الأشياء ... وهذا بحدِّ ذاته سؤال، لكنه غير منطوق! هذه الأسئلة غير المنطوقة تنمُّ عن شيء فِطري عند الإنسان، وهو الفضول حول معرفة الأشياء (تكوينها، ماهيَّتها، فائدتها ... وغير ذلك)؛ لذلك تجد لدىٰ الأطفال أسئلة كثيرة ومتواصلة ومتنوعة في مجالات شتىٰ عقدية وفقهية ونفسية واجتماعية وغيرها، وهذه الأسئلة تحتاج إجابات تناسب أعمارهم ومدىٰ إدراكهم ووعيَهم، وهكذا يبدأ الطفل تكوين معرفته بشكل تدريجي وتراكمي.

ولو سأل سائل ما سبب كثرة الأسئلة لدىٰ الشباب والفتيات؟ ولماذا يقلقون من هذه الأسئلة؟ سنجد أسبابًا وعوامل مختلفة تثير هذه التساؤلات، منها:

السبب الأول: أنَّ الإنسان كائن مُثقل بالتساؤلات؛ لأنه بهذه الطريقة يحاول فهم الحياة وإدراك العلاقة بين الأشياء ويرغب من خلالها معرفة الغايات والقضايا الكبرىٰ والمقاصد التي خلق من أجلها.

السبب الثاني: الحياة المعاصرة مليئة بالتعقيد والتركيب؛ فطبيعة الحياة التي نعيشها ونمطها وأسلوبها وطريقتها، وتشعب العلوم والمسائل والقضايا وكثرة المصادر . . . إلخ، كلُّ ذلك جعلَ الأسئلة مقلقة ومعقَّدَة وكثيرة ومركبة.

السبب الثالث: تراجع دور الأسرة، فالأسرة قديمًا كانت تقوم بأدوار «تقليدية» -كما يسميها البعض-، لكن هذا الدور هو الدور الحقيقي للأسرة، وهو الإجابة عن الأسئلة خلال الاجتماع لتناول الطعام أو الخروج للنزهة، فهذه الأعمال كانت تتضمن الإجابةَ عن أسئلة كثيرة من أسئلة الأبناء والشباب.

فقد كان الأبناء في الماضي يذهبون إلىٰ المدرسة ويعودون منها مشيًا علىٰ الأقدام، وكان يُجاب عن كثير من الأسئلة التي يفكر فيها الأبناء خلال ذهابهم وعودتهم من خلال الحوار والنقاش فيما بينهم، أو من خلال حكاية ما حدث خلال اليوم المدرسي للأب أو الأم، وقد فُقِد هذا الدور بشكل كبير في هذه الأيام، فقد تعقَّدَت الحياة أكثر، وشُغِل الأبوان بأعمالهما عن تربية الأبناء والنشء؛ لذلك لا يجد الابن إجابات صحيحة عن أسئلته، وقد لا يجد إجابات أصلًا.

ولا يخفىٰ عليك أيها القارئ الكريم أهمية دور الأسرة في تكوين الأسئلة الصحيحة، وفي الإجابة عنها بشكل صحيح، وهناك كتب ودِراسات أسهمت في مساعدة المربين علىٰ فهم هذا الموضوع وإدراكه بعمق، ومعالجة هذه المشكلة، منها:

١- كتاب (أسئلة الطفل الإيمانية)، للدكتور، عبد الله الرّكف.

٢- كتاب (الأسئلة العقائدية عند الأطفال وكيفية الإجابة عليها؟)، لبسام العموش.

٣- كتاب (مِن اليوم لن تهرب من أسئلة طفلك المحرجة؟)، لعبد الله عبد المعطي.

وهذه الكتب التي أشرت إليها موجَّهة للمربِّي، وليست للباحث عن إجابات؛ حيث إنها تساعد المربِّين من الآباء والأُمَّهات في الإجابة عن الأسئلة، فأحيانًا تكون الأسئلة متكررة؛ لأن الطفل لم يجد إجابة منذ الصِّغَر، ولا بد للمربي أن يعرف الطريقة التي يجيب بها عن الأسئلة، علىٰ الأقل يقول للابن: سنبحث، أو: سنتعلَّم، أو غير ذلك، ولا يصح للمربِّي أن ينسىٰ هذا السؤال أو يُغفِله، خصوصًا ما يتعلَّق بالأسئلة العقائدية التي تتعلق بالقضايا الدينية الكبرىٰ.

وتتفاوت هذه الأسئلة في أهميتها وأولويتها، فهناك أسئلة أقل أهمية، أو أسئلة تتعلَّق بأمور حياتيَّة، فهذه قد لا يُتَوَسَّع في الإجابة عنها أو قد يجاب عنها بطريقة مختصرة؛ لأنه لا يوجد ضرر كبير في عدم الإجابة عنها، بخلاف الأسئلة الكبرىٰ المهمة التي تمس حياة الإنسان أو معتقده أو آخرته، أو حتىٰ الأسئلة المتعلقة بفهمه للحياة وتكوين نفسيته وخلقته.

كما أن كثرة الأسئلة تدلُّ علىٰ ذكاء الطفل، ورغبته في التعلّم، وعلىٰ حُسن العلاقة بين المربِّي والمربَّىٰ؛ وذلك لأن العلاقة إذا ساءت بين المربي والمتربي فلا شكَّ أنَّ باب الأسئلة سيُغلَق بين الطرفين، ودور المربِّي غالبًا يقتصر علىٰ ثلاثة أشياء، هي: (تعليمات ومعلومات وتعاملات)، فإذا كانت التعاملات فيها إشكال وقُدِّمَت التعليمات بنوع من الغِلظة فإنَّ المعلومات تفرُّ من المستقْبِل، وبناء علىٰ ذلك فإن غياب أسئلة المتربي:

قد يدلُّ علىٰ سوء العلاقة وتزعزعها بينهما، أو أنَّ المربِّي يقدم إجابات غير مقنعة، أو علىٰ كثرة انشغال المربي وغفلته، وغياب السؤال يدل علىٰ افتقار المتربي للارتواء المعرفي.

وهذا ما جعلنا في الآونة الأخيرة نفقد هذا الدور بشكل كبير؛ لذلك اتَّجه الشباب والفتيات إلىٰ المصادر غير الموثوقة؛ كوسائل الإعلام، أو قدوات غير موثوقة لا في دينها ولا في عِلمها.

السبب الرابع: الانفتاح التقني الهائل، لقد اجتاحت الثورة التقنية جميع مجالات الحياة، حتىٰ أصبح الفرد لا يستغني عن التقنية في حياته اليومية، وأصبحت حتىٰ تعاملاتنا الشخصية والحكومية بل حتىٰ التعليم اليوم عبر هذه التقنية، ولا شك أن هذه التقنية أحدثت تغييرًا في حياتنا وسلوكياتنا، ودعنا نقُل إن هذا العالم الافتراضي لم يكن متصورًا قبل بضع سنوات.

ودعني أخبرك بقصة لازلت أتذكرها في المرحلة الابتدائية، كان عندنا معلم لغة عربية وشخص لطيف وجميل، وقال لنا: هل تعلمون أنه سيأتي وقت يكون شاشة التلفاز مثل الجوال أو مثل الكف، طبعًا نحن لم نصدق حينها لكن جاملناه وبعد خروجه كذبناه، شيء لم يكن العقل يتخيّله، وأصبح اليوم واقعًا نعيشه!

التقنية أحد المصادر التي شكَّلَت أسئلة كثيرة جدًّا، وفي نفس الوقت سبَّبَت مشكلة في مصادر التلقِّي، وقد أشارت سوزان جرينفيلد في كتابها (تغيّر العقل) إلىٰ التشتّت المعرفي الحاصل اليوم، فقد أشارت إلىٰ أن إحدىٰ الدراسات بَيَّنَت أنَّ ٦٢% من الناس عند استيقاظهم من النوم يفتحون الجوَّال! وأن ٧٩% منهم يفتحون الجوال خلال الرُّبع ساعة الأولىٰ من استيقاظهم.

وفي دراسة أجروها علىٰ ٢٠٠٠ معلِّم كانت نتيجة الدراسة أنَّ هؤلاء المعلّمين يعتقدون أن التقنيات الرقمية «ستنشئ جيلًا يتشتت انتباهه بسهوله مع ساعات انتباه قصيرة»! وتشير المؤلفة أيضًا إلىٰ أن الوجود المتمركز حول الجهاز الذكي -كالهاتف والأجهزة اللوحية- سيغيِّر من أنماط حياتنا وتفكيرنا، بل معتقداتنا وقِيَمِنا، وهذا خطير جدًّا.

أذكر مرَّة أنني سألت شبابًا في الجامعة: كم تقضي من يومك وليلتك علىٰ الجوَّال؟

لقد كانت الإجابات صادمة، إن أقلَّ واحد منهم يقضي ثماني ساعات! وهذه نسبة كبيرة جدًّا، والإحصاءات اليوم -حتىٰ في التقارير الصادرة عن هيئة الإحصاء- تشير إلىٰ أن الشباب والفتيات يقضون ساعات طويلة جدًّا في استخدام الوسائل التقنية.

ويشير تقرير هيئة الإحصاء إلىٰ أن ٩٩% من الشباب لديهم وسائل تواصل، ويقضون وقتًا طويلًا في استخدامها! وهذه نسب عالية جدًّا.

إن انفتاح الشباب علىٰ العالم، وانتشار التقنية التي ساعدَت علىٰ هذا الشيء، وغياب المرجعيَّات عند الناس، وغياب أدوات التفكير الناقد ... كلُّ ذلك ولَّدَ أسئلة أيضًا.

هل الانفتاح فرصة أم مشكلة؟

ينبغي علينا أن نتجاوز هذا السؤال؛ لأنَّه لم يعد هناك خيار إلا التعامل مع التقنية، والسؤال الصحيح هو: كيف يمكن أن نتعامَل مع التقنية؟ وهل الانفتاح سيء بكلِّ ما فيه؟

الجواب: لا، قد نستفيد من الانفتاح بمعرفة الثقافات، والاطِّلاع علىٰ التجارب، والاحتكاك بالشعوب والثقافات، ومعرفة التقدم التقني الهائل الذي وصلوا إليه، لكن هذه الثقافة الغربية التي وصلتنا تحمل داخلها قيَمًا ومبادئ تؤثر علىٰ الناس جميعًا؛ لذا تجد أنَّ هذا الانفتاح الثقافي سبَّبَ إشكالات كبيرة.

والمشكلة تتمثل في أن كثيرًا من الشباب انبهر بهذه الثقافة الغالبة، وأصبح أسيرًا لها علىٰ كافة المستويات، حتىٰ في المجال الثقافي والفكري، لذلك عندما يُقال للشباب اليوم: (اقتصرْ علىٰ الكتاب والسُّنَّة، أو: اقتصر علىٰ ما ورد في تراث المسلمين ثقافيًّا، ثم اتَّجهْ بعد ذلك إلىٰ غيره من الثقافات واستفِد)، يشعر أنَّ هذا نوع من الوصاية علىٰ تفكيره!

ورد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ، فَغَضِبَ النبي ﷺ وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(١). أي: هل عندك شكٌّ في القرآن أو السُّنّة حتىٰ تتّجه لثقافات أخرىٰ؟! وتأمل المشهد البيئة في المدينة في عز المسلمين وانتصاراتهم والمربي هو النبي ﷺ، ومَن الذي رغب في الاطلاع علىٰ الثقافات، إنه عمر رضي الله عنه الذي يسلك الشيطان فجًا غير فجه، مع ذلك غضب النبي ﷺ.

والآن نكتشف أن بعض الفلاسفة والمثقّفين الذين نقرأ مؤلفاتهم ونستعرض بها في وسائل التواصل ونحث علىٰ قراءة كتبهم، عندهم انحرافات أخلاقية وفكرية وسلوكية! إذن يجب علىٰ الشاب أن يستفيد منهم بعد أن يفهم ثقافته وفِكره وقَيِمَه ومعتقداته، لا بد أن يفهم نفسه أولًا حتىٰ يستطيع أن يحاكم فكرَ الآخر؛ وهذا سيأتي -إن شاء الله- في سؤال الهوية.

المقصود أنَّ هذا الانفتاح سبَّبَ أسئلة كبرىٰ، فصار الشباب يسألون أسئلة غيرهم، ويجاب عن أسئلة ليسَت أسئلتنا! لذلك يلجأ بعض الشباب الذين يكتبون في وسائل التواصل الاجتماعي مثلًا إلىٰ «سؤال المعنىٰ». وأصبح هو موضة العصر!

لماذا نتَّجِه إلىٰ سؤال المعنىٰ؟

سؤال المعنىٰ لا معنىٰ له عندنا، فهو سؤالُ غَيْرِنا؛ لأنَّ (سؤال المعنىٰ) واضح بالنسبة لنا، فالمسلم الصغير يعرف إجابته؛ وهي أن الإنسان خُلِق لغاية عُظمىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالمسلم

(١) رواه أحمد في مسنده رقم (١٥١٥٦).

يعرف دوره في الأرض، وهو أنَّ الله تعالىٰ خلقه للخلافة، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. والمسلم يعرف مصيره بعد الموت، وأنه سيصير إلىٰ القبر، ثم إلىٰ الجنَّة أو النار . . . فالأسئلة الكبرىٰ كلُّها واضحة عند المسلمين جميعًا.

إذن (سؤال المعنىٰ) هو سؤال الغرب الذي ليس لديه مرجعية يأخذ منها باطمئنان إجابات الأسئلة التي تكثُر اليوم؛ فالإنسان إذا فقَدَ الخريطة التي توضِّح له وجهته في الدنيا والآخرة فإنه يحتاج إلىٰ أن يسأل، وإذا كثُرَت عليه الطُرُق فإنه يحتاج أن يسأل، وفي السابق كانت الخرائط واضحة، والمرشدون علىٰ الطريق متفرِّغون لإرشاد الناس، والطُرُق ليسَت بكثيرة، وبالتالي لم تكن الحاجة إلىٰ السؤال كثيرة.

طرح تود سلون في كتابه «حياة تالفة» السؤال التالي: ما الذي تعتقد أنه المشكلة الأساسية في الحياة الحديثة؟ فذكر منها أفول المعنىٰ: تبدو الحياة خاوية.

مشكلة المعنىٰ تبرز بشكل مباشر في مستوىٰ الحياة اليومي أكثر من بروزها في مستوىٰ الرؤىٰ الكونية؛ فالأنشطة تأخذ في الرتابة، وهوايات المرء تصبح قديمة، ويضيق المرء بأصدقائه وتفاعلهم ونكاتهم، عندئذٍ يتساءل: ما فائدة هذا كله؟ وإلىٰ أين ينتهي بي؟ ولماذا يجب علي أن أتحمله؟ قد لا يكون الأمر سيئًا للغاية، ولكن من المؤكد أنه ليس حسنًا، قطعًا ليس ما توقعته من الحياة[١].

السبب الخامس: سيولة الأفكار والمعتقدات والقيم (المتغيرات التي يمر بها العالم).

هذه العبارة المنتشرة جدًّا في الآونة الأخيرة من العبارات التي قالها واستخدمها المفكر البولندي زيجمونت باومان، وهي ثنائية السيولة والصلابة،

---

(١) تود سلون، حياة تالفة، ص٥١.

وهناك عدد من المفكرين يستخدمون الثنائيات كجوزيف ناي الخشونة والنعومة، وعُرِفَت أعمال باومان الفكرية بنقدها للحداثة الغربية، ومجتمع الاستهلاك والنزعة الفردية المفرطة.

اختار باومان مصطلح «السيولة» لوصف المجتمعات الحديثة والمقصود بالسيولة: كل شيء ممكن أن يحدث، لكن لا شيء يمكن أن نفعله في ثقة واطمئنان! . . وتصدق علينا في هذا الزمن مقولة ماركس «كل ما هو صلب وكل ما هو مقدس يذوب في الهواء»، ومن هنا كانت سلسلة كتبه الشهيرة: «**الحداثة السائلة - الحياة السائلة - الحب السائل - الأزمنة السائلة**.

ويقول: نحن أشبه بمن يسيِّر «حقل ألغام» فالكل يعلم أنه سيحدث انفجارٌ في أي لحظة وأي مكان، لكن لا أحد يعلم زمان ومكان الانفجار . . . فهناك حالة من الخوف وحالة من عدم القدرة علىٰ المنع وعدم معرفة ما سيحدث.

مع هذه السيولة التي قد تصل للأفكار والقيم طبيعي تظهر أسئلة جديدة ومتسارعة، **يصدق علىٰ عالمنا التغير هو الثبات الوحيد واللايقين هو اليقين الوحيد**.

طبيعة الأسئلة المثارة اليوم:

السؤال جزء من حياتنا اليومية وجزء من طبيعة الإنسان ولا يمكن الاستغناء عنه، وإن كنا في بعض الأحيان نمارسه بشكل عفوي، لكنه يؤثر في قناعاتنا ومعارفنا، وكما يقول سقراط: «الحياة بلا تساؤلات لا تستحق العيش» . . وكثير من الناس إذا واجهته أسئلة فإنه يشعر بالقلق.

أذكر أنني جلست مع شاب متديِّن خلوق، وسألني عددًا من الأسئلة، ثم قال لي: «هل هذه الأسئلة طبيعية أم لا؟». قُلت له: جزء من هذه الأسئلة طبيعي، وهي أسئلة ترد في خاطر الإنسان في كل مرحلة يمرُّ بها في حياته؛ فهناك أسئلة العشرين، وأسئلة الثلاثين، وأسئلة الأربعين . . . فلكل مرحلة أسئلتها الخاصة التي تميزها عن غيرها.

الأسئلة منعطفات في الطريق لا بدَّ منها، لكن كيف نتجاوز هذه المنعطفات حتىٰ نصل إلىٰ برِّ الأمان بعد كلِّ مرحلة نمرُّ فيها بالأسئلة؟

إن الأسئلة ليست مقلقة كثيرًا إلا إذا:

كان المرشد يوجِّه أتباعه بطريقة خاطئة.

كثُرَت عليك الطُرُق فلم تستطع التمييز.

شعرت بقلق من هذه الأسئلة.

ففي هذه الحالات تحتاج إلىٰ التدخّل من عالِم أو مُربٍّ أو متخصص لإنقاذك من هذا الطريق الذي تسير فيه.

أنواع الشخصيات التي تثير أسئلة:

إن الشباب والفتيات غالبًا يختلفون في بحثهم عن الأسئلة التي يتلقَّونها بحسب نوع شخصياتهم، وأشهر أنواع الشخصيات هذان النوعان:

الشخصية القلقة معرفيًّا، فهو يكثر الأسئلة، وعنده فضول، ويحبُّ أن يتعلَّم، وهذا النوع لا تقنعه أيَّة إجابة، فهو يبحث باستمرار عن الإجابات، فإذا وجد إجابة فإنه يبحث عن إكمال هذه الإجابة، وهذا النوع يحتاج إجابات مقنعة، ولا تقنعه الإجابات الجاهزة، ولا بد للمربي أن يكون منطقيًّا وعاطفيًّا في ذات الوقت في إجابته.

الشخصية غير القلقة معرفيًّا، وهذا قد تقنعه الإجابات الجاهزة، وقد تشكِّل للسائل إجابة مرضية ومقنعة، فإذا وصل إلىٰ الرضا والإقناع فهو المطلوب؛ لأن السؤال ليس مقصودًا لذاته، بل هو وسيلة للوصول إلىٰ تصوُّرات جيِّدة عن الأشياء أو الأحداث أو الناس أو المواقف، أو عن إجابات أسئلة كبرىٰ عن الله تعالىٰ، وعن الوجود، وعن الكون، حتىٰ يُصدِر السائل أحكامًا صحيحة علىٰ هذه الأشياء.

كما أن الناس عمومًا بحاجة إلىٰ خطاب مقنع يجمع العقل والقلب، يقول محمد دراز في كتابه العظيم «النبأ العظيم» في حديثه عن خطاب القرآن: «ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر علىٰ أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان. وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت؛ ألا تراه في فسحة قصه وأخباره، لا ينسىٰ حق العقل من حكمة وعبرة؟ أوَ لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسىٰ حظ القلب من تشويق .. فهكذا خطاب القرآن لا يعتمد علىٰ الخطاب العاطفي الذي لا تسنده البراهين والأدلة بل يجمع بينهم»[1].

كيف تحل أسئلة القلق اليوم؟

عندما يستشير الشاب خبيرًا أو متخصصًا أو كبيرًا في السِّن فإنه يختصر عليه بعض المنعطفات التي قد تواجهه في الطريق، وهذا يساعد الشباب في حلِّ كثير من أسئلة القلق التي تواجههم اليوم. وقد أعجبني تشبيه (ريوهو أوكاوا) وهو يتحدث عن أهمية اللقاء بالرجل النبيل، وقد وصفه بأنه شخص يتسم بالاستقامة ذو مرتبة أرفع من مرتبتك أو تعليم أعلىٰ من تعليمك أو ثراء أوسع من ثرائك، أو علىٰ اللقاء في موقف يتيح له تقديم المساعدة لتحسين حالتك.

«نؤكد علىٰ الجهد الشخصي والانضباط الذاتي، لكن يمكن تشبيه هاتين الخصيصتين بسلّم لا تستطيع أن ترتقيه إلا درجة، أما اللقاء بالشخص «نبيل» فيمكن مقارنته بالمصعد، عندما تدخله يمكنك الارتقاء عدة طبقات علىٰ الفور، وعندما تخرج منه تجد نفسك في عالم مختلف تماما عن الذي غادرته للتو»[2].

---

(١) دراز، النبأ العظيم، ص١٥٠.

(٢) ريوهو أوكاوا، التفكير الذي لا يقهر، ص١٠٠.

ويذكرني هذا بأحد الأصدقاء يقولون نرغب بزيارة شخص يغيّر الاتجاه ندخل عنده بفكرة ونطلع بأخرىٰ، فكذلك استشارة أهل العلم والاختصاص تسهل علىٰ الشاب مهمة الوصول إلىٰ الهدف وتوفر عليه الوقت والجهد.

هل هناك سلطة للأسئلة؟

وهناك سلطة دائمًا تؤثر علىٰ الأشخاص في بناء معرفتهم وتكوين علومهم، ومن هذه الأفكار التي تؤثر علىٰ كثير من الشباب والفتيات في أفكارهم هي سلطة الأسئلة التي تطرح حولهم، فتجد بعضهم رهينًا لما يُعرَضُ في الإعلام أو وسائل التواصل الجديد، وتجد أنه يرفض كثيرًا من الأفكار المنحرفة ويحاربها، لكنه أسير لها ولا يستطيع التخلُّصَ منها، ونسي الأسئلة والإشكالات التي يطرحها القرآن أو التي جاءت في السنة وأجابت عليها؛ فأصبح تفكيره يدور حول ما يطرحه من يخالفه فقط، دون أن ينتج خطابًا جديدًا ينطلق من مرجعيته، ولم يعلم أنَّ هذه الأسئلة والإشكالات المعاصرة لا تنتهي، وليس هناك إشكال أن يُشغل بها الإنسان، لكن تكون بقدر محدد وجلّ وقته يشغل نفسه بأسئلة الوحي.

لماذا نستحيي من الأسئلة؟

لماذا يخاف المربِّي ابتداءً من الأسئلة؟! ولماذا يخاف الناس أحيانًا من الأسئلة؟ ولماذا يخاف المتربِّي من طرح الأسئلة؟

إن الناس يستحون من الأسئلة ويخافون منها؛ لأنَّنا ربطنا السؤال بالجهل، وهذا إشكال؛ إذ السؤال لا يدلُّ علىٰ الجهل، ولا يدلُّ علىٰ التشكيك أو اختبار المسؤول، كما أننا قد نخاف من طرح الأسئلة؛ لأنه تقرر في أذهاننا أن المتحدثين قد لا يرغبون في مشاكستهم أو التعقيب عليهم، وهذا خطأ من المتحدث إذا كان رافضًا ذلك حقًّا، ولا يستحق أن يكون من أهل الفكر والرأي. وهو خطأ أيضًا عند المعقِّب لو تردد في طرح سؤاله وهو يدرك أن عنده ما يُكمل به معنىٰ، أو يثير به قضية، والأفضل في كلا الحالتين طرح القضية وعند السائل

قدر من الإجابة -ولو لم تكن شاملة وواضحة ووافية-، لكنها إجابة واضحة ممهدة للوصل إلىٰ الحقيقة؛ فليست العبرة في أن يظلَّ الإنسان يستشكل دائمًا، ويثير القضايا، ويبقيها معلقة.

قال ابن القيم: «إنما يعارض بينها من ضعفت بصيرته وإن كثر كلامه وكثرت شكوكه؛ فالعلم أمر آخر، وراء الشكوك والإشكالات»[١].

ولكنَّ السؤال له أهداف وفوائد متعددة، منها:

السؤال يكون لإثارة معنىٰ.

السؤال يكون لاستيضاح مشكلة.

السؤال يكون لفضولٍ معرفيٍّ.

السؤال يفتح آفاقًا جديدة أمام السائل.

فالسؤال ليس مقلقًا بالنسبة للمربين، ولا يدل علىٰ جهل السائل؛ لذلك قال مجاهد: «لاَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ»[٢]. وقد كان بعض الصحابة يقضون أيامًا حتىٰ يتعلَّموا حديثًا واحدًا. ولمَّا سُئِل عمر رضي الله عنه عن ابن عبَّاس، قال: «ذاك فتىٰ الكَهول، له لسانٌ سَؤول، وقلبٌ عقول»[٣]. قوله: سَؤول، يعني أنه حصَّل العلم بكثرة السؤال.

هل السؤال مظنّة التحصيل المعرفي أم مظنّة التشتيت المعرفي؟

إن السؤال مظنَّة التحصيل، فحُسن السؤال هو نصف العلم.

ورُوي عن علي رضي الله عنه: «الْعِلْمُ خَزَائِنُ، وَمِفْتَاحُهُ السُّؤَال، فَاسْأَلُوا يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ . . .»[٤]. فالعلم مثل الأبواب المغلقة التي تفتح بالسؤال.

---

(١) ابن القيم، شفاء العليل، ٢/٨٥٢.

(٢) رواه البخاري معلقًا، ص١/٣٨.

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ٢/ ٩٧٠.

(٤) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ٢/ ٦١.

وقيل: «لا تجزَع بتفريع السؤال؛ فإنَّه يُنبِّهك إلىٰ علم ما لم تعلم»[١]. فإذا سألك سائل، ثم سألك عن توضيح جوابك، ثم سألك سؤالًا آخر عن الجواب . . . فلا تجزع من هذه الأسئلة؛ لأن السؤال مفيد للسائل والمسؤول[٢]. فالمعلم الذي يدرِّس طلّابَ المرحلة الابتدائية يضيق أفقُهُ وتقل معرفته؛ لأنَّه بقدر السؤال يكون التوسع في العلم، فإذا درس لطلاب الجامعة فإن معرفته ستزيد؛ لأنه يُسأَل أسئلةً أعمق وأوسع، فيزداد علمًا ومعرفةً.

وكان الشنقيطي رحمة الله عليه يقول لطلَّابه: «عليكم بنصف العلم. قالوا: وما هو؟ قال: السؤال! وعليَّ بالنصف الآخر. قالوا: وما هو؟ قال: لا أدري»!

إن خوف المربِّي أحيانًا مِن أن يُتَّهَم بالجهل إذا قال (لا أدري)، وخوفه أيضًا من نوعية الأسئلة يجعله بعيدًا عن تحصيل العلم؛ لذلك قالت العرب: «إنّما يسأل السائل للاستخبار أو للاستبصار». فالاستبصار لأنه جاهل يريد المعرفة، وأحيانًا يكون السؤال للاستخبار، أي: اختبار معارف الآخر ومعلوماته.

كيف يقلِّل المربِّي مخاوفه من أسئلة المتربِّي؟

من الأشياء المهمة للمربِّين أن يشجِّعوا الشباب والفتيات علىٰ السؤال؛ لأنَّ التصدُّر للناس يجعل المتصَدِّرَ أكثر عرضة للسؤال، وهذا يفتح آفاقًا كثيرة للتعلم والبحث والاطّلاع والمعرفة. لذلك إذا أُغلِق عليك علم فدرِّسْه؛ لأنَّ تدريسه سيسهِّل عليك البحث عن المعلومات ومراجعتها ونقلها وحفظها، وهذا يفيد في إتقان هذا العلم.

كما ينبغي أن يكون الإنسان صادقًا تقيًّا متواضعًا؛ فلا يجزَع ولا يخاف أن يقول: (لا أعلم)! فهذه الكلمة أُثِرَت عن كثير من العلماء، وقد رُوِي عن الإمام

---

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ١/ ٣٨١.

(٢) بعض العلماء والخبراء لا تأخذ ما عنده من العلم إلَّا من خلال السؤال! ولا بد أن يكون سؤال بأدب، وأشير إلىٰ محاضرة لوزير الشؤون الإسلامية الأسبق الدكتور/ صالح الشيخ، حول أدب السؤال، وهي محاضرة قيِّمة مفيدة تتعلق بآداب السؤال عن العلوم الشرعية وغيرها.

مالك بن أنس أن رجلًا سأله عن مسألة، فقال مالك: لا أدري! فقال الرجل: سافرت البلدان إليك! فقال مالك: ارجع إلىٰ بلدك، وقل: سألت مالكًا، فقال: لا أدري[1]. وهذا لا يعيب الإنسان بل يرفعه، ويزيد ثقة الناس فيه.

إن مَن يقول: لا أدري، ينتصر علىٰ نفسه وشيطانه، ومَن تحدَّث فيما لا يعلم اتُّهِم فيما يعلم، ومَن قال: (لا أدري) في شيء لا يعلمه فإنه يُرسِل رسالة ضمنية أنَّ كلَّ ما كان قبل ذلك كان عن دراية وعلم، وبالتالي فهي نقطة شرف وقوة له.

وقد حكىٰ الله تعالىٰ عن الملائكة قولها: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْبِقَاعِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**». فَقَالَ: أَيُّ الْبِقَاعِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**»[2].

وجاء في حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَدْرِي أَتُبَّعُ لَعِينًا كَانَ أَمْ لَا، وَمَا أَدْرِي ذُو الْقَرْنَيْنِ نَبِيًّا كَانَ أَمْ لَا**»[3]. فالنبي ﷺ قال: (لا أدري)!

وبذلك فخوفك من الأسئلة إنَّما هو خوفٌ من انتقاص الناس لك، وبالتالي أنت تبحث عن نفسك، فإذا تخلَّص الإنسان من حظِّ نفسه سَهُلَ عليه أن يقول: (لا أدري).

إذن فيما يتعلق برهبة السؤال نوضح ما يلي:

- لا ينقص من قدر المتحدث أن يقول: (لا أدري).
- (لا أدري) صفة كمال، والدليل علىٰ ذلك أن الملائكة قالت: (لا علم لنا)، وثبتت في أحاديث النبي ﷺ.

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر (٢٢٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٠٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٢١٧٤).

- مَن تكلم بما لا يعرف فهو كلابس ثوبَي زور، أي: إنه يدعي العلم رغم جهله. لذا فالمسلم يحرص علىٰ أن يُسأل عما لا يعرف، حتىٰ يصل إلىٰ إجابات لهذه الأسئلة التي لا يعلمها، فمِن خلال السؤال سيعلم المزيد.

- هذه الأسئلة يستفيد منها المربي كما يستفيد منها السائل، فلا يصح للمربي أن يجزَع أو يهرب من الأسئلة؛ لأن السؤال مفيد للمعلم والمتعلم.

- من الإشكاليات التي تواجه الشباب والفتيات أنَّ وسائل التواصل أتاحَت لهم الإجابة عن الأسئلة، والحديث في كلِّ قضية، وظن كثير من الشباب والفتيات أنه يمكن أن يُسأَل ويجيب عن أسئلة الآخرين!

كيف نتيح ثقافة الأسئلة أو ننشرها؟

ينبغي علىٰ المربِّي أن يُعلِّم المتعلمين كيف يسألون بشكل صحيح، وإذا سُئِل فلا ينبغي له أن يتبرَّم، أو يتغيَّر وجهه . . . وفي الوقت نفسه علىٰ الشاب والفتاة احترام قدر مَن يُعلِّمُه أو يُرَبِّيه (سواء كان أبًا أو أُمًّا أو مربيًا أو عالِمًا)، فلكلٍّ مِن هؤلاء قدره ومنزلته.

يقول الله تعالىٰ عن آداب السؤال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [المَائدة: ١٠١].

قال ابن حجر: «والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل إما علىٰ سبيل الاستهزاء أو الامتحان، وإما علىٰ سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان علىٰ الإباحة»[1]. فبعض الناس يسأل ليختبر معلوماتك، وبعضهم يستعرض علمَه من خلال طرح السؤال!

(١) ابن حجر، فتح الباري ٨/ ٢٨٢.

ما ضوابط السؤال وآدابه؟

للسؤال ضوابط وآداب، منها:

* أن يكون السؤال مفيدًا.
* أن يكون مختصرًا.
* اختيار الوقت المناسب.
* اختيار الأسلوب المناسب.
* الثناء علىٰ الشخص بما لديه من العلم.

ورَد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لم يسألوا النّبي ﷺ إلَّا ثلاث عشرة مسألة، منها قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وغيرها من الأسئلة التي وردت في القرآن الكريم[١]. وكانوا يفرحون بالرجل يأتي من البادية يسأل؛ ليسمعوا إجابة النبي ﷺ.

إن الإكثار من الأسئلة غير المفيدة أمر غير مرغوب فيه؛ لذلك فالمسائل التي لا يترتَّب عليها عمل لا ينبغي أن تُناقَش، كسؤال بعضهم: أيهما أفضل؛ صالحو الإنس أم الملائكة؟ هذه مسألة نظرية لا يترتب عليها عمل؛ إذن فالأفضل ألا تُناقَش.

ومن آداب السؤال أن يسأل السائل بطريقة مناسبة، وعليه أن يسمع الإجابة بقلب حاضر حتىٰ يعقل الإجابة، حتىٰ لو لم تعجبه الإجابة، وعليه أن يقبلها طالما أنها بُنِيَت علىٰ دليل نقلي أو عقلي، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ

---

(١) تفسير القرطبي، ٣/ ٤٠.

إن كُنتُمْ صَدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ١١١]. فهذه قاعدة قرآنية! فإذا سمعت البرهان والدليل فناقشه، واقْبَلْ ما يوافق الدليل، وارفض ما يخالفه.

بيان ما ورد في النهي عن كثرة السؤال:

ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ** . . .»(١).

وفي حديث آخر: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَىٰ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»(٢).

والأسئلة المنهي عنها في الحديثين هي الأسئلة المبنية علىٰ التعنّت أو الاستهزاء، أو الأسئلة التي لا فائدة منها؛ إذن الشباب بحاجة إلىٰ أن يسألوا الأسئلة المفيدة، ويتعلَّموا كيفية صياغتها بالشكل المناسب، مع التحلي بآداب السؤال وضوابطه.

ولعلَّ النهي عن كثرة السؤال كان وقت نزول الوحي؛ حتىٰ لا تُضيَّق علىٰ المسلمين دائرة المباحات؛ ففي الحديث قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**»(٣).

إذن يُستفاد من الأحاديث المتقدمة أن النهي عن كثرة السؤال:

- مرتبط بوقت نزول الوحي.
- أن يكون للاستهزاء أو التعنّت أو إبراز الذّات.
- ألا يكون من الأسئلة التي لها ثمرة عملية.

---

(١) متفق عليه: وراه البخاري رقم (٧٢٨٨)، ومسلم رقم (١٣٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٤٧٧)، ومسلم رقم (٥٩٣).

(٣) رواه البخاري رقم (٧٢٨٩).

ومما يوضح بجلاء آداب السؤال: أن النبي ﷺ ذكر للصحابة الدجال وفتنته، فلم يسأله الصحابة عن شكله أو لونه أو غير ذلك، بل سألوا عن مدة بقائه في الأرض، فقال النبي ﷺ: «... **وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمًا كَسَنَةٍ، وَيَوْمًا كَشَهْرٍ وَيَوْمًا كَجُمُعَةٍ، وَيَوْمًا كالأيام فِي تِلْكَ الْأَيَّام، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالسَّرَابِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ فَيَمْشِي قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ بَابَهَا الْآخَرَ**. قَالوا: فَكَيْفَ نُصَلِّي يَا رَسُولَ اللهِ، فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْقِصَارِ؟ قَالَ: «**تُقَدِّرُونَ فِيهَا كَمَا تُقَدِّرُونَ الْأَيَّامَ الطِّوَالَ**»[1]. فانصرفت أذهان الصحابة مباشرة إلىٰ الأسئلة المثمرة التي ينبني عليها عمل كأداء الصلاة والعبادات خلال هذه المدة، وتركوا الأسئلة غير المفيدة التي لا يترتب عليها عمل.

ويقول الله تعالىٰ في قصّة أهل الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]. فلم يشغلوا أنفسهم بالمدة التي ناموا خلالها، فهذا السؤال لا يستحق أن تجيب عنه أو تفكر فيه، ولا يستحق أن تعقد من أجله المجالس النقاشية أو تستشير الآخرين؛ لذلك تركوا هذا السؤال غير المهم وانصرفوا إلىٰ غيره، ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

وهناك أسئلة كانت فَتحًا وخيرًا وبركة لمَن سألها أو مَن تم سؤاله عنها، سواءً في بداية مشروعات تجارية، أو تأليف كتب، أو تأسيس مؤسسات وجهات خيرية، ومِن ذلك أن أهل واسط لما سألوا ابن تيمية رحمه الله عن العقيدة كتب لهم كتاب (العقيدة الواسطية)!

وسُئِل ابن القيِّم رحمه الله عن العشق، فكتب كتاب (الداء والدواء)!

وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي جاء نتيجة سؤالٍ من سائل لمؤلفه!

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٧٦٤٤).

إن كثيرًا من الشباب والفتيات لا يشعرون أنَّ الأسئلة المطروحة التي تُسأَل يوميًّا في مواقع وسائل التواصل تسيطر عليهم دون أن يشعروا، فيسير تجاه هذه الأسئلة؛ فأصبح غير قادر علىٰ إنتاج معرفة أو مشاريع، أو خطاب مناسب، إنه يبحث عن إجابات لهذه الأسئلة، وينتقل من سؤال إلىٰ سؤال، ولو أسَّس الشاب نفسه جيِّدًا، وانطلق في طريقه، واعتبر أنَّ الأسئلة هي منعطفات لا بدَّ من التعامل معها والإجابة عنها لكان حاله مختلفًا.

إن بعض الشباب يبحث عن إجابات الأسئلة، وبعد أن يجد الإجابة فإنه لا يبني عليها عملًا، ولا يستفيد منها في واقع حياته، ويبحث عن إجابة سؤال آخر؛ لأن حياته مبنية علىٰ الأسئلة والاعتراض والجدال والنقد -كما سبق وأن أشرنا-!

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما فضيلة أحدهم باقتداره علىٰ الاعتراض والقدح والجدل، ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم، ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وإنما العلم في جواب السؤال»[1]. فالعلم في أنك تسأل وتجيب، وتجيب وتسأل، ولا يصح أن يقتصر الأمر علىٰ الاعتراض والنقد.

من مشكلاتنا أن بعض الشباب والفتيات يبني مشروعه علىٰ طرح أسئلة لهدم الآخرين ونقدهم والاعتراض عليهم، وهذا ليس مشروعًا في ذاته، فقد يكون للإنسان طريقة أخرىٰ في النقد والتطوير والتحسين والإضافة.

منهجية التعامل مع السؤال:

لا إشكال من وجود إجابات عامة تصلح لبعض الأسئلة، فأحيانًا تكون إجابة السؤال الواحد متشابهة مع جميع السائلين إذا كانوا يعيشون في بيئة واحدة، لكن لا شكَّ أنَّ كلَّ شخص له ما يقنعه، وكلّ سائل له ظروفه التي دفعته للسؤال.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ ٤/٢٨.

أذكر أنني سألتُ أحدَ أهل العلم عن حكم صلاة الفجر عند الانتقال من مِنىٰ إلىٰ عرفة -في حال الازدحام كما كان في الماضي-، فأجاب إجابة مختصرة: «صلِّ، صلِّ»!

وذات مرة سألت شخصًا عن كتاب، ففصَّل في الإجابة بإسهاب عن ذلك الكتاب.

قال الشاطبي عن (خصائص المجتهد): «أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات»[1]. أي أنه يرىٰ مآل جوابه قبل أن يخبرك الإجابة.

وكان من منهج النّبي ﷺ في التعامل مع الأسئلة أنه كان يوجِّهُ الصحابة إلىٰ أن يسألوا الأسئلة التي تفيدهم، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ فسأله النبيُّ ﷺ: **«وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»**[2].

فهذا هو السؤال الأكثر أهمية، فأنت لست مطالبًا بوقت قيام الساعة، لكنك مطالب بما ينبني عليه عمل.

وعن أَبي هُرَيْرَةَ قال: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»**[3]. فأعطاه النبي ﷺ إجابة السؤال الذي سأله وأكثر بما ينفعه ويحتاج إليه أكثر، فقال: **«هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»**. فيمكن أن يحتاج الصحابة إلىٰ الجزء الثاني من الجواب أكثر من احتياجهم الجزء الأول؛ لذلك بَيَّنَ لهم حكم مائه، وحكم الأكل من الأسماك الميتة.

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: **«لاَ تَغْضَبْ»** فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: **«لاَ تَغْضَبْ»**[4].

---

(١) الموافقات، الشاطبي ٥/ ٢٣٣.

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٨٣).

(٤) رواه البخاري (٦١١٦).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ**»[١].

فالسؤال في هذه الأحاديث واحد، ولكن النبي ﷺ أجاب إجابات مختلفة، وهذا يُسمَّىٰ (فقه النفس)، أي: كيف يكون للمفتي فقه وعلم بحال المستفتي؟

ليس لكلِّ سؤال جواب:

ليعلم الشباب والفتيات أنَّه ليس لكلِّ سؤال جواب! واكتفاء الشاب بالتسليم أحيانًا هو أبرز جواب يمكن أن يتلقاه علىٰ سؤال مقلق.

ومن الإشكالات التي تواجه كثيرًا من الشباب والفتيات اليوم أنه إذا وجد سؤالًا يخالف قناعته، أو إجابة مختلفة عن قناعته فإنه يشكُّ فيما لديه من علم ومعرفة، وهذا منهج غير صحيح؛ بل علىٰ الشاب أن يثق فيما لديه من علم قائم علىٰ الأدلة والبراهين، وألا ينساق وراء كل ما يسمع؛ لأنه توجد أسئلة لا يمكن الإجابة عنها (مثل الغيبيات)، إذ لا يمكن الإجابة عنها إلَّا من خلال الوحي.

ومن ذلك: أن رجلًا سأل الإمام مالكًا عن الاستواء، فقال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، ولا يسأل عنه إلَّا مبتدع، ولا أظنّك إلَّا مبتدعًا»[٢]. فأخرجوه من الدرس؛ فالقضايا الغيبية والتعبّدية لا يمكن معرفة كُنهها أو الوصول إلىٰ إجابات تفصيلية فيها.

إذن البحث عن علّة الأمور التعبدية غير مطلوب! لماذا نصلي الظهر أربع ركعات وليس خمسًا؟ ولماذا نطوف حول البيت سبعًا وليس ستًّا؟ فالله تعالىٰ يريد في هذه المسائل أن يستخرِج منك العبودية له والتسليم لأمره.

وقد ربَّىٰ النَّبي ﷺ أصحابه علىٰ التسليم لأمر الله تعالىٰ، فقد كانوا يسلِّمون في كثير من القضايا ولا يسألون، ويُروَىٰ في ذلك أن النبيَّ ﷺ كان علىٰ المنبر،

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٤٥).

(٢) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص٣٨.

فقال: «**اِجْلِس**». فجلس أحد الصحابة وهو خارج المسجد وكان قادمًا إلىٰ الصلاة! فجلس وهو لا يعرف العلة من ذلك[1]. إذن توجد أسئلة لا يمكن معها إلَّا التسليم لأمر الله تعالىٰ؛ لأن السؤال عنها غير مفيد.

دور المربِّي المسؤول:

علىٰ المربي أن يتعلَّم ويطوِّر نفسه باستمرار، ومن أهم العلوم التي يجب علىٰ المربي إتقانها علم العقيدة؛ حتىٰ يستطيع الإجابة عن الأسئلة الكبرىٰ، ولا يجوز التقليد في العقيدة عند بعض العلماء، أي: يجب أن تأخذ المسألة بدليلها، وهذا فرض عين عليك، ومن المصيبة أن تجد الشباب هذا الزمن قد يحتقرون علم العقيدة والتخصص فيه، ويرون أنه جاف لا يجيب عن إشكالاتهم ولا يحرك أذهانهم؛ وهذا مفهوم خاطئ ومنحرف، فعلم العقيدة أهمُّ علم يحرك التفكير العلمي النَّاقد، ويوقظ الضمير الحي؛ لما فيه من البراهين التي لا خلل فيها، والتي تؤسس العقل، وتذكي القلب، وتقوي الشخصية.

إذن علىٰ الشخص أن يتعلم ويطور نفسه، ويبحث عن إجابات أسئلة المتعلمين، وعليه أن يجتهد في ذلك ويبذل قصارىٰ جهده، ثم عليه أن يقول: لا أدري، إن كان لا يعلم إجابة السؤال.

دور البيئة في إشباع حاجة السائل (المتربّي):

أحيانًا توجد بيئة لا تلبِّي احتياج المتربّي في الإجابات، وهذا يقودنا إلىٰ سؤال آخر: لـمَن يُوجَّه السؤال؟ إذا كانت البيئة لا تلبِّي هذه الحاجة، فالإنسان لديه مَن يثق بدينه وعلمه، فيمكن أن يسأل المتخصص في كل فنٍّ؛ كأحد المتخصصين أو الوالدين أو إمام المسجد أو غير ذلك.

لكن ينبغي الانتباه إلىٰ أن السائل يجب عليه أن يبحث عن شخص مؤهل في القضية التي يبحث عنها، وبناءً علىٰ ذلك يجب علىٰ السائل أن يبحث عمَّن

---

(١) رواه أبو داود (١٠٩١).

لديه علم في هذا التخصص، ومَن يثق بدينه وعلمه؛ لأنَّه قد يكون متخصصًا لكن لا يُوثَق بدينه، فهذا لا يُسأَل ولا يُستَشَار.

ويمكن للسائل أن يسأل أكثر من شخص، فتنويع الإجابات يضيف للسائل الجديد، ويفتح له الآفاق.

مراتب الأسئلة:

هل بعض الأسئلة أهم من بعض؟ وما الأسئلة الأهم والأسئلة الأقل أهمية؟

يقال في ذلك: ينبغي أن تسأل (لماذا؟) قبل أن تسأل (كيف؟)، فالواقع أن كثيرًا من الناس يسأل: كيف أطلب العلم؟ كيف أحفظ القرآن؟ كيف أتعلم التقنية؟ وغير ذلك. إذن ينبغي أن نسأل (لماذا؟)؛ لأنَّ (لماذا؟) هي التي تتكلم عن الدوافع والمحرِّكات والمحفِّزات، فسؤال (لماذا؟) قد يكون أهم من سؤال (كيف؟ وماذا؟)[(١)].

إذن السؤال بـ (كيف) يعطيك الطريقة التي تستخدمها في تنفيذ المطلوب، أما (لماذا)، فهو الذي يعطيك الدافع للاستمرار علىٰ الطريق؛ وذلك لأن إخلاص الشاب لله تعالىٰ ونيّته ورغبته وحرصه هو الذي يدفعه للاستمرار، كما أن (لماذا) تحدد له الهدف؛ لذلك فسؤال (لماذا؟) هو السؤال الأهم الذي ينبغي أن يركِّز عليه كل شاب وفتاة، ويمكن القول: (لماذا) هي الوقود، و(كيف) هي التي تقود. ويُقَال أيضًا: (لماذا؟) حريق و(كيف؟) هي الطريق.

معايير السؤال الصحيح:

الأسئلةُ فنٌّ يُدرَس، وليس كلُّ الناس يُوفَّق إليه، وفي تخصص مناهج التدريس بكليات التربية يوجد قسم يُعلِّمُ كيفيةَ وضع الأسئلة، ويدرس المعلِّمُون في هذا القسم كيفية طرح السؤال بشكل صحيح.

---

(١) يوجد كتاب اسمه (لماذا؟) لمؤلفه ساني موسينك، ويشير الكتاب إلىٰ أنَّ (لماذا) هي الدائرة الأهم في الأسئلة؛ لأنها هي التي تُخرج ما بداخلك، وتجعلك تقتنع.

وفي كتاب (القادة الجيّدون يطرحون أسئلة عظيمة) لمؤلفه جون ماكسويل، تطرق المؤلف إلىٰ (كيف تسأل؟ وما معايير السؤال؟)، فالمؤلف يبين معايير الأسئلة، وكيفية طرح السؤال بشكل جيِّد، وفي الجزء الثاني من الكتاب تكلَّم عن أسئلة القادة، وكيفية الإجابة عنها.

أيضًا يوجد كتاب اسمه (طرح الأسئلة المناسبة مرشد للتفكير الناقد) للمؤلفين نيل براون وستيوارتم. كيلي، وقد اهتم المؤلفان بالتفكير الناقد، وذلك من خلال الأسئلة وفرز القضايا وعلاقاتها وطريقتها، وتوجد تطبيقات عملية في نهاية الكتاب. وهذان الكتابان يساعدان السائل في طرح السؤال بشكل صحيح.

ومن معايير السؤال الصحيح أن يكون ذا جواب مريح! فأحيانًا علىٰ المسؤول أن يجيب إجابة مريحة، والمقصود بها ليست التي علىٰ هوىٰ السائل، بل التي يناسبه تطبيقها، ويدله إلىٰ الحقيقة، وكيف يتعامل مع قضيته، ويتعاطاها من نواحيه الخاصة التي لا تخرق قانونًا، ولا تعتدي علىٰ تشريع، ومع ذلك أحيانًا تكون الأجوبة المرَّة هي الأنفع، وذلك يختلف باختلاف المشكلة موضع السؤال، وحال السائل.

أيضًا السؤال الصحيح هو الذي يخاطب المعتقد مباشرة، ويجعلك تفكِّر تفكيرًا صحيحًا، ومن ذلك أن إبراهيم عليه السلام سأل قومه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. فكانت النتيجة: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]! فتفكير قوم إبراهيم عليه السلام كان بسبب السؤال.

وأحيانًا يكون السؤال الصحيح هو الذي يعيد الترتيب من جديد، ويجعلك تنظر إلىٰ الفكرة بطريقة مختلفة ومن زاوية أخرىٰ. ومن ذلك: أن رجلًا جاء أبا حنيفة فأكبَره، ثم سأل الرجلُ أبا حنيفة قائلًا: «يا إمام، متىٰ يُفطِر الصائم؟ قال أبو حنيفة: إذا غربت الشمس! قال الرجل: فإنْ لم تغرب؟! فقال أبو حنيفة كلمته المشهورة: «آنَ لأبي حنيفة أن يمُدّ رِجلَيه».

ويُروَىٰ أن رجلًا ذا هيبة ولباس مهيب جاء أحد الحكام وسأله أسئلة غير مهمة، لا تفيد السائل ولا المسؤول، فقال له الحاكم: «يا هذا، إمّا أن تلبس كما تقول، أو تقول كما تلبس».

ويُروَىٰ عن الشَّعبيِّ أنه كان يتهكّم بكثير من الأسئلة التي لا فائدة منها، فقد سُئِل عن زواج الشيطان فقال: «ذاك عُرسٌ ما شهِدناه»! وسُئِل مرَّةً عن تخليل اللحية فقال: «ضع في يدك ماء وخلِّلها. قال: إذا كانت كثيفة؟ قال: انقعها من الليل»[1]!

إذن توجد أسئلة لا ثمرة منها أو لا فائدة منها؛ وهذه لا ينبغي للإنسان أن يسألها، بل عليه أن يسأل عما ينفعه، قال حُذيفة ﵁: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[2]. وهذا يبين أهمية معرفة الأضداد؛ لأنها تلقائيًّا ستعلمك الحسن، قال الشاعر:

ضدان لما استجمعا حَسُنَا ... والضد يُظهِر حسنَهُ الضدُّ

إن معرفة كيف تسأل، وطريقة الأسئلة، وتحديد زمانها سيغيِّر كثيرًا في حياة السائل، وسيستفيد منها المجيب وغيره؛ لذلك فالسؤال مهم جدًّا؛ حيث إنه يقود إلىٰ الجواب الصحيح، والفكر السديد.

وهنا فكرة يثيرها البعض، وهي تنظيم زيارات معرفية، ورحلات أسئلة إلىٰ العلماء والمتخصصين كما فعل النبي موسىٰ ﵇ مع الخِضر، حيث كانت الرحلة كلها قائمة علىٰ السؤال والجواب، والتعليق علىٰ الجواب.

لقد كان الشباب والفتيات في الماضي يكتبون أسئلتهم واستفساراتهم ويسجلونها، ثم يزورون العلماء والمثقفين والمتخصصين والمهتمين، ويبحثون عن إجاباتها ... وقد قلَّ هذا كثيرًا في الآونة الأخيرة، واستغنىٰ الشباب بمصادر غير موثوقة من الشبكة الدولية وغيرها. لذلك فالإشكال اليوم ليس في الإجابة، وليس

---

(١) المراح في المزاح، أبو البركات الغزي ١/ ١١.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

في المعرفة والحصول عليها، بل الإشكال في تنظيم المعلومات والمعارف، فمَن كان شيخه كتابه، غلب خطؤه صوابه.

ويقول أبو هلال العسكري:

ولو أني جُعِلْت أميرَ جيشٍ لَما قاتَلْتُ إلّا بالسّؤالِ
لأنّ النّاسَ يَنهزِمونَ مِنه وقدْ ثَبَتوا لأطراف العوالي

فالناس يثبتون أمام الرماح، ويهربون من السؤال؛ ولذلك فقوّة المربّي أن يكون قادرًا علىٰ أن يستقبل الأسئلة، وأن يكون قادرًا علىٰ أن يقول: (لا أدري) إذا كان لا يدري، وأن يبحث عن الذي يجهله من العلم والمعرفة، ثم يقدِّم المعرفة للسائل بطريقة مناسبة[1].

إن لدينا مصدرين معصومين وهما القرآن الكريم والسُّنة النبوية، ولو اتَّجهنا إليها بأسئلتنا الفكرية والثقافية والأسئلة التي نعاني فيها من القلق لوجدنا إجابات شافية كافية مطمئنة، خاصة الأسئلة الكبرىٰ التي انتشرت في هذا الزمان.

مراجع للاستزادة:

- أسئلة الطفل الإيمانية، د. عبد الله بن حمد الركف.
- إلىٰ الجيل الصاعد، أحمد السيد.
- الأسئلة العقائدية عند الأطفال، بسام العموش.
- من اليوم لن تهرب من أسئلة طفلك المحرجة، عبد الله محمد عبد المعطي.
- تغير العقل، سوزان جريفيلد.
- التفكير الذي لا يقهر، ريوهو أوكاوا.

---

(١) أَلَّفَ شابَّان كُتيبًا صغيرًا اسمه (الأسئلة)، جَمَعَا فيه ستمئة سؤال، وهو كتاب مطبوع ويُباع، ويهدف هذا الكتاب إلىٰ تعليم الناس كيفية السؤال؛ لأن الناس لا يسألون أسئلة جيدة؟ فجمعَا الأسئلة! وهذه الأسئلة قد تكون مفيدة في كيفية طرح بعض الأسئلة.

- ابدأ بـ «لماذا»، سايمون سينك.

- القادة الجيدون يطرحون أسئلة عظيمة، جون ماكسويل.

- طرح الأسئلة المناسبة، مرشد للتفكير الناقد، م. نيل براون وستيوارتم. كيلي.

- كتاب الأسئلة ما الذي يحفزك؟ مزيكل كروجرس، وورومان تشابلر.

الفصل الثاني

سؤال الهوية

سنتناول -أخي القارئ- في الصفحات التالية «سؤال الهوية»، وسؤال الهُوية من الأسئلة الكبيرة في واقعنا، وهذا السؤال يُطرَح بشكل متكرر، وإجاباته متنوعة مختلفة؛ لأن الهُوية هي الحاكمة علىٰ ما بعدها من أسئلة متفرعة عن هذا السؤال الكبير.

إن سؤال الهُوية سؤال مهم وصعب، وله تفريعات كثيرة؛ لأنه يتنازعه عدة عوامل وقضايا ومظاهر مختلفة؛ وذلك لأن سؤال الهُوية فيه تدخلات كثيرة، مثل: العرق، والقبيلة، والبلد التي يسكنها الإنسان، والهُوية أيضًا لها ارتباط بالنفس والمجتمع والفكر والفلسفة، وهذه العوامل جعلت الهُوية موضوعًا معقدًّا عند بعض الناس، والأصل أن الهُوية الإسلامية بشكل عام واضحة، وإجاباتها موجودة، فالقضايا الكبرىٰ في الهُوية إجاباتها واضحة.

نشأة الهُوية الإسلامية:

هناك مَنْ يقول: إن الهُوية هي الإسلام، لكن الهوية موجودة قبل الإسلام، فكانت الهويات المنتشرة هي الهويات القبلية والتعصب القبلي، وقد استمرت بعض الحروب لسنوات بسبب الهُوية القبلية، قال الشاعر الجاهلي:

وَهَلْ أَنـا إلا مـن غَـزِيَّـةَ إِنْ غَـوَتْ غَـوَيْـتُ وَإِنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ

ثم جاء الإسلام لتهذيب هذه الهُوية، ولفرض الهُوية الإسلامية المتوافقة مع معالم الشريعة الغراء، وضَمَّ كلَّ هذه الهويات تحت هذه الهُوية الكبرىٰ، وهي الهوية الإسلامية.

تحويل القِبْلة والهوية:

في قضية تحويل القبلة نلحظ ظهور التربية علىٰ الهُوية الإسلامية؛ لأن المسلمين كانوا يتجهون في صلاتهم أول الأمر إلىٰ المسجد الأقصىٰ لمدة ستة عشر شهرًا، وكانت هذه القضية شُبهةً يطرحها اليهود علىٰ المسلمين، وهي أن المسلمين لا يتبعون دينهم؛ إذ لو كان دينهم صحيحًا لما اتجهوا إلىٰ قبلة اليهود؛ لذلك وصف الله ﷻ حال النبي ﷺ فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فأمر الله تعالىٰ المسلمين بتحويل القبلة إلىٰ الكعبة.

فالخطاب القرآني يربي المسلمين علىٰ الهوية الجديدة، وينزع من نفوسهم التعصب لغير الدين، وينزع الهويات الأخرىٰ التي قد تنازع الهُوية الإسلامية، وهذه حكمة جليلة لمن يتأملها، فقد ذكر الله ﷻ أن مِن حِكم تحويل القبلة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهذه تربية للصحابة ومَنْ بعدهم من الأمة أن يكون التجرد للإسلام، والولاء لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

أسباب زعزعة الهوية الإسلامية:

بعد عصر صدر الإسلام ظهرت قضايا متعددة زعزعت الهُوية، ومن ذلك:

- **ترجمة كتب الفلسفة اليونانية**، كما حدث في العصرين الأموي والعباسي، وهذه المستجدات فتحت ثقافة جديدة علىٰ الأمة، وزعزعت الهُوية.

- **علم الاستشراق** الذي هو حقل معرفي لدراسة علوم الشرق، ولا شك أن الاستشراق نفع المسلمين في بعض القضايا، لكنه أثار عليهم شبهات وشكّك في هوياتهم.

- **الاحتلال الأجنبي**، وهو مِن العوامل التي أثرت علىٰ الهُوية الإسلامية بشكل عام.

- **البعثات التعليمية (الإرساليات التعليمية)**، فهذه البعثات فتحت أبوابًا إلىٰ هوية جديدة لبعض الكتاب والمثقفين، وبدؤوا يتساءلون عن الهُوية، وبدأ يكثر مصطلح الهُوية في كتابات المفكرين، ولعل من أسباب ذلك عدم وجود مرجعية دينية واضحة في أذهانهم.

- **الثورة الصناعية**، بعد الثورة الصناعية نشأت الدول الحديثة (المدن الكبرىٰ)، هذه القضية أثارت سؤال الهُوية من جديد؛ لأن الناس قديمًا كانوا يعيشون في القرىٰ، وكانوا يجدون إجابات واضحة للأسئلة الكبرىٰ: مَنْ أنا؟ ولماذا أعيش؟ وما دوري في الحياة؟ وما مصيري؟ هذه الأسئلة كانت واضحة، بالإضافة لانشغال الناس بأمور معايشهم وحياتهم، فكانت هذه الأسئلة غير موجودة كما هو الحال الآن في «المدينة» التي جعلت المعرفةَ نكرةً، وجعلت الإنسان يشعر بالهامشية.

قال لي أحد القضاة: (انتقلت إلىٰ الرياض عند أهلي، لكني فقدت الشيء الكثير لما تركتُ تلك القرية النائية، يقول: كنتُ لا أخلع «عباءة البشت»، وهذه العباءة هي التي كانت تذكرني دومًا بدوري، وأنني محل قدوة، وكنتُ في كل لحظة أتذكر هذا الدور، وأشعر بهويتي وبتمسكي العالي بها، وعند ذهابي إلىٰ «مدينة الرياض» ابتلعتني المدينة، وتركت كثيرًا من الأعمال التطوعية والخيرية والمجتمعية التي كنتُ أمارسها، فقد أصبحتُ موظفًا اعتياديًّا، لقد انصهرت في المدينة، وضعفت هويتي التي نشأتُ عليها).

ولذلك فالإنسان يشعر في المدن الكبيرة بالهامشية التي جعلته يبحث عن المكانة من خلال تغيير هويته؛ ليظهر بنوع من التميُّز عن الآخرين.

ما الذي تعنيه بالهوية؟

هل الهُوية من الهوىٰ وما يحبه الإنسان، أم هي مِن الـ (هو)؟

الجواب: الهُوية مأخوذة من ضمير (هُو) بالضم[1]، والهُوية لها تعريفات كثيرة، منها ما يلي:

- الإسلام وأسسه ومبادئه ومقاصده.
- المعتقدات، والأخلاق، والثقافة التي تميز الشخص عن غيره.
- الثقافة، والفكر، والمعتقد الذي يميّز حضارة عن أخرىٰ.
- مطابقتك لذاتك ومخالفتك لغيرك، كما يشير بعض علماء النفس.

من خلال هذه التعريفات يتبين أن لفظ «التميُّز» حاضر في الهُوية، فهي حدود فاصلة عن الآخر، وكثير مِن الذين يُعرِّفُون الهوية يتكلمون عنها من منظور الغير، ثم يقارن نفسَهُ بالآخرين وهذا خطأ، والصحيح أن الإنسان يبدأ بفهم نفسه، ثم ينظر ما يتميز به عن غيره، لا العكس.

مَنْ أنا؟

وفي دراسة (الشهري، ١٤٤٠هـ)[2] وُجِّهت إلىٰ مجموعة من الشباب في المجال النفسي حول اكتشاف النفس ومعرفة حقيقة الذات، وقال ٩١% من المُجيبين عن هذه الدراسة: إن السؤال عن النفس والذات يُشكِّل لهم أزمة وقلقًا! وهذا ملاحظ خلال السنوات الماضية، فهذه الأسئلة تُطرَح باستمرار: مَنْ أنا؟ وما دوري؟ وماذا أريد؟ وكيف أتميز؟ وكيف أقدِّم شيئًا للآخرين؟

---

(١) مِن الأخطاء اللغوية الشائعة قولهم: هَوية -بفتح الهاء-.

(٢) نوح الشهري، الاحتياجات ذات الأولوية للشباب في المملكة العربية السعودية.

وأنا أرىٰ أن المبالغة في طرح هذا السؤال، أو المبالغة في اكتشاف النفس والذات قد يكون مشكلة، فيُحدِث عند الشخص قلقًا وأرقًا وعدم الرضا عن الذات؛ لذلك لا ينبغي الإيغال في طرح هذه الأسئلة وتكرارها، بل الأسئلة المفيدة حقًّا والتي لا يُسمَح بالتنازل عنها هي الأسئلة التي تتعلق بالمعتقد والكون والوجود، ونظرة الإنسان لنفسه.

وفي ورقة علمية قدمها الدكتور/ خالد الشهري، تكلم عن «مظاهر الهُوية ... أسباب وعلاج» وهذا الورقة دارت حول أسئلة: مَنْ أنت؟ وما دورك؟ ومن أي شيء خُلِقْت؟ وما مصيرك؟ وغيرها من الأسئلة، وهذه الأسئلة واضحة للمسلم بحمد الله، وهي تشكل هوية الإنسان بشكل كبير.

عناصر الهُوية:

الأصل في المسلم أن الهُوية الإسلامية هي الهُوية المسيطرة علىٰ غيرها، وأن الهويات الأخرىٰ قد تدخل فيها ضمنًا، فقد يكون الإنسان موظفًا أو مسؤولًا؛ لكن ذلك لا يخالف الهُوية الإسلامية الكبرىٰ الحاكمة، فلا يصح أن تكون الهويات الصغرىٰ هي المسيطرة علىٰ الهوية الكبرىٰ، وهذا لا يعني أن ينغلق الإنسان علىٰ هويته ولا يستفيد من الهويات الأخرىٰ، بل يمكن الاستفادة من الآخرين بما لا يعارض خصوصياتنا وهويتنا.

وقد تكلم كُتَّاب كثيرون غير مسلمين عن قضية الهُوية الدينية، وأنها هي الهُوية الأقوىٰ والأكبر، ومنهم علىٰ سبيل المثال:

- الكاتب النصراني أمين معلوف يرىٰ في كتابه (الهويات القاتلة) أن الهُوية الدينية هي الهُوية الأقوىٰ.

- الكاتب الأمريكي هنتنجتون له كتاب عن هوية أمريكا، وذكر أن في الشرق الأوسط خمس هويات، وأن الهُوية الكبرىٰ هي الهُوية الإسلامية، وتزداد بشكل كبير.

مكونات الهوية:

للهوية مكونات متعددة هي: الدين أو المعتقد، واللغة، والتاريخ. ويضيف بعضهم: الحضارة أو التراث، فيجعل التاريخ والجغرافيا من مكونات الهوية، ويقصد بالتاريخ: ماضي الأمة أو الشعب، ويقصد بالجغرافيا: مكان الهوية وتوسعاتها.

ولما فتح المسلمون بلادًا جديدة لم ينقلوا تراث الأمم الأخرىٰ -فارس والروم وغيرهما-، ولا طقوسهم، ولا ملابسهم إلىٰ ثقافة المسلمين، بل ربما تثاقفوا معها، واستفادوا مما لديها، لكن المكوِّن الحقيقي الفاعل القوي في جوهر الحضارة الإسلامية هي اللغة؛ لذلك تعربت شعوب كاملة، وتكلمت باللغة العربية. وبذلك استطاعت الهُوية بمكوِّنَيْها القويين -وهما الدين واللغة- أن تغيِّر هويات ثقافات قديمة وراسخة وقوية(١).

من مجموع ما سبق يتبين أن الحديث عن التمسك بالهوية ليس رجعية، بل التمسك بالهوية هو الأصل، والخروج عنها هو الخطأ الذي ينبغي أن يُقَوَّم؛ لأن التمسك بالهوية ليس تخلفًا أو عائقًا عن النهضة والتقدم.

ويشير بعض المفكرين العرب إلىٰ أنه يجب أن نأخذ كل ما عند الغرب من خير وشر، وحلو ومر! وهذا إشكال كبير، والواقع يكذب ذلك. مثال ذلك: اليابان مثال صارخ علىٰ التقدم والرقي والنظام، ومع ذلك لم يتخلوا عن ثقافتهم، ولا عن لغتهم، ولا عن معتقداتهم، ومن يذهب إلىٰ هناك يرىٰ كل ما يتعلق بالثقافة والمجتمع بلغتهم اليابانية، لا لغة غيرهم. والصين أيضًا مثال للنهضة الصناعية الكبرىٰ، ولها ثقافتها الخاصة التي لم تتأثر بثقافة الدول الخارجية ولغاتها.

---

(١) يرىٰ بعض الباحثين أن اللغة هي الهُوية، منهم الدكتور/ مختار الغوث، الأستاذ بجامعة طيبة، وله سلسلة كتب، سمَّىٰ كتابه الأول (اللغة هوية)، ويرىٰ أن الشخص الذي يفقد لغته، أو يتحدث بلغة غير لغته، أو لا يعتز بها عنده نقص في الهوية، أو عدم اعتزاز بها.

وأذكر مثالًا للاعتزاز بالهوية: جاء طبيب استشاري ياباني معروف بزراعة الكبد إلىٰ السعودية، فكان لا يتكلم إلا باللغة اليابانية، حتىٰ في أثناء العلميات الجراحية، لقد كان معتزًّا بلغته اعتزازًا ظاهرًا، وقد طُلب منه مرة أن يتكلم في محاضرة عن تخصصه فما تكلم إلا بلغته، وأحضر مترجمًا، مع أنه يجيد الإنجليزية، لكنه لم يشأ أن يغير لغته إلىٰ لغة أخرىٰ!

فنحن المسلمين أولىٰ أن نعتزَّ بلغتنا، وهي جزء من هويتنا، وفي نفس الوقت هي لغة القرآن الكريم، وفي بلدنا توجد ممارسات كثيرة تسعىٰ لتعزيز اللغة في المجتمع، ومن ذلك: القرار الذي صدر بالتكلم باللغة العربية في المراسلات الرسمية، وغيرها من الإجراءات الإيجابية التي نراها الآن، وهذا جزء من تراثنا وثقافتنا الذي نستطيع أن نصدره للعالم.

هل الهُوية ميلاد أم اختيار؟

بعض الناس يُولد بهوية واضحة، وعلىٰ فطرة سليمة، كما ورد في الحديث: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ . . .**»(١). فالتنشئة لها دور مهم في تشكيل الهوية والاستمرار عليها، وبعض الناس يعيش في هوية مختلفة عن بلده، وعن دينه، وعن ثقافته؛ لظروف مختلفة، وهذا يحتاج أن يختار الهوية التي تناسبه.

لكن الميلاد والاختيار ليس مؤثرًا كثيرًا في الهوية، فأحيانًا الهوية التي تكون بالاختيار تكون أقوىٰ من الهوية التي تكون بالميلاد؛ لذلك نرىٰ أن الأشخاص الذين وُلِدوا بهوية إسلامية من السهل أن يتنازلوا عن هوياتهم، بعكس الناس الذين اختاروها. ومِن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «إنما تُنقَضُ عُرىٰ الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام مَن لم يعرف الجاهلية»(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٣٥٨)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٣٠١).

هل اللغة خط أحمر في الهُوية؟

يثير بعض الناس تساؤلًا: إذا كان الكلام والخطاب هجينًا من لغتين (العربية والإنجليزية مثلًا)، فهل هذا يقدح في الهُوية؟ وماذا عن شكل الملابس ونوع الأكل؟ وماذا عن الفنون والآداب؟ وماذا عن التمثُّل بشخصيات غير إسلامية وهيئاتهم، هل هذا خدش كبير في الهُوية، أم هو تلويث لها، أم أمر عادي؟

الجواب: لا بد من التفريق بين المقومات وبين المظاهر، فالمقومات هي اللغة، والدين، والتاريخ. وهذه المقومات خطوط حمراء يجب الحفاظ عليها، ولا يصح التنكر لها، أو الانصهار مع الغير فيها.

أما المظاهر فهي جزء من الهُوية، وذلك لأن التشبُّه في الظاهر يقود إلىٰ التشبُّه بالباطن[1]، والضعيف دائمًا مهووس بمحاكاة القوي وتقليده؛ وبذلك فالتشبه بالآخرين في الشكل، والهيئة، والمظهر، واللبس، والمطعم وغير ذلك يخدش الهُوية، وهذا يعبِّر عن ضعف الانتماء للهوية الأساسية -وهي الدين-، وهذا مؤشر خطير قد يقود الشاب في يوم من الأيام إلىٰ التخلي عن كل مظاهر الهوية.

مثال ذلك: ما يحدث في وسائل التواصل الاجتماعي -مثل: تيك توك، أو سناب شات-، حيث نرىٰ كل شيء مختلفًا عن هويتنا وثقافتنا في الملبس والهيئة والمحتوىٰ وغير ذلك، حتىٰ تشك أن الشاب مقدم هذا المحتوىٰ في هذه المواقع ينتمي إلىٰ الثقافة العربية والإسلامية.

ومن المعلوم أن الأصل في الألبسة والأطعمة الإباحة، لكن هناك أشياء تميز ثقافةً عن ثقافة، ودينًا عن دين، وهويةً عن هوية، فهناك أشياء -بسبب انتشارها داخل مجتمعاتنا وأنها أصبحت جزءًا من ثقافتنا- تغير حكمها

---

(١) أمين الشقاوي، الدرر المنتقاة من الكلمات الملقاة، ٩/ ٣٦٥.

بسبب هذا التغيُّر؛ لأن الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا، لكن هذا لا يعني أن الإنسان يتشبه بغيره في كل شيء، فهناك بعض الألبسة التي تصف العورة، أو أنها لباس شُهرَة، أو الملابس الممزقة التي يرتديها بعض الشباب أو غير ذلك، فلو انتشر هذا النوع من الملابس في مجتمعنا فهو غير مقبول أيضًا، وإن انتشر بين كل الناس.

والأهم من ذلك أن بعض الأشياء التي كانت من مقتضيات الهُوية الإسلامية ويطالب به الشرع الإسلامي، كان بعض الشباب يتهربون منها، ولا يلتزمون بفعلها، فلما رأىٰ الشباب هذه الأشياء تأتي من عند الغرب فعلوها وقلدوها تحت اسم «الموضة» التي تبعها كثير من الشباب والفتيات!

إذن الهُوية الإسلامية تُلزِم المسلم بمكوناتها (الدين واللغة والتاريخ)، وتضبط له مظاهر الهويات الأخرىٰ؛ فالحلال والحرام ضابط للملابس، والمأكل، والمشرب، والمنطق، وكل ما يفعله الشخص، ولكن ليس بالضرورة أن تكون صبغة واحدة، فيجوز فيها اختلاف الأذواق، فيأخذ كل شخص ما يناسب حاجته ورغبته.

حتىٰ تقترب صورة الهوية في ذهن القارئ الكريم، أشبِّهُ الهويةَ بالسفينة التي تتكون من ١٠٠٠ قطعة، فلو بدَّلْنَا كلَّ يوم قطعة واحدة من السفينة -وهذا الجزء يسير منها-، سنكون قد غيَّرْنا السفينة كلها بعد ألف يوم، لكن سيظل اسمها «سفينة». فهذا مثال الهوية، لو بَدَّلَ الإنسان كل يوم شيئًا يسيرًا من هويته -كقَصَّةِ الشعر، أو نوع الملابس، أو طريقة الطعام والشراب، أو الكتب التي يستقي منها ثقافته-، فلن يشعر بالفرق، لكن مع مرور الزمن سيجد أنه قد ترك هويته الإسلامية والعربية كليةً، وانسلخ منها، وفي النهاية سيكون عنده «هوية»، لكنها هوية أخرىٰ جديدة غير التي نشأ عليها.

إن الشاب إذا فرط في الدين -الذي هو أحد مقومات الهوية الثلاثة- فإن نظرته للكون وللإنسان وللوجود ستتغير، وبذلك يكون قد فرط في هويته، لكن

بعض المظاهر يُقبَل فيها التسامح، نعم هي تقدح في أصل الهُوية، لكنها لا تزيلها. لكن يُخشَىٰ من كثرة هذه المظاهر أن تصل إلىٰ المحبة القلبية، أو الإعجاب القلبي، فهذا إشكال آخر، وهو محبة الهُوية الأخرىٰ، والمدافعة عنها، وتبني أفكار رموزها، فما دام الإنسان ينتمي للإسلام قولًا وفعلًا، وينتمي لرموزه، ويدافع عن قضاياه، فهذا لديه تمسُّك بالهوية.

كيفية تعزيز الهوية:

إذا قلنا: إن عدم وجود المظاهر لا يدل علىٰ انتفاء الهُوية، ووجود المظاهر يساعد علىٰ تعزيز الهُوية عند الإنسان، فالسؤال هو: كيف نعزز هذه الهُوية؟

من القضايا الكبرىٰ التي نحتاج أن نطرحها بشكل مستمر ونناقشها هي قضية وضوح الهُوية ومعناها، وأركانها، ومقاماتها، ومقوماتها، ومظاهرها.

لكي يتضح ذلك نسوق قصة ربعي بن عامر مع رستم قائد الفرس، وفيها: (ثم بعث سعد رسولًا آخر وهو ربعي بن عامر إلىٰ رستم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس علىٰ سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتىٰ داس بها علىٰ طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته علىٰ رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ علىٰ رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة

الله، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبىٰ قاتلناه أبدا حتىٰ نفضي إلىٰ موعود الله)[1].

ويستفاد من هذه القصة وضوح الهُوية في ذهن ربعي بن عامر ﵁، وهذه مهمة الآباء والأمهات، ومهمة المربين والعاملين مع الشباب والفتيات، ولا بد أن نكرر قضية الهُوية ونوضحها للشباب والفتيات، وكما يقال: ما تكرر تقرر. فقد كان ربعي بن عامر مثالًا واضحًا لوضوح الهُوية؛ بسبب ما تلقاه من تربية صحيحة سليمة علىٰ يدَيِ النبي ﷺ.

وبذلك لا بد أن تتشكل ملامح التربية في أذهان الوالدين؛ إذ لا بد من بيان حقائق الإسلام الكبرىٰ للشباب والفتيات، وكذلك بيان محاسن هذا الدين، وقضاياه الكبرىٰ، وأثره في البشرية، وماذا فقد العالم بترك الهُوية الإسلامية، وماذا حصل للعالم لما تصدر المسلمون قيادة العالم؟ كل ذلك لا بد من التركيز عليه أثناء التربية، حتىٰ يكون واضحًا جليًّا في الأذهان.

إن كثيرًا من شبابنا وفتياتنا اليوم منفصلون عن تاريخهم ولغتهم، فتجد بعض العرب لا يتحدث العربية بل يتحدث بلغات أخرىٰ! وكذلك لا بد للمسلمين من الاعتزاز بقدواتهم الإسلامية من الأنبياء ﵈ والصحابة ﵃، وتاريخهم العلمي والدعوي والإنساني، فهذا كله يُعزِّز التمسُّك بالهوية عند الإنسان.

إن حدود الهوية من أكبر الإشكالات التي تواجه الشاب والفتاة، فهو لا يعرف: عن ماذا يدافع؟ وماذا يفعل؟ ومن أين يستفيد؟ وماذا يترك؟ إن تمييع حدود الهوية هو الذي يسبب إشكالًا للشباب، فتجد كثيرًا منهم لا يعرفون قيمهم ولا مبادئهم.

---

(١) البداية والنهاية (٧/٤٦-٤٧).

ومن الوسائل والأدوات المهمة التي تعزز الهُوية:

- **الانفتاح علىٰ الثقافات الأخرىٰ**، من القضايا المهمة في تعزيز الهُوية بعد التأسيس الجيد للهوية أن يستفيد الإنسان من ثقافة الآخرين، ويتعلم لغتهم، و«**مَنْ تَعَلَّمَ لَغَةَ قَوْمٍ أَمِنَ مَكْرَهُم**»(١). **فمعرفة ثقافة الآخرين -بعد أن يفهم الإنسان ثقافته- يعطي الإنسان نقاط قوة، لكن الاتجاه إلىٰ ثقافة الآخرين ولغتهم وأدواتهم وتطورهم دون فهم الإنسان نفسه وهويته يسبب إشكاليات الثقافة والفكر والهوية. إن توسيع الأفق والانفتاح علىٰ الثقافات -بعد أن يفهم الإنسان نفسه بشكل جيد- يعزز الهُوية، وهذه مهمة المُربين والعاملين في حقل التربية.**

- **إطلاق مبادرات للحفاظ علىٰ الهُوية**، وهذه الآلية مهمة جدًّا، فلا بد من وجود مبادرات في اللغة، ومبادرات في التاريخ، ومبادرات في التراث، ومبادرات في الإسلام وعقيدته وشريعته، فهذا مما ينمي الهوية لدىٰ الشباب والفتيات. وهذه مسؤولية المؤسسات والجهات المعنية بهذا الأمر.

- **وجود القدوات التي تتمثل هذه القضايا**؛ إن كثيرًا من القدوات -سواءً كانوا آباء وأمهات، أو عاملين مع الشباب، أو مفكرين، أو مسؤولين- يقللون أهمية التعامل مع الهُوية، فينتشر هذا بين الناس، فالتأكيد علىٰ قضية الهوية ومكوناتها سيُعزِّز الهُوية بشكل كبير في حياة الشباب والفتيات.

إن الثقافة جزء من مكونات هوية أية حضارة، والآن نرىٰ أن الثقافة الأمريكية هي الغالبة، وهي في كنهها وجوهرها أضعف من الحضارة الإسلامية بكثير في قيمها وأهدافها ومفاهيمها، لكن قوتها ليست في جوهرها، ولا منظوماتها بقدر ما هي في وسائلها، فأصبحت الغلبة هنا ليست للأقوىٰ والأصلب، وليست للأنقىٰ، وإنما للأكثر جاذبية؛ لذلك علينا أن نستخدم أدوات

---

(١) هذا ليس بحديث كما يظن كثير من الناس، إذ ليس له أصل في كتب السنة المشهورة، وإن كان معناه صحيحًا.

ووسائل جاذبة لتعريف الناس بهويتهم الإسلامية، وتحبيب الناس في تراثهم ودينهم ولغتهم، بطريقة تتناسب مع العصر الذي نعيشه.

مظاهر الاعتزاز بالهوية:

تكلم الكاتب أمين معلوف في كتابه (الهويات القاتلة) عن مظاهر الاعتزاز بالهوية بشكل مختلف؛ فدعا إلىٰ أن نمتحن هوياتنا، وإن كان هو يطرح موضوع الهوية بمنظور مختلف، فهو يحسب نفسه أنه متنوع الهويات -أو ما يسميه البعض: تزاحم الهويات-.

ويمكن تلخيص مظاهر هذا الاعتزاز فيما يلي:

- مستوىٰ فهم الدين، والاعتزاز به، والتشبُّع من مفاهيمه وروحانياته.
- مستوىٰ فهم لغة القرآن، والاعتزاز بها، والتحدُّث بها.
- مستوىٰ معرفة التاريخ الإسلامي، والاعتزاز بالقدوات الإسلامية، ومقدار محبتهم واحترامهم.

فلا بد من مقارنة هذه المقومات الأساسية بالهويات الأخرىٰ التي تنتشر بين الناس، هل كثير من الناس اليوم يُفضلون رموزًا معاصرين علىٰ رموزهم الذين ينتمون إليهم؟ وهل يُفضِّلون لغات أخرىٰ علىٰ لغتهم؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تقيس مستوىٰ اعتزاز الإنسان بهويته.

يقول الشيخ محمود شاكر: (إني لأذكر في معرض حديثي بعض أسماء أهل الباطل لأناس يخرون لهم سجدًا). يعني: أضطر أن أذكر هذه الأسماء؛ لأنها مؤثرة في هؤلاء، وليس اعتزازًا بهم.

إن بعض الناس عندما يسمعون نصوصًا من الكتاب والسُّنة تشمئز قلوبهم، وتضيق صدورهم، وعندما يُذكَر له اسم مفكر غربي، فإنه يُعجَب وينبهر، ويسمع بكل أذنه إلىٰ ما يُقَال! وهذا بسبب ضعف الهوية، والانهزامية التي يعيشها كثير من الشباب؛ لذلك نحتاج بعث الهُوية مرة أخرىٰ في نفوس الشباب والفتيات،

واعتزازهم بهذا الدين الذي يلبي حاجات روح الإنسان وعقله وجسده، وهذا ما لم تُلَبِّهِ الهويات الأخرىٰ؛ فبعض الهويات تهتم بالجسد وتترك الروح، وبعضها يهتم بالروح ويهمل الجسد والعقل . . . وهكذا، فكل معتقد بشري فيه خلل، بعكس الهُوية الإسلامية التي جاءت لتلبية هذه الاحتياجات كلها، وجاءت بما يصلح للإنسان في الدنيا والآخرة.

خصائص الهوية الإسلامية:

من خصائص الهوية الإسلامية أنها ربانية متوازنة شاملة واقعية، وتوضيح هذه الخصائص فيما يلي:

- **ربانية**، أي مصدرها من الله ﷻ، من خلال ما أُوحِي إلىٰ النبي ﷺ في القرآن الكريم والسُّنة النبوية.

- **متوازنة** متناسبة مع الفطرة، وليست منفصلة عنها.

- **شاملة** لكل نواحي النفس البشرية، وعلاقة الإنسان بربه والكون والناس من حوله.

- **واقعية** فهي لصيقة بالواقع وليست منفصلة عنه، بل تواجه مشكلاته، وتبين حلول تلك المشكلات بنور الوحي.

- **أنها صالحة لكل زمان ومكان.**

ورغم كل هذه الخصائص يترك بعض الشباب والفتيات هذه الهوية، ويتجهون إلىٰ هوية أخرىٰ في الشرق أو الغرب، والمفارقة أن أصحاب الهوية الغربية أنفسهم يتجهون إلىٰ معتقدات باطلة، وطرق خاطئة لتلبية هذا الاحتياج الفطري الروحي الذي لم تراعِه الهويات الأخرىٰ.

إن الهُوية الإسلامية هوية متكاملة، تستحق أن يفتخر بها أصحابها، ويمكن من خلالها أن يتصدروا العالم ويقودوا أهل الأرض، وذلك أيضًا بالاستفادة من الهويات والثقافات الأخرىٰ، لكن بشرط أن يكونوا في التعاون مع الهويات

الأخرىٰ كالذي ينظر من خلف الزجاج، ينظر إلىٰ كل شيء، ولا يتأثر، ولا يكونوا كالإسفنجة التي تمتص كل سائل يُوضَع عليها.

الدعوة إلىٰ الهوية الإسلامية:

يتساءل بعض المسلمين عن كيفية اكتساب شرائح أكثر من أصحاب الهويات الأخرىٰ، مع ثبات المسلم علىٰ هويته، ودون التنازل عن هويته الإسلامية أو التغيير فيها. وهذه القضية من القضايا الشائكة، ويشير البعض إلىٰ أن انغلاق بعض المسلمين علىٰ هوية واحدة هو الذي سبب خسارة أصحاب الهوية الإسلامية أنفسهم، وتحولهم إلىٰ هوية أخرىٰ، وكثير من الناس يردد هذا الكلام بلا تمحيص، أو وعي جيد بالواقع؛ فكيف إذن يمكن أن يكسب المسلمون شرائح مختلفة، مع الاعتزاز بهويتهم في الوقت نفسه؟

من القضايا الشكلية المتعلقة بالهوية: الإبداع في أدوات عرض الهوية، أو في أسلوب الخطاب، أو الإبهار في الإنتاج الفكري والمعرفي، والإبهار في بعض الأساليب المعاصرة، ويمكن الاستفادة من الغير في كل هذه الوسائل.

ومن القضايا الجوهرية المتعلقة بالهوية: المسائل والقضايا التي تمس أصل المعتقد، سواء أكانت المقومات أو بعض المظاهر -كما سبق بيانه-، والتنازل عن هذه المسائل لا يجلب لأصحاب الهوية شرائح أخرىٰ. فالآخر يريد من الهوية الأخرىٰ التي تخالف هويته ما ينقصه ويفتقده.

ثم علىٰ المسلمين أن يعرفوا: ما حدودهم؟ وما تأثيرهم؟ وما فئتهم المستهدفة؟ ومقدار قدرتهم علىٰ التأثير؟

التوسع في الهوية:

من المسائل التي يتم تناقلها بين بعض الفئات الآن: وجوب الحفاظ علىٰ الهوية، مع التغيير في بعض مظاهرها لتوسيع شريحة المتأثرين بها، ولكن ينبغي التنبيه علىٰ أن تغيير الهُوية يكون لأسباب مختلفة اقتصادية، وسياسية،

واجتماعية . . . وغيرها. هذه الأسباب تضغط علىٰ الإنسان فيشعر بنقص في جوانب من هويته، ويحاول أن يعوضها بطرق غير صحيحة أو مدروسة، والمسلم قد يتنازل عن شيء من هويته فيخسر شريحة قديمة، ويخسر شريحة جديدة، فالشريحة الجديدة لن ترضىٰ عنك، حتىٰ توافقهم علىٰ باطلهم.

وأحيانًا يُحمِّل الإنسانُ نفسَهُ مسؤولية ليس مسؤولًا عنها؛ فالله ﷻ سيسأل الإنسان أول شيء عن إيمانه وعمله، وليس عن أعمال الآخرين، وبالتالي فتضييع الإنسان هويته قربانًا لأجل أن يؤثر علىٰ الآخرين غير صحيح، ولا يؤتي أكله.

إن كثيرًا من غير المسلمين يبحثون عن القيم والمبادئ التي لدىٰ المسلمين، وحتىٰ مَنْ كان علىٰ باطل، أو تنازل عن هويته فإنه يحترم الشخص الثابت علىٰ مبدئه دائمًا؛ وهذا لا يعني الانغلاق علىٰ هوية محددة، أو فئة محددة من الناس، فالهوية الإسلامية هوية عالمية، لكن نقل الهوية إلىٰ شرائح جديدة يحتاج إلىٰ إجابة علىٰ بعض الأسئلة قبل أن يبدأ العمل، ومن ذلك أن الداعية يسأل نفسه: ما حجم تأثيري؟ ومَنْ هم جمهوري؟ وما التوسُّع المطلوب؟ وما سمات شريحتي السابقة؟ وما سمات شريحتي المستهدفة؟ ما نوع التقدم الذي أريد أن أحدثه؟ ما الأشياء التي يمكن أن أتنازل عنها؟ وهل هي قضايا جوهرية أم قضايا شكلية؟ وهل هي قضايا من صميم هويتي أم قضايا متغيرة بتغيُّر الزمان والظروف والأحكام؟

بعض القضايا قد تكون شكلية، مثل: الوسائل، والأدوات، والتطبيقات، وغيرها، وهٰذه تتغير بلا إشكال، لكن التنازلات التي تحصل في جوهر الهُوية لا أظنها تحقق هذا الهدف الذي يريده الداعية، وقد يتنازل بعض الشباب والفتيات عن هوياتهم بدوافع أخرىٰ، كالهوىٰ، كحب الشهرة والظهور وغير ذلك.

والأسئلة السابقة لو طُرِحت بشكل جيد ونُوقِشت، وأخذت حقها من الحوار والنقاش، فسنصل إلىٰ إجابة جيدة، مع عدم نسيان أن المطلوب هو نجاتك،

وليس أثرك في الناس، فالمطلوب أن يقدِّم المسلم الرسالة الصحيحة، وليس المطلوب تكثير الأعداد والجماهير، وفي الحديث: «... **عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطَ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَ، وَالرَّجُلَيْنِ وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ...**»[1].

إن الانحراف الكبير يبدأ بشكل يسير ثم يتسع، والانحراف الذي يكون في القدوات شبرًا يكون في الأتباع باعًا، وهذا يحدث مع القدوات المشهورين الذين لهم أتباع وجمهور. وقد قيل: إن الممتلئ لا يمكن رجُّه، ولا يمكن خلطه، والإنسان المعتزُّ بهويته مختلف عن الشاك المتردد المتذبذب في فكره وعقيدته. بل المسلم يعتز بهويته، فالفتاة قد تخجل من حجابها، والشاب قد يخجل من لحيته، أو من لغته، أو من هويته، وكل ذلك مرفوض، فإن الله تعالىٰ ذكر عددًا من الأنبياء، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وكأن الله ﷻ يقول: أيها المسلم أنت لست بوليد حضارة حديثة، بل هذه أمتك، وهذا امتدادك، وهذا دينك، فاعتز به وافتخر ولا تتنازل عن شيء منه.

دور الأسرة في تعزيز الهُوية:

الأسرة هي المُكوِّن الأول للمجتمع، وهي التي ينبغي العودة إليها بشكل كبير، وزمن الأب المشغول والأم المشغولة ينبغي أن ينتهي بلا عودة من المجتمع، وإذا استوعبنا المتغيرات التي تحدث من حولنا استطعنا أن نحافظ علىٰ هويتنا، ومن الأخطاء أيضًا ترك الابن علىٰ هواه وحريته، فالانغلاق والمنع يُسبِّب إشكالات، وعدم الترشيد وترك الحبل علىٰ الغارب يُسبِّب إشكالات أخرىٰ، بل المجتمع بحاجة إلىٰ التوازن، ففي هذا العالم المفتوح يستطيع المسلم أن يصنع جزيرة صغيرة أمام هذا السيل المندفع، وفي هذه الجزيرة يستطيع المسلم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم (٢٤٤٨).

أن يحمي نفسه وأبناءه والمحيطين به، لكن هذه الجزيرة لها قواعد، منها أنها يجب أن تكون أرضًا صلبة وبناء محكمًا، والأرض الصلبة تكون بتجسيد الآباء قدوات أمام أبنائهم، وأن يقوم المربون بدورهم الحقيقي، فكثير من الآباء والأمهات تخلوا عن دورهم؛ لأن التربية فيها مشقة، وتحتاج جهدًا من الوالدين.

وهناك عدة خطوات يمكن أن نذكرها؛ للنجاة من هذا السيل من الفتن والمشكلات التي نمرُّ بها:

- أن يكون هناك مائدة قرآنية للأسرة يتغذون منها بشكل مستمر، والعيش مع القرآن الكريم ليس المطلوب منه أجر التلاوة فقط -وإن كان هذا عظيمًا-، لكن المطلوب بناء المفاهيم، وبيان قواعد وأسس الأسرة التي يعيشون بها، وكيف يواجهون مشكلاتهم، ففي الحديث: «... **وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ** ...»[1].

- وجود مجال للحوار والنقاش مع الأبناء؛ لسماع همومهم، والإجابة عن أسئلتهم، والقرب منهم؛ لبناء العلاقة الصحيحة.

- تمليك الأبناء المهارات اللازمة والمطلوبة التي تساعدهم علىٰ أن يقولوا «لا» للباطل، وما يخالف هويتهم، وأن يقولوا «نعم» لما يُعزِّز هويتهم.

- تمليك الأبناء المهارات التي تعينهم في بناء شخصياتهم بشكل متكامل، فلا نركز علىٰ الجانب الديني فقط، ونهمل الجوانب النفسية والاجتماعية وغيرها من الجوانب الذي ينبغي تنميتها في نفوس الأبناء.

- الخبرة الحياتية، فالشاب في بداية حياته ليس لديه خبرة بالحياة، بينما يمتلك الوالدان هذه الخبرات، ويمكن نقل هذه الخبرات إلىٰ الأبناء من خلال

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٩٩).

المجالس المفتوحة، فالأب يصطحب ابنه إلىٰ السوق، والمجالس العامة وغير ذلك؛ حتىٰ يتلقىٰ الخبرة والمعرفة من الناس.

- تعليم الأبناء اللغة العربية والأدب والشعر، ومن خلال معرفتهم هذه اللغة واعتزازهم بها تنمو الهوية لديهم، ومِن أبرز القضايا التي كان السلف يربون بها أبناءهم في صغرهم تعليمهم اللغة، وهذا يفيدهم كثيرًا في الحفاظ علىٰ هويتهم، كما أن حفظ الأشعار ودراسة الأدب فيه فوائد كثيرة؛ حيث إنه يعلم المروءة والأخلاق، ويهذب النفوس، وهذه من الوسائل المهمة للحفاظ علىٰ الهُوية.

- قراءة السير والتاريخ، فإن مطالعة الشاب وقراءته تربط الأبناء بالرموز والقدوات، وكذلك معرفة بعض قصص المصلحين؛ فإن هذا مما يعزز قيمة الهوية في نفوس الشباب والفتيات.

- الدعاء، فمهما فعل الأبوان من أسباب مادية، تبقىٰ الأسباب المعنوية ذات تأثير كبير، فالمسلم يدعو الله تعالىٰ بصلاح أبنائه وأبناء المسلمين، وكما قيل:

إذا لَمْ يكُنْ عَونٌ من اللهِ للفَتىٰ فأوَّلُ ما يَجني عليه اجْتِهادُهُ

بهذه الوسائل والآليات والأدوات يمكن للآباء والأمهات والمجتمع والأمة الحفاظ علىٰ الهوية الإسلامية، والاعتزاز بها، ونشرها بين الناس؛ ليسعدوا بها في الدنيا والآخرة.

مراجع للاستزادة:

- سلسلة الحرب الباردة علىٰ الكينونة، مختار الغوث.
- الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، خليل العاني.
- الهويات القاتلة، أمين معلوف.

- الهوية والوجود، داريوش شايغان.
- مَن نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، صموئيل هنتنجتون.
- مظاهر الهوية أسباب وعلاج، مقالة علمية، خالد الشهري.

الفصل الثالث
سؤال التدين

في هذا المبحث سنتطرق إلىٰ «سؤال التدين»، فما المقصود بالتديُّن؟ وما الفرق بين الدين والتدين؟

إن الدين هو: ما يعتقده الإنسان أو يتمثله من مبادئ وقيم وأخلاق، وقيل: إن الدين هو ملة الإسلام، وعقيدة التوحيد من النبي آدم عليه السلام إلىٰ النبي محمد ﷺ، ولذلك فجميع الأنبياء يتفقون في الدين، ويختلفون في الشرائع، فلذلك نقول: إن الدين هو المعتقدات والشرائع.

أما التديُّن فهو: سلوك الإنسان، ودرجة التزامه وتمسكه بهذا الدين الذي هو ملة الإسلام، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. وشريعة الإسلام ناسخة للشرائع السابقة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويمكن القول: الدين هو المنهج، والتديُّن هو التطبيق العملي لهذا المنهج.

والتدين ليس مرحلة عمرية معينة، ولا نتيجة لموقف أو حدث مر بك، ولا ردة فعل لماضي سيء، ولا استجابة لموسم من مواسم العبادات، قد يكون ما سبق بداية تدين، لكن التدين الحقيقي هو أمر رباني لعباده بالسير علىٰ الصراط المستقيم، وقرار من الفرد له تبعات وتكاليف، يحتاج معه إلىٰ مجاهدة مستمرة.

هل سؤال التديُّن مُقلِق؟

هناك إشكالات كثيرة دخلت في مفهوم التديُّن أربكت هذا المفهوم، فالمفهوم الأصلي للتدين هو: الاستقامة علىٰ دين الله تعالىٰ، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ففي الحديث عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»(١).

فالإيمان بالله يعني تحقيق الإيمان والإسلام والانقياد في القلب، والاستقامة علىٰ المبادئ، وعلىٰ التعاملات، وعلىٰ العبادات وغيرها. ففي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ. قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»(٢). إن سورة هود كانت سببًا في مشيب النبي ﷺ؛ لأن الله تعالىٰ يقول فيها: ﴿**فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هُود: ١١٢]. فالآية التي فيها الأمر بالاستقامة -وهو التديُّن- هي التي شيَّبت النبي ﷺ!

والفجوة بين الاستقامة والمنهج هي التي أربكت هذا المفهوم، وقد يكون قد تمثَّل هذا المفهومَ أناسٌ شوهوه، أو قد يكون هذا المفهوم قد شُوِّهَ عن قصدٍ وعمدٍ، وهذا مما أثر سلبًا علىٰ مفهوم التدين والاستقامة.

وكما لا يخفىٰ عليك أيها القارئ الكريم أن وضوح المفاهيم يعين علىٰ تصور حقيقي للمعنىٰ، أما إذا لحق به غموض أو تحريف أو تغيير أو تشويه، فإنه قد يشكل عليه فهم المراد من هذه الكلمة التي سمعها، سواء علىٰ مستوىٰ الفرد أو المجتمع.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤١٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٢٩٧)، وقال: حديث حسن غريب.

هل التديُّن علىٰ درجة واحدة؟

توجد قضايا في التديُّن تختلف من شخص إلىٰ آخر بحسب فهمه، لكن هناك أصول وكليات وثوابت مُتفَق علىٰ فهمها؛ لأنها واضحة في الكتاب العزيز، وجاء النبيُّ ﷺ تطبيقًا لها في سنته؛ لذلك أُمرنا باتباع النبي ﷺ واقتفاء أثره، وهذا الاقتفاء هو نوع من التمسُّك الذي يشرح مفهوم التديُّن.

وبدأ الإشكال حول التدين عندما بدأ الناس يُشكِّكون فيه، ويأتون بصور مشوَّهة للمتدينين، سواء كان في الإعلام أو غيره، فحصل الإشكال، وأصبح مفهوم التدين غير واضح عند كثير من الشباب والفتيات.

وتوجد عدة ألفاظ تؤدي المعنىٰ ذاته، منها (متدين - مستقيم - ملتزم - محافظ)، فهذه الألفاظ مترادفة، وإن كان البعض يقول: لا تقل «ملتزم»، ولكن قل: «مستقيم»، بناءً علىٰ الألفاظ الشرعية الواردة في الكتاب والسُّنة، ولكن أحيانًا يستخدم اللفظ للدلالة علىٰ معنىٰ معين عند الناس ولا ينكرونه ويستقر في أذهانهم؛ لذلك لا إشكال في استخدام اللفظ بالمعنىٰ الجديد.

حقيقة التديُّن:

المعنىٰ الحقيقي للتديُّن ورد في الحديث الشريف: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[1]. فالتدين هو: مقدار استقامتك علىٰ الطريق الصحيح؛ لذلك لما سُئل عمر رضي الله عنه عن الاستقامة، قال: «أن تستقيم علىٰ الأمر والنهي، ولا تروغ كما يروغ الثعلب».

فالاستقامة علىٰ الدين، والتمسك بأوامر الله تعالىٰ، والانتهاء عن المحرمات من التديُّن، وينبغي أن يكون منهج الإنسان وشعاره: «فاستقم كما أُمِرتَ، لا كما رغبتَ»، وهذه أحد أكبر الإشكالات التي نمرُّ بها اليوم؛ حيث إن

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤١٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

كثيرًا من الناس يريد أن يكون متدينًا، لكنه لا يريد أن يخالف رغباته وهواه، ولا يريد أن يُلزِم نفسه بشيء، يريد تديّنًا جديدًا يناسب معايير السوق، ليس فيه شوكة أو مخالفة لأحد، يريد تديُّنًا يحقق فيه كل شهواته ويفعل ما يحلو له باسم التدين، لذلك كتب بعضهم عن ما يُسمىٰ بإسلام السوق[1]، أو المتدينون الجدد «**المودرن**»، وذلك أن بعض الناس يرغب في التدين بطريقته وبأسلوبه، ولا يريد أن يخرج داعي هواه من نفسه، والتكاليف التي يشعر فيها بمشقة لا يريد أن ينفذها، والمشقة علىٰ نوعين:

* مشقة مقدور عليها.

* مشقة غير مقدور عليها.

والشرع لا يأتي بالمشقة غير المقدور عليها، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولم يأمر اللهُ تعالىٰ عباده بأمر إلا وقد أودع فيهم القدرة علىٰ أدائه، مثال ذلك: قيام الإنسان لصلاة الفجر فيه نوع من المشقة، لكن هذه المشقة مقدور عليها، فبعض الناس لا يريد مثل هذه المشقة اليسيرة، ويريد بعد ذلك أن يُحسب علىٰ أنه متديِّن؛ فكلما جاهد الإنسان نفسه وهواه، وخالف رغباته حقق مراد الله -جل وعلا- في الاستقامة علىٰ هذا الدِّين.

هل الناس مفطورون علىٰ التدين؟

ثبت في نصوص الكتاب والسُّنة أن الناس فُطروا علىٰ الدين، وعلىٰ الإقرار بالتوحيد، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. هذه الآيات تدل علىٰ أن النَّاس مفطورون علىٰ دين الإسلام والتوحيد.

---

(١) إسلام السوق، باتريك هانيي.

وقد ورد في الصحيحين من حديث أنس أن اللهَ جل وعلا أخذ من صلب آدم ذريته وأشهدهم علىٰ التوحيد فشهدوا، في الحديث عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**»[١]. فهذا يدل علىٰ أن الناس في الأصل مفطورون علىٰ التوحيد وعلىٰ الدين.

وفي الحديث أيضًا: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[٢]، وهذا يدل أيضًا علىٰ أن الإنسان مفطور علىٰ الدين.

وقد اختُلِفَ في الفطرة، هل هي استعدادات عند الإنسان أم أنها مكتسبة؟ وهل الإنسان مفطور علىٰ الخير أم علىٰ الشر؟

الأصل أن الإنسان عنده استعداد فطري للخير، قال الله جل وعلا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البَلَد: ١٠]. وفي كتاب (فطرية الإيمان)، لجستون باريت -وهو متخصص في علم الإدراك الديني-، جمع المؤلف الأبحاث التجريبية التي أُجريت لمدة عشرين سنة علىٰ الأطفال من سن تسعة أشهر إلىٰ تسع سنوات، وقد وجد أن هؤلاء الأطفال يُولدون مؤمنين، ووجد أن السبب في هذا أن أدمغتهم مُصمَّمة ومهيأة للإيمان بالله تعالىٰ، وبَيَّنَ أن هؤلاء لو تُركوا في جُزُر معزولة لبقوا علىٰ الإيمان.

وقد أثبت الدكتور/ عمرو الشريف في كتاباته حاجة الإنسان إلىٰ الشعور بوجود إلهٍ، منها قوله: «ليس الإنسان في حاجة إلىٰ دين لإدراك وجود الله؛ فالوعي بوجود الله شعور فطري، ركبه الله في الجانب العاطفي عند الإنسان»[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٣٣٣٤)، ومسلم رقم (٢٨٠٥).

(٢) رواه البخاري رقم (١٣٥٨).

(٣) عمرو شريف، ثم صار المخ عقلًا، ص٢٣٧.

فالعقل والفطرة يدلان الإنسان علىٰ البحث عن الإله، والأنبياء يدلُّونه علىٰ هذا الإله وصفاته، وكيفية عبادته، فيكتمل عند الإنسان فطرته وتوحيده لله تعالىٰ.

هل يمكن أن يكون غير المسلم متدينًا؟

الغرب عندهم بواعث للتديُّن، فقد ذكر دوركايم وماكس فولر وغيرهما أن التديُّن له بواعث مختلفة، فبعضهم يقول: إن التديُّن باعثه العقل، وأن العقل يدل الإنسان علىٰ الدين والتدين، وبعضهم ذكر أن الحاجة الاجتماعية هي التي تجعل الإنسان يتدين؛ لأنه بحاجة إلىٰ التديُّن(١).

وهناك مَنْ رأىٰ أن التديُّن يكون نتيجة الخوف من الظواهر الطبيعية -كالبراكين والانفجارات والبرق والرعد وغيرها-، ولديهم دوافع مختلفة في قضية التديُّن، وأثبتت دراسات أخرىٰ أن المراهق خاصة يكون لديه حاجة عالية إلىٰ التديُّن.

وذكر (ماسلو) أنه لا أتخيّل أن الإنسان الذي يعيش في القرن الواحد والعشرين يمكن أن يعيش بلا دين، ويرىٰ أن طوق النجاة هو التديُّن، ولكن السؤال: هل هو التديُّن علىٰ الإسلام أم التديُّن علىٰ عقيدة ما؟

قال: الإنسان بحاجة إلىٰ التدين، ولكن علىٰ غير دين الكنيسة، بسبب تعارض الكنيسة مع العلم، وتنحية الدين عن كل مجالات الحياة، فأصبح الناس يعيشون بلا دين، هذا أيضًا سبَّب إشكالًا للبشرية بشكل عام، حيث يرون أن التديُّن لا يتدخل في الحياة بعمومها.

أما في شريعتنا الإسلامية فالدين منهج حياة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالدين منهج حياة، ولا يتعلق بالشعائر التعبدية فقط، بل القول بذلك من الانحرافات التي دخلت علىٰ المسلمين؛ لذلك قصر بعض المسلمين الدين علىٰ الشعائر التعبدية؛ كالصلاة، والصيام، والحج وغير ذلك، وهذا مفهوم خاطئ للتديُّن.

---

(١) يُدرس التديُّن في علم الاجتماع كظاهرة اجتماعية، وكيف يؤثر الدين في المجتمع ويتأثر به.

إذن التديُّن لا يُحصَر في مواضيع معينة، ولا في أزمنة معينة، ولا في أماكن معينة، بل الدين شامل لكل مجالات الحياة، كما هو منهج النبي ﷺ؛ فالله تعالىٰ نظَّم جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والأسرية وغيرها، ويشمل كذلك طريقة الأكل والشرب وقضاء الحاجة والعلاقة بين الرجل وزوجته، فالإسلام يعطيك منهجية للتعامل مع كل شيء، فعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء، حتىٰ الخراءة . . .[1]. أي: قضاء الحاجة. فالإسلام لم يغفل شيئًا من أمور حياتنا إلا وعلمنا إياه.

من الأشياء التي أركز عليها في التديُّن أن التديُّن هو منظومة كاملة من تصورات، ومعتقدات وقناعات داخلية؛ لذلك فالتديُّن ليس هو بعض السلوكيات التي نراها نحن اليوم، بل التديُّن منظومة متكاملة.

تصنيف الناس إلىٰ متدين وغير متدين:

لو تأملنا ما ورد في القرآن الكريم، نجد أن الناس أصناف، فمنهم الفاسد والصالح، ومنهم المؤمن والكافر، والله تعالىٰ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. فهذا تقسيم للناس علىٰ ثلاث درجات، وهنا نكتة لطيفة، وهي أن تقديم الظالم لنفسه إنما كان لعدم توهم حرمانه من الجنة، وتعجيلًا لمسرته، حتىٰ لا يقول شخص: إن كلمة «اصطفينا» الواردة في الآية تعني أنهم أناس مختلفون، حتىٰ لا يتوهم السامع والقارئ أن هذا الشخص محروم من الجنة، بل هو من أهل الجنة، وهذا التقسيم هو لأمة محمد ﷺ.

وقال ابن تيمية في بيان هذه الآية: «فالقول الجامع أن «الظالم لنفسه» هو: المفرط بترك مأمور أو فعل محظور، و«المقتصد»: القائم بأداء الواجبات وترك

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢).

المحرمات، و«السابق بالخيرات»: بمنزلة المقرب الذي يتقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض حتىٰ يحبه الحق»[1].

وبَيَّنَ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن هؤلاء قد يُذنِبون، ويُكفِّر اللهُ تعالىٰ عنهم هذه الذنوب إما بمصائب، وإما بتوبة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]. ثم وضَّحَ أن المقتصد والسابق يدخلان في قول الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونُس: ٦٢][2]. ثم ذكر الحديث القدسي: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[3]. إذن التدين له مراتب ودرجات، ومنزلة الإنسان تكون بقدر إيمانه وتقواه، وله عكس ذلك بقدر فجوره.

إذن قد يجتمع في الشخص الواحد من الحسنات المقتضية للثواب، ومن السيئات المقتضية للعقاب، فقد يجتمع في الإنسان الخير والشر.

إذن تقسيم الناس درجات أو مراتب ثابت، قال ابن القيم: «وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار ومقربون. وهؤلاء الأَصناف الثلاثة هم أَهل اليمين، وهم المقتصدون والأَبرار والمقربون. وأَما الظالم لنفسه فليس من أَصحاب اليمين عند الإِطلاق، وإِن كان مآله إلىٰ أصحاب اليمين»[4].

فتقسيم الناس إلىٰ صالح وغير صالح موجود، لكن الإشكال هو كيفية تقسيم الناس، وكيف نحكم علىٰ الناس في التقسيم، ومما يوضح ذلك: أن رجلًا

---

(١) ابن تيمية، الفتاوىٰ، ٥/ ١٦١.

(٢) ابن تيمية، الفتاوىٰ، ٥/ ١٦١-١٦٣.

(٣) رواه البخاري رقم (٦٥٠٢).

(٤) ابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص١٨٧.

جاء إلىٰ عمر بن الخطاب ومدح رجلًا، فقال له عمر: هل أنت جاره؟ قال: لا، قال: هل عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، قال: هل سافرت معه السفر الذي يُسفِر عن أخلاق الرجال؟ قال: لا. فقال عمر: لعلك رأيتَه في المسجد يخفض رأسه ويرفعه[1]! وكأن عمر ﷺ يقصد أن هذا المظهر ليس كافيًا لأن تحكم علىٰ رجل بالتدين والالتزام والتزامه بأوامر الله تبارك وتعالىٰ؛ إذن فصَّل عمر ﷺ في قضية الحُكم علىٰ الناس، وأعطىٰ المعايير التي يمكن أن يُحكَم بها علىٰ الشخص، وبذلك فلا يصح أن يُحكَم علىٰ الشخص من مظهره فقط، بل لا بد من الحكم عليه من مجموع أفعاله وتعاملاته وعلاقاته، وهذا لا يعني أن المظهر ليس سبيلًا للحكم، بل لا يُمكّن من كشف سرائر الناس ومعرفة بواطنهم، وأهل السنة والجماعة يحكمون علىٰ ظواهر الناس، أي: ما تراه من أعمال صباحًا ومساءً.

إن التوحيد اصطفاء من الله تعالىٰ؛ إذ لا توجد نعمة أعظم من أن تُرزَق التوحيد، فإذا وقع الشاب في سيئة أو معصية فلا يقنط من رحمة الله تعالىٰ، بل ليعلم أن عنده أصل التوحيد، فليبدأ من جديد ولا ييأس، ولا يترك للشيطان عليه سبيلًا.

مظاهر المتدين:

من الإشكالات أن بعض المظاهر ضُخِّمت، حتىٰ صارت أهم من الجوهر، ومن زاوية أخرىٰ فقد اقتصر التدين علىٰ بعض المظاهر، وبالتالي فمَن يحافظ علىٰ هذه المظاهر يُعطَىٰ لقب «المتدين»، ومن لا يحافظ عليها يُعطَىٰ لقب «غير متدين».

وهذه إشكالية ترجع إلىٰ ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، ونظرته للمتدين، ونظرته لغير المتدين، والأصل أن الإنسان إذا امتلأ قلبه بالإيمان فإن الإيمان يظهر علىٰ جوارحه، فيبدأ بتطبيق سنة النبي ﷺ اعتقادًا وقولًا وعملًا،

---

(١) الحكيم الترمذي، أدب النفس ص٧٩.

فيفعل الأمور الظاهرة، مثل: إطالة اللحية، وتقصير الثوب، وعدم سماع الغناء، وغير ذلك مما ثبت النهي عنه في السنة النبوية، فإذا فعل هذه الأشياء استجابة لأمر الله جل وعلا ويقينًا بأنها جزء من الدين أو اتباعًا للسُّنة النبوية، فهذا متدين.

أما إذا وُجِد شخص يسمع موسيقىٰ، أو يطيل ثوبه أو غير ذلك من المنهيات، فيبقىٰ عنده أصل الإسلام وأصل التوحيد، لكن هذا نوع من التقصير، وهذا قد يكون من الظالم لنفسه، أو أن تدينه غير كامل، لكن عنده أصل التديُّن، وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَىٰ بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[1]. أي إنه قد يكون عنده من أصل الولاية، وليس كمال التدين.

إن كلًّا من المؤمن والفاجر يفعلان السيئات، لكن الفرق بينهما في المحاسبة؛ فالمؤمن قد يأتي الذنوب، لكنه يحاسب نفسه ويندم ويتوب، والفاجر يأتي الذنوب ولا يبالي، ولا يتوب منها، وكون الإنسان متدينًا عند الناس فهذا لا يعطيه ميزة علىٰ الآخرين، فالشخص قد يذنب، ثم يندم ويتوب، فهذا الذنب قد يقوده إلىٰ الجنة من خلال توبته، وقد يفعل شخص الطاعة، ويُعجب بنفسه فيها فتقوده إلىٰ النار! فالقضية ليست حكمًا واحدًا علىٰ الظاهر؛ لأن الظاهر وحده ليس معيارًا للتدين أو عدمه.

إذن الناس في مسألة التدين درجات، فقد يكون الإنسان ظالمًا لنفسه، ثم ينتقل للسابق بالخيرات، وقد يكون العكس، قد يكون في الوسط ثم ينتقل إلىٰ أحد الطرفين، وهذا كله بحسب إيمان الشخص ومجاهدته لنفسه.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٧٨٠).

ما يؤثر في التديُّن:

توجد العديد من العوامل التي تؤثر في التدين، وفيما يلي أذكر بعضها:

مما يؤثر في التدين: الصحبة، وتعريض الإنسان نفسه للمواعظ، والابتعاد عن مواطن الشبهات والشك، وغير ذلك مما ورد في قول الشاعر:

إِنِّـي بُـلِـيـتُ بِـأَرْبَـعٍ مَـا سُـلِّـطُـوا إلا لأَجْـلِ شَـقَـاوَتِـي وَعَـنَـائِـي
إِبْـلَـيْـسَ وَالـدُّنْـيَـا وَنَـفْـسِـي وَالْـهَـوَىٰ كَـيْـفَ الْـخَـلاصُ وَكُـلُّـهُـمْ أَعْـدَائِـي

وقال آخر:

النفْسُ كالطفْلِ إنْ تهمله شَبَّ علَىٰ حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطُمْهُ يَنْفَطِمِ

ومما يؤثر في التدين: اتباع الهوىٰ ورغبات النفس، إذا أُعْطِيت النفس رغباتها فإنها تورد صاحبها المهالك؛ لأنها تستثقل الطاعات، وقد حُفَّت الجنة بالمكاره، والله جل وعلا يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقال الله جل وعلا لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦]. فالهوىٰ أحيانًا يكون خفيًّا، ويدخل في قوالب مختلفة، وأحيانًا يدخل بقوالب الدين.

ومما يؤثر في التدين: اتباع الشيطان، يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. فعدو الإنسان في هذه الحياة هو الشيطان، وهناك أناس انتقلوا في تعاملهم مع الشيطان من مربع المقاومة إلىٰ مربع الاستسلام! وأصبح حاله مع الشيطان كما قيل:

وَكُنْتُ امْرَءًا مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَىٰ بيَ الحَالُ حَتى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

ومما يؤثر في التدين: التمسك بمظاهر الدنيا: فوسائل التواصل الاجتماعي وغيرها من الأشياء عمَّقت مفهوم الدنيا في نفوس الناس، وأخَّرت مفهوم

الآخرة، والقرآن الكريم يجعل الدنيا وسيلة للآخرة، قال الله جل وعلا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. فالأصل أن الإنسان يبتغي الآخرة، والدنيا هي وسيلة لذلك، لكن حال كثير من الناس تبدل بسبب التقدم الذي نعيشه، وهذه الأشياء بمجملها قد تؤثر علىٰ تدين الإنسان.

ومما يؤثر في التدين: رواسب الجاهلية، فبعض الناس عندهم رواسب الجاهلية بسبب تنشئتهم الأسرية، أو بسبب بيئة معينة، أو بسبب سكنهم في مكان ما، قال ابن القيم: ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان، وصدق اليقين إلا بتركه للجاهلية، وإخراجها من قلبه؛ فإذا أخرج الجاهلية كلها من قلبه شعر بحلاوة الإيمان.

وهذا حصل في عهد الصحابة ﷺ، ففي الصحيح عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَىٰ غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»**[1]. وهذا هو أبو ذر الصحابي الجليل الذي ورد في فضله قول النبي ﷺ: **«مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ، وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ، مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ»**[2]. فهذا الرجل العظيم قال له النبي ﷺ: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»!** فكيف بحالنا اليوم[3]؟!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٣٠)، ومسلم رقم (١٦٦١).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٨٠١)، وابن ماجه رقم (١٥٦).

(٣) من الكتب التي عالجت هذه القضية كتاب (قصة الالتزام ورواسب الجاهلية)، لمحمد حسين يعقوب، فقد تكلم عن الشاب في طريقه إلىٰ الله، والعقبات التي تقابله، وأنه قد تعود له بعد التدين بعض الإشكالات التي كانت قبل التديُّن، وكيف يواجه هذه الإشكالية في حياته.

ومما يؤثر في التدين: طول الأمد، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود في هذه الآية: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين»[(١)]! فالصحابة ﷺ عُوتبوا بطول الأمد، فبعض الناس يطول عليه الأمد فيتناسىٰ الغاية التي سيصل لها، ويتناسىٰ الجنة وما أعدَّه الله تعالىٰ له فيها، ويبدأ الانتكاس والرجوع والتنازل والتخلي عن التدين ومبادئه، قال ابن القيم في مدارج السالكين: «قال الجنيد: وا شوقاه إلىٰ أوقات البداية. يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة علىٰ الطلب، والسير إلىٰ الله . . .»[(٢)]. فهو يشتاق إلىٰ الوقت الذي كان فيه إيمانه مرتفعًا عاليًا.

ومن طريف ما يُشار إليه إن كثيرًا من أهل التدين إذا كبروا وانشتغلوا بأمور الدنيا -كالعمل والزواج- واقتربوا من سن الأربعين وانخرطوا مع الحياة قد يعجبون علىٰ بدايات التزامهم واستقامتهم، وجلوسهم بعد الفجر حتىٰ طلوع الشمس في المسجد، وحضور ميادين العلم والدعوة، وكأنهم يقولون: إنها كانت مدة فراغ، والآن اشتغلنا بالحقيقة! وما علموا أن ما كانوا فيه هو هداية من الله تعالىٰ، وربما حُرِمُوا منها في أيامهم التي يزعمون أنها هي الحقيقة!

فالطريق إلىٰ الله تعالىٰ طويل، ويحتاج إلىٰ عدَّة وعتاد وزاد، والتدين قرار يحتاج الإنسان معه أن يبحث عن المؤثرات الإيجابية التي تعزز عنده التديُّن في نفسه.

ومما يؤثر في التدين: الأمراض القلبية، مثل: الحسد والكبر وغيرهما؛ لأن هذه الأمراض تردُّ الإنسان عن الدين، وتردُّه عن تقبُّل الحق.

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤٨).

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين (٣/ ١٢١).

ومما يؤثر في التدين: **الضغط المجتمعي، أو النسق المجتمعي**، فقد كان المتدين قديمًا يشعر أنه وسط مجموعة من المتدينين، فعندما يتدين لا يشعر أنه خارج النسق، أما اليوم فإنه قد يشعر أنه مختلف عن النسق؛ فالضغط المجتمعي والتأثير المجتمعي والنسق المجتمعي يؤثرون علىٰ تديُّن الناس.

رباعيات الطريق للمتديّن، وسأجملها فيما يلي:

القضية الأولىٰ: أن الإنسان يحتاج إلىٰ تزكية متدرجة، فالتدين ليس فقط تغيير الرداء أو تقصيره فقط، بل هذه هي الخطوة الأولىٰ، أما التزكية فهي منهج طويل يحتاج الإنسان إلىٰ أن يتدرج فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحِجر: ٩٩].

القضية الثانية: الحاجة إلىٰ أستاذ ناصح، فالشاب يبحث عن المشاهير لطلب العلم، أو للاستفادة منهم، وهؤلاء في الغالب يكونون مشغولين، فيمكن لهذا الشاب أن يبحث عن شخص سبقه في الطريق وإن كان غير مشهور، فإنه يمكن أن يرشده ويسدد خطواته، إذا كان لديه من الصدق والإخلاص ما يكفي لذلك.

القضية الثالثة: الحاجة إلىٰ البيئة المعينة، فالإنسان يحتاج إلىٰ بيئة يطلب فيها العلم، ويزكي فيها نفسه، وغير ذلك.

القضية الرابعة: الأصدقاء في البيئة التي يعيش فيها، فهؤلاء يعينون الشخص بشكل كبير علىٰ تجاوز الطريق، فالطريق إلىٰ الله جل وعلا كالسفر الذي يحتاج رفيقًا معينًا يسهِّل صعوباته، والإنسان بحاجة إلىٰ عدم الاتكال علىٰ الجماعية، بل عليه الموازنة بينها وبين الفردية؛ إذ لا بد أن يكون عند كل فردٍ أوقات للخلوة بنفسه؛ لذِكر الله تعالىٰ، والتفكر في الكون، وغير ذلك من العبادات الفردية.

هل التدين صعب؟

إن التديُّن ليس بالأمر السهل، وليس طريقًا مفروشًا بالورود كما يظنه البعض، بل التدين فيه مخالفة للنفس والهوىٰ، ويحتاج الإنسان أن يتخلىٰ عن بعض الرغبات والشهوات؛ لذلك قال الله جل وعلا: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

وتبدو صعوبة التدين في أن الإنسان اعتاد علىٰ صحبة معينة، أو طريقة معينة في حياته، أو أسلوب معين في الحياة، وهو مطالب بعد التدين بتغيير كل ذلك؛ لذا قال ابن القيم: «إِنَّمَا يجد الْمَشَقَّة فِي ترك المألوفات والعوائد من تَركهَا لغير الله، فَأَما من تَركهَا صَادِقًا مخلصًا من قلبه لله، فإنه لَا يجد فِي تَركهَا مشقة إِلَّا فِي أول وهلة؛ ليُمتحن أصادق هُوَ فِي تَركهَا أم كَاذِب، فإن صَبر علىٰ تِلْكَ الْمَشَقَّة قَلِيلًا استحالت لَذَّة.

قَالَ ابْن سِيرِين: سَمِعت شريحًا يحلف بالله، مَا ترك عبدٌ للهِ شَيْئا فَوجدَ فَقده، وَقَوْلهمْ: مَن ترك للهِ شَيْئًا عوضه الله خيرًا مِنْهُ»[1]. فالدنيا دار ابتلاء، وليست دار جزاء.

أذكر أن إحدىٰ الأخوات كانت تعترض علىٰ قضاء الله تعالىٰ وقدره، بسبب أنها تصوم الإثنين والخميس، وملتزمة بارتداء الحجاب، وتقول: لقد تزوجت أخواتي كلهن رغم تقصيرهن في الصلاة والحجاب وغير ذلك، أما أنا فلم أتزوج حتىٰ الآن! فكان عندها اعتراض وعدم رضا بما قُدِّرَ لها. وهذا الأمر خطير جدًّا، فالله تعالىٰ قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. إذن التدين يعني أن يكون الإنسان عبدًا لله جل وعلا، فهذا المعنىٰ

---

(١) ابن القيم، الفوائد ص١٠٧.

الحقيقي للتديُّن الذي هو الانقياد والتسليم والعبودية، وهذا المعنىٰ قد يخفىٰ عند كثير من الناس اليوم.

وقد يبتلي الله تعالىٰ الإنسان بالمصائب والبلايا حتىٰ يرىٰ هذه العبودية فيه، فيرىٰ الانطراح بين يديه والانكسار واللجوء إليه، فهذه الأنواع من العبودية لا تُستخرَج من الإنسان إلا بمثل هذه الابتلاءات.

إذن طريق التدين صعب وشاق ويحتاج إلىٰ تزوُّد، ويحتاج إلىٰ محطات تزكية، ويحتاج إلىٰ زاد كبير؛ لأن الطريق طويل، ويحتاج إلىٰ صحبة، ويحتاج إلىٰ دلالة وطريق، وليس الطريق مفروشًا بالورود، ومَن يظن أن طريق التدين مفروش بالورود ربما ينتكس بسرعة ويعود ويرجع وينكسر ويقنط؛ لأن أهل الجنة أهل التطبُّع لا الطبع؛ فطبع الإنسان هو حب الدَّعة والراحة، وأنه جهول، عجول، ظلوم، منوع . . . ، فهل يريد الإنسان أن يدخل الجنة بهذا الطبع؟! فإذا أراد الجنة فلن يدخلها بهذه الصفات، بل يحتاج أن يكلِّف نفسه، ويتألم حتىٰ يصل إلىٰ ما يريد، والجنة محفوفة بالمكاره.

هل في التدين ابتلاءات؟

نعم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

أول بلاء هو انتزاع النفس من قاع المعاصي والهوىٰ والدَّعة والراحة؛ لأن هذه الأشياء لها جاذبية، فإذا أراد الإنسان التدين فعليه أن يجاهد نفسه للتخلص من هذه الآفات التي توقف عجلة التدين.

ومن الابتلاءات التي قد تواجه الإنسان في طريقه: الحاجة إلىٰ مجاهدة النفس حتىٰ يصل الإنسان إلىٰ مراده، وهذه الابتلاءات تختلف بحسب إيمان كل فرد، ففي الحديث عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الْعَبْدُ عَلَىٰ حَسَبِ**

دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[1].

وقد ابتلي الصحابة رضوان الله عليهم أشد البلاء، فقد أتىٰ خباب بن الأرت النبي ﷺ عند الكعبة، فقال: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فكان خباب يشعر أنه وصل مرحلة من البلاء لم يعد يتحملها، فقال النبي ﷺ: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**[2]. إذن الدنيا ليست دار جزاء، بل دار عمل، وعلىٰ المتدين أن يهيئ نفسه أن الطريق فيها ابتلاءات؛ لأن بعض الناس لا يهيئ نفسه للمصائب ولا للابتلاءات، فعند أول مصيبة أو بلاء يجزع، فتهيئة النفس مما يعين علىٰ التمسك بطريق التدين.

وقد وصف النبي ﷺ الذين يتمسكون بالدين بالقابضين علىٰ الجمر، وليس من السهل أن يكون الإنسان متدينًا وسط نسق عالمي يدعوك إلىٰ اللذة والهوىٰ، بل يدعوك إلىٰ عدم الانصياع لضوابط أو قوانين، وكأن الإنسان لا يستشعر وجود آخرة، ولا وجود دار عمل وابتلاء ولا دار جزاء.

ومن المهم للمتدين أن يطالع سير الصالحين، أو يلتقي بهم، ويحضر مجالسهم، فالصلاح عدوىٰ سريعة الانتقال، فإذا جلس مع الصالحين والعُبَّاد وكبار السن فإن هذا يجدِّد الإيمان؛ لذلك قيل: نعم المُربِّي سير الرجال سواء قراءةً أو جلوسًا أو استفادةً منهم.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٩٨)، ابن ماجه رقم (٤٠٢٣).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٦١٢).

هل المتديِّنون يتشابهون؟

قسَّم أحد الكُتَّاب التديُّن إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: التديُّن المعرفي، ويُقصد به: المعارف والتصورات التي يحملها الإنسان في رأسه.

الثاني: التدين الشخصي، ويُقصد به: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير ذلك.

الثالث: التديُّن العام، ويُقصد به: شؤون الحياة العامة. ثم فَصَّل الكاتب كل نوع من هذه الأنواع.

وقد لا نتفق مع هذا التقسيم لكنه يعطي زاوية جديدة في النظر، والأصل في التدين أنه منظومة متكاملة ومنهج حياة، وهذه أحد ما يميز هذا الدين العظيم تكامله وشموله.

يوجد بعض الشباب يريد أن يتدين، لكنه لا يريد أن يتحمل كل تبعات التديُّن، بل يريد التدين الحديث الذي يوافق هواه ورغباته، وفي الحقيقة هذا ليس تدينًا بقدر ما هو اتباع لما تحبه النفس وتهواه، وهذا خلل في مفهوم التديُّن.

قال علي رضي الله عنه:

لَوْلَا الَّذِينَ لَهُمْ وِرْدٌ يَقُومُونَا ... وَآخَرُونَ لَهُمْ سَرْدٌ يَصُومُونَا

تَدَكْدَكَتْ أَرْضُكُمْ مِنْ تَحْتِكُمْ سَحَرًا ... لِأَنَّكُمْ قَوْمُ سَوْءٍ مَا تُطِيعُونَا

ويجب علىٰ الإنسان أن يأخذ التديُّن كله، ويحرص علىٰ الكمال، وعليه أن يجاهد نفسه حتىٰ يصل إلىٰ مبتغاه، ولا ينتقي من الدين ما يوافق رغباته، وما يطمح إليه.

يحكي أحد الفضلاء أنه كان يبحث ويقرأ ويكتب عن «**التأثير**»، فذهب إلىٰ المدينة المنورة، ودخل المسجد النبوي، فبدأت الخواطر تأتي إلىٰ ذهنه من القصص النبوي عن «التأثير»، ولما قام يصلي صلاة نافلة رأىٰ في القِبْلَة أمامه ثلاثة رجال مستلقين علىٰ ظهورهم ويتكلمون عن «التأثير»!

يقول صاحب الواقعة: وكأن الله ﷻ ساقهم إليَّ، وأنا أسمع، فقال أحدهم: إن الشيخ فلانًا له طريقة مؤثرة. وقال الثاني: إن فلانًا ليس مؤثرًا في حديثه. فقال الثالث: المؤثر الذي يؤثر فيَّ هو صاحب المعمولات لا صاحب المعلومات.

يَقُول صاحبة الواقعة: واللهِ إن هذه الكلمة وقعت عليَّ مثل الصاعقة من دقتها وروعتها!

فنحن نبحث عن التطبيق والأثر والمعمولات، فإنما ثمرة العلم العمل، لذلك جاء رجل إلىٰ عائشة رضي الله عنها يسأل ويسأل، ولم يفعل شيئًا، فقالت له عائشة: يا بني، لا تُكثرنَّ حجةَ اللهِ عليك!

فالعلم حجة علىٰ الإنسان، فالذي يدرس العلوم لمدة سنوات ثم لا يتميز أثناء التعامل فهذا لم يستفد شيئًا من علمه الذي تعلمه، بل هذا العلم حجة عليه لا له؛ لأن تعامله مع الناس لا يختلف عن تعامل غير المتعلم لا في شكله، ولا في أسلوبه، ولا في كلامه، ولا في تصوراته، فما فائدة العلم إذن؟!

إن الخطابَ الذي يدعو إلىٰ التديُّن مفرَّغٌ -إلىٰ حدٍّ ما- من الجانب الإيماني والوعظي والأخلاقي والتذكير بالله، وانتقل إلىٰ نقاش قضايا جدلية ومعرفية وفلسفية وثقافية، وتركيز علىٰ الذهنيات والعقليات وتعظيمها، وهذا يُشكِّل خطرًا كبيرًا علىٰ الشباب والفتيات؛ لأنهم يركزون علىٰ هذا النوع من الخطاب، وأصبح عندهم تديُّن معرفي لا سلوكي، وهؤلاء الشباب الذين تربوا علىٰ هذا النمط يُقيِّمون الناس بناءً علىٰ معرفتهم العقلية المجردة في النظر، ودقائق الأمور، والإغراب في الألفاظ، ولا يُقيِّمونهم بناء علىٰ العمل والمعاملة!

إن وسائل التواصل الاجتماعي تعطي مستخدمها نشوة بأنه ينصر الدين، وأنه متديِّن من خلال الكتابة والدفاع عن الإسلام وأحكامه، لكنه يتكاسل عن أداء واجباته المفروضة عليه؛ كالصلاة والصيام وغير ذلك، فتجد أن السلوك متباين بشكل كبير عن المعرفة، وهذا نوع من عقلنة الخطاب الذي قد يُسبِّب

إشكالًا كبيرًا على المدى البعيد؛ فهو يؤثر على إيمان التسليم، قال الله جل وعلا في سورة البقرة عندما وصف أهل الإيمان: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢-٤].

وأحيانًا يكون الإشكال في التدين عند المُعرضِين هو العناد والاستكبار، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٦-١٨]. فهنا لم يعالج اللهُ تعالى القضيةَ بأسلوب البرهنة العقلية، بل بالتخويف القلبي؛ لذلك قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦].

إن تفريغ خطابنا الدعوي -الذي يدعو إلى التديُّن- من مخاطبة القلب والوجدان، والاعتماد على الخطاب العقلي فقط، أو الدعوة إلى التديُّن المعرفي يُسبِّب إشكالًا كبيرًا، إذ لا بد أن يكون الإيمان والتسليم حاضرين، وإذا سمع المتلقي النصَّ قال: سمعنا وأطعنا.

«في النفس الإنسانية قوتان قوة التفكير وقوة وجدان، وحاجة كل واحد منهما غير حاجة أختها فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم؛ والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا»[1].

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. قيل: اتهامك لرأيك، وغضُّك لصوتك عند النص الشرعي وفهمه هو أدعى في تسليم القلب؛ لذلك قال الله ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. فكلما كان قلب الإنسان خاضعًا لهذا الدين، ممتلئًا بحب الله تعالى ورسوله ﷺ كان ذلك أدعى للتدين والتمسك به والدعوة إليه.

---

(١) محمد دراز، النبأ العظيم، ص١٤٨.

هل المتدينون عندهم أخطاء؟

المتدين إنسان يخطئ ويصيب، فبعض الناس ينظر للمتدين علىٰ أنه ملائكي، وأنه شخص لا يُقبَل منه الخطأ؛ لذلك فأخطاء المتدين تُكبَّر وتُفَخَّم، ويُنظر لها علىٰ أنها جريمة، فاستغل الناس هذه الأخطاء وضخَّموها، في حين أنه قد يفعل غير المتدين أضعاف الخطأ الذي يفعله المتدين، لكن أخطاء المتدين تُضَخَّم بفعل فاعل ولأهداف غير نبيلة! وأحيانًا أخرىٰ بسبب أنه ورقة بيضاء فأي نقطة سوداء تظهر فيه بوضوح.

المتدين شخص كغيره من البشر، عنده سمات شخصية متفاوتة، وحالة مزاجية متقلبة، يمر بفترات ضعف وقصور بشري، عنده سلوكيات خاطئة، وأفكار قد تكون سلبية أو متشائمة، يأكل ويشرب، يصوم ويفطر، يصيب ويخطئ، يضحك ويبكي، يعلم ويجهل، يطيع ويعصي، يحاول من خلال تدينه: تزكية نفسه وتهذيب سلوكه، وضبط ما سبق وفق تصور الشرع.

كيف نُعزِّز التديُّن؟

توجد بعض الوسائل التي ينبغي الاهتمام بها حتىٰ يصل الإنسان إلىٰ مرتبة التديُّن ويحافظ عليه، ومن ذلك:

أولًا: العناية بأعمال القلوب، فالقلوب هي المحرك للجسد، والعناية بها بشكل مستمر تعين الإنسان علىٰ أن يستمر علىٰ هذا الطريق، ومن ذلك: الصدق، والإخلاص، والخشوع. فالاعتقادات الباطنة أول قضية تُسهِم في الحفاظ علىٰ التديُّن.

ثانيًا: تدبُّر القرآن الكريم، فإن تدبر القرآن يُسهِم في استمرار الإنسان علىٰ التدين، ويسهم في ضخِّ التديُّن بمفاهيم مستمرة، ومعالجة الإشكالات التي قد تواجه الإنسان في طريقه.

ثالثًا: عدم الاستهانة بالصغائر؛ لأن الصغائر كالسهام التي تجرح، ومع الأيام يكبر هذا الجرح، فلا تشعر به، قال النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَىٰ الرَّجُلِ حَتَّىٰ يُهْلِكْنَهُ**» وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّىٰ جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»[1].

رابعًا: تقديم النصيحة والاستماع إليها، بأسلوب لطيف، ففي الحديث عَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[2]. والنصح يُعزِّز ويبعد الإنسان عن الأخطاء، وما يخدش في تدينه.

خامسًا: غض البصر، وهذه من القضايا الشائكة اليوم، قال الله جل وعلا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النُّور: ٣٠]. فغضُّ البصر مقدَّم علىٰ حفظ الفرج؛ لأن إطلاق البصر هو السبيل إلىٰ الزنا، فكلما أطلق الإنسان بصره وقع في الحرام، وهذا من قوادح تدينه.

وغض البصر ليس مقصورًا علىٰ أن الرجل لا ينظر إلىٰ المرأة، أو أن المرأة لا تنظر إلىٰ الرجل؛ بل المعنىٰ الأشمل يدخل فيما نقصده، أي: إطلاق البصر إلىٰ فضول الأشياء، قال الله تعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحِجر: ٨٨].

سادسًا: عدم الاستكثار من المباحات، فإذا توسع الإنسان في المباحات انجرف إلىٰ ما هو مكروه، ثم إلىٰ ما هو محرم؛ لأن التدين سيكون في حالة نقص وانحدار، فالإنسان يقتصر من المباحات علىٰ ما يحتاجه فقط، ثم يستكثر من النوافل التي تحميه من الانزلاق إلىٰ القاع.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم (٣٨١٨).

(٢) رواه مسلم رقم (٥٥).

سابعًا: عدم الاستسلام للفراغ، كثير من الشباب يواجه مشكلات في تدينه بسبب الفراغ، وفي ذلك يقول الشاعر:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدَة ... مفسدةٌ لِلمَرءِ أيُّ مَفسَدَة

وملء الوقت بالطاعات أو بالمباحات من الوسائل التي تعين علىٰ ذلك، فلا يستسلم الإنسان لهذا الفراغ الذي يقتل كثيرًا من الناس، فيُسبِّب له أوهامًا ووساوس، وقد يؤدي إلىٰ الخواطر والأفكار، فالاسترسال وراء الخواطر أو البصر يُسبِّب إشكالات للشباب والفتيات، وهذا من الأعمال التي تُضعِف التديُّن.

قال ابن القيم: (وَالنَّظَرُ أَصْلُ عَامَّةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَالنَّظْرَةُ تُوَلِّدُ خَطْرَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الْخَطْرَةُ فِكْرَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الْفِكْرَةُ شَهْوَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الشَّهْوَةُ إِرَادَةً، ثُمَّ تَقْوَىٰ فَتَصِيرُ عَزِيمَةً جَازِمَةً، فَيَقَعُ الْفِعْلُ وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ)[1].

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٌ بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِها ... كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتَرِ
وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ ... فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الْخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ)

إن وسائل التواصل أشبه بموج هائج علىٰ كثير من الشباب من ناحية إطلاق البصر، وهذا البصر يؤدي للخواطر، وما دام الإنسان يسترسل مع هذه الخواطر يحصل له الإشكال؛ لذلك قيل: مَنْ حفظ أربعًا أحرز دينه، وهي: الخطرات، واللفظات، والنظرات، والخطوات. هذه الأشياء الأربعة قد تؤدي بالإنسان إلىٰ كثير من المهالك.

---

(١) ابن القيم، الداء والدواء، ص١٥٣.

ومما يعين المرء علىٰ ملء أوقات فراغه:

- **التفكُّر في آيات الله المُنزلة والكونية.**

- **التفكُّر في آلاء الله تعالىٰ ونعمه.**

- **التفكُّر في عثراته وتقصيره**، مقابل هذه النعم التي امتنَّ الله تعالىٰ بها علىٰ الإنسان.

- **شغل النفس والذهن بما هو مفيد**، ومن ذلك: العلم النافع، والحرص علىٰ التزود لأمور الدين والدنيا.

ومن المهم أن يعرف الشاب والفتاة أن التديُّن لا يعني التخلف، وأن التديُّن هو امتناع عن الحرام، لا امتناع عن الحياة، ويجب أن يعرف أن الذي يقود حياة الناس هو الدين، وليس معيار «الموضة»، أو ما أحبه أو ما لا أحبه؛ فالمسلم يتمثل في حياته: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فقولنا: «إنا لله»، أي: نحن عبيد في ملكه، مؤتمرون بحكمه ﷻ، وقولنا: «وإنا إليه راجعون»، أي: نحن سنرجع إلىٰ الله، ومن المهم أن نفهم أن وجودنا في هذه الحياة هو لتحقيق العبودية لا لتحقيق أي شيء آخر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن المتدين بشر ضعيف، تؤثر فيه التنشئة والمتغيرات، فهو كغيره من الناس، يقوىٰ إيمانه ويضعف، لكنه شخص يجتهد في أن يجاهد نفسه، وألا يستسلم للنفس والشيطان والهوىٰ، تطبيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن كثير في هذه الآية: (الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله جل وعلا لما لا يعلمون). نسأل الله العظيم أن نكون منهم.

مراجع للاستزادة:

- فطرية الإيمان، جستون باريت.
- مدارج السالكين، ابن القيم.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم.
- الفوائد، ابن القيم.
- تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد.
- قصة الإسلام ورواسب الجاهلية، محمد حسين يعقوب.
- أصول الوصول إلىٰ الله، محمد حسين يعقوب.
- ظاهرة التدين الجديد وأثره في تمرير ثقافة التغريب، أنور الخضري.
- إسلام السوق، باتريك هاني.

الفصل الرابع
سؤال الثغر

نتناول في هذا الفصل «سؤال المشروع» أو «سؤال الثغر»؛ ببيان معناه، وكيفية الإجابة عن هذا السؤال.

معنىٰ الثغر:

الثغر هو: مجال أو فكرة يبذل فيها الشاب والفتاة جهدًا من وقته وفكره وماله من أجل خدمة دينه؛ تحقيقًا للرسالة التي يعيش من أجلها، وقيامًا بدوره في عمارة الأرض وإصلاحها، طلبًا لرضوان الله ورغبة في الحصول علىٰ الأجر منه سبحانه وتعالى.

وقد كثر الآن سؤال: ما مشروعك؟ ما ثغرك؟ ما دورك؟ ما مهمتك؟ وجميها أسئلة تحث الشباب علىٰ المبادرة إلىٰ العمل، وتسألهم: أين أنت؟ وإلىٰ أين؟ ومتىٰ تبدأ؟ ومتىٰ تنطلق؟ وغير ذلك، حتىٰ أن كثرة طرح هذا السؤال أصبح مؤرقًا ومقلقًا للشباب.

فما سبب كثرة هذا الخطاب تجاه سؤال المشروع أو الثغر؟

أسباب انتشار السؤال عن المشروع أو الثغر:

في الآونة الأخيرة ازداد الحديث عن هذا الموضوع، وأرىٰ أن المبالغة في الحديث عنه سبَّبت قلقًا لبعض الشباب؛ مما جعل الشاب يشعر أنه علىٰ خطأ، وبدأ يبحث عن مشروع آخر ينتقل إليه من أجل أن يُلبي هذه الرغبة التي قد تعززها الفردية المنتشرة اليوم في العالم، حيث يُطلبُ من الإنسان أن يكون له دور وحضور وتأثير.

إن كثرة المشاريع وتنوع الأدوار وكثرة الفرص وتشعُّب العلوم وسعة المجالات وغير ذلك من الأسباب جعل الناس بحاجة إلىٰ أن يكون عندهم فكرة أو مجال يخدمون فيه غيرهم، ولم يعد العمل العام بالبساطة التي كان عليها في السابق، فإن التعقيد الحاصل اليوم هو الذي جعل هذا الطرح يكثر، ولذلك فتعقُّد الحياة، وكثرة الكوادر، وتكدس الطاقات، وحاجة الثغور ... وغير ذلك كان من أسباب انتشار سؤال: ما المشروع؟ أو: ما الثغر؟

كما أن هناك شخصيات معاصرة تولت نشر هذه الفكرة وحازت سبق الحديث عنها وألهبت حماس الشباب حولها، حتىٰ عرف بعضهم بهذا الموضوع(١).

إن الشباب لديهم طاقات كبيرة وهائلة، وهم في مرحلة حماسة وحيوية وعطاء، وفي هذه المرحلة إن لم يكن الشاب علىٰ ثغر أو في مجال أو في مشروع يحقق من خلاله الاستخدام الأمثل لموارده وكفاءته وطاقته، فإنه سيشعر أنه لم يقدِّم شيئًا لدينه ومجتمعه؛ وسيعود بعد ذلك باللَّوم علىٰ نفسه ومن معه، ويبدأ يندب حظه وقد يكون سببًا في فتوره وضعفه، وهذه القدرات والميزات والملكات مواهب من الله، إن لم تستخدم في الخير قد تؤول لغير ذلك، لذلك يجب أن يكون للإنسان مشروعه التطوعي الذي يصرف في طاقته.

---

(١) ثم التقط هذه الفكرة د. مشعل الفلاحي وغيرهم أول من سمعت منه هذا الموضوع شيخنا الجليل د. عبد الله الشهراني ﷺ.

ومما يساعد الشاب علىٰ ذلك:

أولًا: الاستخدام الأمثل للموارد والطاقات والمواهب التي يمتلكها.

ثانيًا: أن يعرف الإنسان نقاط قوته فيعززها من خلال فكرة ومشروع ومجال يعمل فيه، فيشعر بالانتماء إلىٰ هذا المكان، ويبدع فيه، ويقدِّم من خلاله عطاءه لوطنه وأمته.

ثالثًا: طلب الأجر من الله تعالىٰ، فالإنسان عمره قصير، والمجالات كثيرة، فإذا انتقل من مكان إلىٰ آخر، ولم يحسن استثمار عمره في مجال محدد ويبني فيه خبرة ومعرفة وعلمًا وتأثيرًا وعطاءً فقد يفقد كثيرًا من الأدوار التي يمكن أن يقوم بها، وحصول الإنسان علىٰ الأجر هو أهم الأسباب التي تدفع للحديث عن المشروع والثغر والدور التي ينبغي علىٰ الشاب أن يقوم به.

إن الإنسان كائن غائي، فإذا لم يعش حياته من أجل غاية معينة -سواء غاية كبرىٰ مثل: غايته في الوجود، أو غاية صغرىٰ مثل: غايته في يومه، أو شهره، أو أسبوعه- فإنه سيشعر بالخواء الذاتي، ويفقد معنىٰ حياته ويفقد شعوره بتحقيق ذاته؛ ولذلك تجد حياة الناس الذين يعيشون من أجل مشروع أو غاية كبيرة مختلفة، فصاحب المشروع يجد امتدادات لمشروعه، ويسمع نداءات يمنةً ويسرةً في كل مكان تدعوه لإكمال مشروعه لإفادة غيره، وتكون نظرته للحياة مختلفة مُوجَّهة بتوجيه تلك الأفكار أو المشاريع التي في ذهنه.

والوقت أيضًا مختلف بالنسبة لصاحب المشروع، فتجد أنه يتمنىٰ أن يكون اليوم أكثر من أربع وعشرين ساعة، وبينما الذي لا يعيش من أجل قضية أو مشروع أو دور أو ثغر يستطيل الأيام والأوقات، ويشعر بالملل؛ لذلك فالمشروع حياة. قال عمر ﵁: «إني لأكْرَه أنْ أَرىٰ أحدَكم سبَهْلَلًا، لَا في عَمَل دُنيا، ولا في عَمل آخرة»[1].

---

(١) العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ١/ ٢٨٣.

ومن الأسباب المهمة لطرح هذا الموضوع: أن الشباب يعيش هذا القلق، ويسأل: ما دوري في الحياة؟ والإجابة عن هذا السؤال هي أن يكون لك دور في الحياة. قال أحد الشباب: أهلي لا يحترمونني، فكيف أغيِّرُ نظرتَهُم لي؟ يجاب عن ذلك أنه كلما زادت قدراته زادت حاجة الناس إليه، وزاد استغناؤه عن الناس، فإذا كان عند الإنسان قدرات أو مهارات أو غير ذلك مما يحتاج الناس إليه وضعوا له قدرًا عاليًا، أما إذا أصبح الإنسان مستهلكًا لا منتجًا فلا أحد ينظر إليه، ولا أحد يهتم به.

لذلك فكثير من أصحاب المشاريع يطلبون تقاعدًا مبكرًا من عملهم؛ حتىٰ يتفرغوا لمشروعهم، ويكون عندهم فرصة ليضاعفوا وقتهم وجهدهم من أجل تحقيق هذا المشروع، بينما يشتغل الشخص الذي ليس عنده مشروع بسفاسف الأمور، إذ ليس له هدف كبير في الحياة؛ أو ربما كان له أهداف حميدة، لكنها ليست كبيرة في مشروع، ولا يعنيه إن انقضت أو لم تنقض.

إن قضية الأثر -عندما تشغل بال بعض الشباب بشكل كبير- تضغط علىٰ الشاب وتحمّسه، فيحقق ذاته في وقت مبكر، ويكون نافعًا لنفسه وغيره، لكن ينبغي ألا ينطفئ هذا الحماس ويندثر بعد وقت من بداية المشروع؛ لأن بعض الشباب يسعون لتحقيق أثر كبير مرة واحدة، فيكون حماسهم الزائد هو سبب فشلهم في تحقيق أي مشروع؛ لذا قيل: مَنِ استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه.

هل فكرة المشروع أو الأثر حادثة أم لها تاريخ سابق؟

هناك مَنْ يرىٰ أن قضية المبالغة في طرح المشروع تُعزِّز الفردية عند الشباب والفتيات، وأنها نشأت بعد نشأة المدن الكبرىٰ التي تُلزِم كل شاب بأن يكون له دور ومسؤولية ومَهَمة، وهذا قد يكون صحيحًا إلىٰ حدٍّ ما، لكن المقصود بالمشروع هو كيفية استغلال الإنسان قدراته وإمكاناته ومهاراته ومعارفه التي امتنَّ الله تعالىٰ عليه بها في خدمة دينه ومجتمعه.

إن الإنسان وجد في هذا الكون ليكون له دور ومهمة؛ فالله جل وعلا منذ أن خلق الإنسان جعل له دورًا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فقد خلق الله تعالىٰ الإنسان من أجل الخلافة في الأرض وإعمارها، وعبادته تعالىٰ وحده، والوصول إلىٰ هذه الغاية -وهي عبودية الله تعالىٰ- قد يكون بأدوار متعددة يقوم بها الإنسان، سواء كان دورًا تربويًّا أو علميًّا أو دعويًّا، وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له، ولكلٍّ وِجْهَة هو موليها، فكل إنسان له طريقة وأسلوب يعمل من خلاله لخدمة هذا الدين.

وإذا تأملنا تعامل النبي ﷺ مع صحابته ﵃ نجد أنه كان يعطي كل واحد ميزة، ودورًا، وثغرًا يقف عليه ويدافع عنه، فدور المربي الحقيقي أن يكتشف ويُوجِّه ويُيسر ويُمكِّن، فالنبي ﷺ قال: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**»(١).

وفي قصة الأذان لما جاء أحد الصحابة للنبي ﷺ وأخبره بكلمات الأذان، قال النبي ﷺ: «**فَاخْرُجْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِهَا عَلَيْهِ، وَلْيُنَادِ بِلَالٌ فَإِنَّهُ أَنْدَىٰ مِنْكَ صَوْتًا**»(٢). فأعطىٰ النبي ﷺ بلالًا دورًا خاصًّا به؛ بسبب ميزة عند بلال ليست عند غيره، حيث جعل بلالًا ﵁ مؤذنًا؛ لأن صوته أجمل.

ولما طلب أبو ذر من النبي ﷺ أن يوليه الإمارة، فقال: ألا تستعملني يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٧٩٠).

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٧٠٦).

(٣) رواه مسلم رقم (١٨٢٥).

ومن ذلك أيضًا: أن صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان من عادته أنه يتأخر عن الجيش، فكان ينام كثيرًا بعد أن يستيقظ الجنود، فكان النبي ﷺ يُكلِّفه بتتبع الجيش، ويلتقط ما قد يسقط منهم أثناء السير! وعلىٰ الرغم من أن هذه الصفة ليست صفة مدح، إلا أن النبي ﷺ أوجد لصفوان دورًا ومهمة. وقد ورد هذا المعنىٰ في قول النبي ﷺ: «... **طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»[(١)].

إن الهدف من هذا المشروع أو سؤال الثغر هو وصول الدين للناس، وليس الهدف والغاية ظهور الشخص؛ لذلك قد يعمل الإنسان في مكان ليس له فيه مكانة، وليس له ظهور، وقد لا يكون في مقدمة الناس، فقد يكون في أوسطهم، أو في آخرهم، فليس المهم أين مكان الفرد من الآخرين، بل الهدف أن يكون الإنسان علىٰ ثغر يخدم من خلاله دينه وأمته؛ لذلك قال الدارقطني: «يا أهل بغداد، لا تظنوا أن أحدا يقدر أن يكذب علىٰ رسول الله ﷺ وأنا حي»[(٢)]. يعني أنه سدَّ ثغر الدفاع عن السنة النبوية وبيان صحيحها من ضعيفها، ومعرفة الرجال، وغير ذلك من علوم الحديث.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يُعتمد حالُ الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال، ومهيأ له منها، فيعلم أنَّهُ مخلوق لذلك العمل فلا يُحملهُ علىٰ غيره، فإنَّهُ إن حمَّله علىٰ غير ما هو مستعدٌ له لم يفلح فيه، وفاتهُ ما هو مهيأٌ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعيًا فهذه من علامات قبولهِ وتهيؤه للعلم، فلينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا، فإنَّهُ يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآهُ بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها، من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنَّهُ لا نفاذَ لهُ في العلم ولا يخلق له، مكَّنهُ من

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٨٧).

(٢) الدراقطني، سؤالات حمزة، ص١٧.

أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنَّهُ أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وإنه لم يخلق لذلك، ورأىٰ عينهُ مفتوحةً إلىٰ صنعةٍ مباحة نافعة للناس، فليمكنهُ منها، هذا كلهُ بعد تعليمه له ما يحتاجُ إليه في دينه، فإنَّ ذلك ميسرٌ علىٰ كل أحد، لتقوم حجة الله علىٰ العبد، فإنَّ له علىٰ عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم»[١].

فالمقصود أن يكون للإنسان دور ووظيفة فيما يصلح له وما هو مستعد له، ويدرب ويعلم حتىٰ إذا تهيأ، مكن من مهمة أو ثغر أو مشروع يخدم من خلاله أمته بحسب قدراته وما يفتح الله له وما تحتاجه الأمة منه.

ومما سبق يتبين أن المهمة لها طرفان:

الطرف الأول: علىٰ المُربِّي.

الطرف الثاني: علىٰ المُتربِّي.

فعلىٰ المُربِّي عملية الاكتشاف، وعلىٰ المُتربِّي عملية الاعتراف. مثال ذلك أن يقول المربي للمتربي: أنت جيد في القيادة والإبداع. فيقول المتربي: لا، أنا لا أحسن ذلك! فحدث الاكتشاف، ولم يحدث الاعتراف، وبالتالي ما استفاد الإنسان من مواهبه، وإنما أهملها، واحتقر ذاته، فالموهبة مثل البذرة إذا لم يسقِها صاحبها فإنها لا تنبت، وتموت في تربتها.

ولا بد أن يكون الاكتشاف والاعتراف صحيحان، فإذا كان الاكتشاف خاطئًا فإن نتائجه ستكون سيئة؛ لأن بعض المربين يوجِّه بطريقة غير صحيحة، أو يوجِّه لما قد يراه مناسبًا، وربما تكون له حاجة شخصية في التوجيه.

في غزوة الأحزاب كان الموقف صعبًا، وأراد النبي ﷺ أن يعرف أخبار المشركين، قال حذيفة رضي الله عنه يصف ذلك: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ**

---

(١) ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود، ص٢٤٣-٢٤٤.

الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ . . .**»[1]. هناك بعض الثغور تحتاج أن يُقَال فيها: قم يا حذيفة؛ لأن هذا الثغر لا يسدُّه إلا فلان، أو لأن هذا الثغر لا يوجد أحد يقوم به، أو لأن هذا الشخص لديه الإمكانات والقدرات والمعارف التي تؤهله للقيام بهذه المهمة.

وبلا شك ينبغي علىٰ المربي أن يختار بطريقة جيّدة، وعلىٰ المتربي أن يستجيب إذا رأىٰ هناك مصلحة أكبر من مصلحته الشخصية.

وبناء عليه، فالتوازن بين الاكتشاف والاعتراف مهم جدًّا، ولا بد من مراعاة معايير دقيقة في كل ذلك؛ حتىٰ تؤتي كل مهمة أكلها بشكل مناسب.

كيفية معرفة الثغر المناسب:

توجد أدوات كثيرة ووسائل علمية مُحكَّمَة للتعرُّف علىٰ الثغر، مثل:

الطريقة الأولىٰ: الاختبارات الشخصية، وهي التي تعين علىٰ اكتشاف الإنسان نفسه، ومعرفة قدراته، وبناءً عليها يمكن أن ينظر في المهمة التي تناسب قدراته، والاختبارات الشخصية أثبتت فاعليتها وأهميتها من خلال عدد كثير من الشباب والفتيات، فلا ينبغي إهمالها، فالعلم توصَّل إلىٰ أنه يمكن لكل شخص أن يكتشف ميزاته ومهاراته ونفسيته وغير ذلك، ثم عليه أن يُوَظِّف هذه القدرات في مشروعه.

الطريقة الثانية: الممارسة العملية، وهي أن يمارس الإنسان في هذا الثغر ويجرِّب ويعمل، لكن قد يتوقف كثير من الناس حتىٰ يكتشف الثغر الذي يناسبه،

---

(١) رواه مسلم رقم (١٧٨٨).

وهذه الطريقة خاطئة، فالإنسان ينبغي أن يكتشف نفسه أثناء محاولاته وتقييمها من حيث النجاح والفشل. فالقاعد لا يكتشف نفسه أبدًا، بل تزداد عليه الأفكار والهموم والمشكلات؛ لأن الإنسان يختبر قدراته ويكتشف نفسه من خلال الممارسة، ويعرف المكان المناسب الذي يمكنه أن يبدع فيه.

الطريقة الثالثة: البناء المعرفي، ويعني: أن يقرأ الإنسان ويتعلم، ويستشير الخبراء، ويبحث: كيف يكتشف نفسه؟ وكيف يكتشف مجاله؟ وكيف يكتشف ثغره؟ وكيف يتعرف علىٰ ذاته؟ وكيف يستطيع أن ينطلق إلىٰ المكان الذي يناسبه؟

الطريقة الرابعة: التجربة والخبرة، أي التجربة السابقة للإنسان والخبرة والعمل الذي عمله قبل ذلك، فبعض الناس لا يبدأ في اكتشاف نفسه إلا في عمر ٢٥ سنة، وهنا عليه أن يسأله نفسه: خلال السنوات الماضية، ما المشاريع التي نجحت فيها؟ ما المشاريع التي وجدت ميلًا إليها؟ ومَنْ هم القدوات الذين أشعر أنهم يؤثرون فيَّ؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تساعد علىٰ اكتشاف نفسه ومشروعه.

الطريقة الخامسة: التفكُّر والتأمُّل، ويقصد بها النظر في النفس، وبحث الشخص عن اهتماماته، والأشياء التي يبدع فيها، والتفكر فيما يحسن وما يعرف؟ لأن النفس معقدة وخفية فتحتاج إلىٰ وقت، وكثير من الناس لا يحبذ الجلوس مع نفسه والتأمل فيها ومعرفة مزاياها وعيوبها، لأن هذا ثقيل علىٰ النفس، وهذه الخطوة لن تنجح ما لم يكن الإنسان صريحًا مع نفسه، مواجهًا له، صادقًا معها.

وينبغي التأكيد علىٰ نقطة مهمة مع هذه القضايا الخمس، وهي قضية طلب العون والتوجيه من الله ﷻ علىٰ أن يدلَّ الإنسان علىٰ الثغر وعلىٰ المشروع الذي يكتب الله تعالىٰ له فيه القبول، ويدعو الله ﷻ أن ييسر له ويعينه، فكثير من الشباب تفرَّغ إلىٰ هذه الأدوات المادية، وانشغل بها عن طلب العون من الله ﷻ؛ لأن القضية المتعلقة بمشروع أو ثغر لخدمة دينك، أو لخدمة مجتمعك وبلدك

تحتاج العون من الله ﷺ، فإذا أغفل الشاب هذا الدور المعنوي الذي يُسهِم في أن يختار المشروع المناسب له فلا فائدة من هذه الأدوات.

وقد أخبرني أحد المشايخ أنه مكث شهر رمضان كله، يدعو الله في سجوده أن يختار له المشروع الذي يستقر فيه ويبذل ما بقي من عمره في العمل فيه وخدمة الدين من خلاله.

كيفية معرفة المشروع الأنسب:

يوجد مشروع غير مناسب، ويوجد مشروع مناسب، ويوجد مشروع أنسب، فما معايير المفاضلة التي تعين الشاب علىٰ اختيار المشروع الأنسب؟

بعد تطبيق الأدوات السابقة في تعرف الإنسان علىٰ مشروعه، هناك معايير أو مُحدِّدات تساعد الإنسان علىٰ اختيار المشروع الأفضل، ومن ذلك:

أولًا: معرفة أجر هذا المشروع، فيسأل الشاب نفسه: هل هذا المشروع أجره أعظم؟ لأن المشاريع يختلف أجرها باختلاف مجالاتها وأماكنها.

ثانيًا: معرفة أثر هذا المشروع، فهناك مشاريع تؤثر في عشرة أشخاص، ومشاريع تؤثر في ألف شخص، وهناك أناس يناسبهم التأثير في عشرة، وقد يكون هذا العدد القليل أعظم أجرًا، لكن كلما كان هناك اتساع في التأثير فهذا أفضل.

إن عزوف الناس عن المشاريع الصغيرة ذات الأجر القليل والأثر المحدود -في ظنهم- تجعل هذه المشاريع أو هذه الثغور ذات احتياج عالٍ، وبالتالي تتحول وتؤول إلىٰ ثغر كبير، وأجر عظيم.

علىٰ الإنسان دائمًا في مُحدِّداته واختياره أن يُخلِص في نيته، ويتجرد لله تعالىٰ بأن هذا المشروع أكثر نفعًا، وأوسع في التأثير، ويرجو أن يوصله إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ مراده، **وليست القضية البحث عن ذاتك**، أو من أجل مصلحة شخصية، هذه قضية مهمة ستؤثر في اختيار المشروع.

ثالثًا: سعة (نخبوية) الشريحة، أحيانًا قد يستهدف المشروع مئة، وأحيانًا يستهدف ألفًا، وربما يكون التأثير في المؤثرين أنفسهم؛ أي أنه يستهدف الشريحة المؤثرة التي يتبعها آلاف وربما ملايين من الناس، وبذلك فالتأثير غير مباشر.

رابعًا: معرفة القدرة الشَّخصية: أي: ماذا يستطيع الشاب أن يقدِّم في هذا المجال أو في هذا المشروع؟ أو ما الإضافة التي سيقدمها؟ فيمكن للشّاب أن يعمل في مشروع عمل فيه أحد قبله، لكنه من خلال قدراته الشخصية يستطيع أن يضيف إلىٰ هذا المشروع ويطوره.

خامسًا: الحب والشغف: من الجيّد أن يعمل الإنسان فيما يحب، وما يهتم به، مع ملاحظة أن شغف الإنسان قد يتغير من فترة إلىٰ أخرىٰ، ولا يضمن استمرار الشغف بهذا العمل، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يعمل إلا فيما يحب؛ لأن بعض الثغور، وبعض المشاريع لا يحبها أحد، أو هي شاقة ومتعبة وثمارها مؤجلة، وبالتالي ليس فيها تحفيز آنيٌّ، وبالتالي فإن هذه الثغور ستُترَك، فلو أن كل إنسان قاده شغفه لتُرِكت ثغور كثيرة، إما إذا كان الشاب يحب ثغره فلا شك أن ذلك أمر طيب ومن النعم المُعجَّلة.

ولا شك أن هذا المحدِّد مؤثر في اختيار المشروع، وفي حماسة الإنسان ورغبته وقدرته، وهناك قضايا أفرزها الواقع المعاصر، خاصة عند الشخص الذي يتكلم عن الدعوة، أو الإصلاح، أو التربية، والعمل في كل هذه القضايا يجب أن يكون موافقًا للمعايير الشرعية؛ فأحيانًا تتأثر المشاريع الخيرية والتنموية أو التربوية بخطاب المشاريع التجارية، فيتحدث أصحابها عن ربحها وكيفية الخروج بأكبر عدد من الفوائد المادية، بل العامل في هذه المجالات عليه أن يحافظ علىٰ الميزة التي وُجِدت في هذا الدين، وهي التعامل مع الله تعالىٰ وابتغاء الأجر منه تعالىٰ.

إن أصحاب المشاريع التجارية يتحدثون عن دراسة الجدوىٰ، والربح المادي، لكن في العمل مع الله ﷻ يتعذر الحصول علىٰ ربح مادي باستمرار،

فأحيانًا يبذل الإنسان المجهود، ولا يحصل علىٰ الهدف من العمل، لكن تبرأ ذمته بما فعل وأدىٰ من مجهود، وإن لم تتحقق الأهداف والغايات.

مجالات الثغور:

مجالات الثغور كثيرة جدًّا، وكل هذه المجالات يمكن توظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين بشكل عام، فهناك مجالات دعوية، وصحية، وتربوية، وتقنية، وهندسية، وطبية ... ويمكن توظيفها في خدمة الإسلام والأمة. مثال ذلك: الطبيب يسأل: ماذا أستطيع أن أفعل؟ الجواب: يمكنك أن تعالج الفقراء، أو تتطوع يومًا في الأسبوع للمشاركة في الأعمال الخيرية أو الجمعيات الأهلية، وهكذا في كل التخصصات، فجميع المجالات يمكن توظيفها بشكل كبير في الأعمال التطوعية، وليس المقصود جانب واحد من الجوانب.

مشكلات المشاريع:

كَثُر الحديث خلال المدة الأخيرة عن الثغر والمشاريع، وماذا يمكن أن يُقدِّم الشاب أو الفتاة، وهذا نابع من مسؤولية الإنسان تجاه دينه، ومن ذلك أن المشروع لا يلزم أن يكون فرديًّا، فيمكن أن يكون ضمن مجموعة، ولا يلزم أن يكون صاحبه رئيسًا له، بل المقصد أن يكون المشروع نافعًا سواء كان فرديًّا أو جماعيًّا، وسواء أكان الإنسان رأسًا في المشروع أو لا.

المشروع الذاتي:

يرد سؤال من بعض الشباب: هل يمكن أن يكون إصلاح الإنسان ذاته هو مشروعه؟ وهل يمكن أن يكون برُّ الإنسان بوالديه هو مشروعه؟ وهل يمكن أن تكون رعاية الرجل أسرته وأولاده هي مشروعه؟ وهل يعد هذا الإنسان ناجحًا أو لا؟

من الجيد أن يبحث الإنسان عن النجاح والفلاح، وكل مشروع فيه خير للآخرين فلا شك أنه يصح أن يكون مشروعًا، لكن علىٰ الإنسان ألا يبحث عن

النجاح علىٰ حساب الفلاح، بل لا بد أن يُقدِّم الفلاح علىٰ النجاح، فالفلاح هو تحقيق ما يريده الله تعالىٰ منك، والنجاح تحقيق ما يريده الإنسان.

ومن المهم أن يراجع الإنسان مشاريعه، ويحدد أولوياته حتىٰ لا يضيق صدره، ولا يتطلع لما عند الآخرين، حتىٰ لا يشعر بضآلة مشروعه، بل الصحيح أن اهتمام الإنسان بأسرته هو أعظم مشروع يمكن للإنسان أن يحافظ عليه، ومن الجميل تصحيح مفهوم المشاريع التي يتفرغ الإنسان لها بمعرفة محددات هذا المشروع، ودراسة المؤشرات التي تجعله مشروعًا ناجحًا، فليس كل الناس لديه القدرة علىٰ التفرغ لنفسه أو لأهله، إلا إذا رأىٰ من نفسه أنه مشروع يستحق التفرغ له، ودعمه، وكذلك تحويل أسرته إلىٰ شركة عائلية أو منتدىٰ تربوي ومهاري لتعدد أبنائهم ومهاراتهم وتنوع تخصصاتهم. أما المشاريع الأخرىٰ فربما يفشل فيها الإنسان ولا يحقق شيئًا، وبذلك ينبغي أن نُعيد النظر في ربط قيمة الناس بإحداث مشاريع كبرىٰ.

ومن الإشكالات أن كثيرًا من الناس يتخيل أن المشروع أو الثغر يعني أن يكون عنده شركة، أو مؤسسة، أو إنتاج، أو عنده حضور جماهيري، وهذا تصور غير صحيح؛ بل قد يكون مشروع الشاب سهلًا؛ كأن يقوم بخدمة والديه، أو الإحسان إلىٰ الناس ... فالمشاريع كثيرة جدًّا لا حصر لها، وليس لها أسلوب واحد، أو شكل واحد، والمشكلة في فهم الشباب لمعنىٰ المشروع.

إن المقصود بالمشروع: أن يكون لك دور أو مهمة تقوم بها للحصول علىٰ الأجر؛ حتىٰ تنفع نفسك بها في الآخرة، أيًّا كان هذا الأسلوب، فقد يكون فرديًّا أو ثنائيًّا أو جماعيًّا أو مؤسسيًا، وقد يكون دور الشاب في مشروعه ثانويًّا، وربما يكون أجره أعظم ممن هو في صدارة المشروع، وفي الحديث: «... **طُوبَىٰ لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ،**

كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[١].

كما يمكن للإنسان الذي يؤدي فرائضه، ويقوم بأعماله اليسيرة النافعة أن يعد ذلك نوعًا من المشاريع؛ كأن يكون مشروع الشخص هو أبناؤه، فيقوم بتربيتهم وتعليمهم كتاب الله تعالىٰ، بحيث يصبح كل واحد من أبنائه مشروعًا. فالمشاريع أشكالها مختلفة متنوعة، وقد يكون العمل صغيرًا تُكبِّره النية، ويُدخل صاحبه الجنة، وقد يكون العمل كبيرًا والنية تُصغِّره، ولا يضمن الإنسان قبوله، نسأل الله تعالىٰ أن يتقبل من الجميع.

ومن أشكال وأفكار المشاريع:

- كن مشروعًا.
- أو أسِّس مشروعًا.
- أو دلَّ علىٰ مشروع.
- أو ادعم مشروعًا
- أو دَعْ صاحب المشروع يعمل.

إن صاحب المشروع مثل سيارة الإسعاف، الكل يُفسح له الطريق؛ لأنهم يعرفون جديَّته، ويعرفون التزامه، وإن كان مشروعه صغيرًا، وقد ورد في الحديث: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[٢]. فقد لا يرىٰ الزارع الثمرة؛ لأن دوره هو الغرس، فكذلك صاحب المشروع دوره هو البذر، وليس دوره أن يرىٰ النتائج، بل المطلوب أن يستحضر الإنسان الآخرة في مشروعه، ويرجو ما عند الله ﷻ؛ لأن الهدف من المشروع هو أن تحقق الدور الذي خلق الله ﷻ الإنسان من أجله.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٨٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم (١٢٩٨١).

وليس مطلوبًا من صاحب المشروع أن يفعل ما ليس بوسعه، ولا ما ليس في طاقته، بل المطلوب منه أن يقوم بواجب الله عليه. وقد دلت الأحاديث علىٰ هذا المعنىٰ، ومن ذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»[1]. وفي الحديث الآخر: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ**»[2].

تعدد المشاريع:

توجد شخصيات -قد تكون قليلة- عندها قدرة علىٰ الجمع بين أكثر من مشروع، مثال ذلك: عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ كان يحج عامًا، ويغزو عامًا. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ له في التأليف، والإفتاء، وغيرهما من الأعمال التي كانت مشاريع مختلفة، وقد استطاع الجمع بينها.

لكن مع تعقيدات العصر، وتشتُّت الناس، وكثرة المشاريع علىٰ الشاب، وتنقله بينها قلت قدرة الإنسان علىٰ الجمع بين أكثر من مشروع، لكن لا مانع من أن يضرب الإنسان له بسهم في كل مشروع دون أن يؤثر علىٰ مشروعه الأساسي.

وقد يكون للإنسان مشروع، لكن هناك قضية أو حادثة أو أمر ألمَّ بالمسلمين ويحتاج من الشاب أن يتدخل بسرعة، فهنا عليه أن ينتقل من مشروع إلىٰ آخر؛ تحقيقًا للفائدة العامة. والأصل أن يُحدِّد الإنسان مشروعًا واحدًا يستقر علىٰ العمل فيه، وذلك لأن المشاركة في أكثر من مشروع يُسبِّب تشتُّتًا وعدم التركيز.

التكامل والتنافس:

يقصد بهذه النقطة: هل يجب أن يكون هناك تنافس بين أصحاب المشاريع أم تكامل؟ وهذه القضية مطروحة بين أصحاب المشاريع منذ القدم، ومن ذلك أنَّ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٥٢)، ومسلم رقم (١٩١٤).

(٢) رواه مسلم رقم (١٩٠٩).

عَبْدَ الله بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُمَرِيَّ العابد كَتَبَ إِلَىٰ الإمام مَالِكٍ يَحُضُّهُ عَلَىٰ الانْفِرَادِ وَالْعَمَلِ، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ: «إن اللهَ ﷻ قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجلٍ فُتِح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح اللهُ لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا علىٰ خير»[١].

إن المساحة تتسع الجميع، ويمكن للجميع أن يشارك، والأفضل أن يكون هناك تعاون ودعم وتنسيق وتكامل، حيث تقوىٰ هذه المشاريع، ولا يشعر الإنسان بالغربة أو الوحدة أو الوحشة في هذا الطريق.

من أمثلة المشاريع:

توجد مشاريع كثيرة للسلف والخلف يمكن الاطلاع عليها والاستفادة منها ومحاكاتها في فعل الخير، ومن ذلك:

كان أبو هريرة من أكثر الصحابة رواية للحديث، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ؟ قَالَ: «**ابْسُطْ رِدَاءَكَ**» فَبَسَطْتُهُ، قَالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**ضُمَّهُ**» فَضَمَمْتُهُ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ[٢]. وفي الحديث الآخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»[٣]. فهذا دليل علىٰ اهتمامه بهذا الفن.

---

(١) ابن عبد البر، التمهيد، ٢/ ١٨٥.

(٢) رواه البخاري رقم (١١٩).

(٣) رواه البخاري رقم (٩٩).

إن كل واحد من الصحابة كان له مشروعه، وله ثغره الذي يسدُّه، فتجد منهم مَنْ كان يقوم علىٰ الفقراء والمساكين، ومنهم مَنْ كان في القضاء، ومنهم مَنْ كان يعلم الناس العلم، ومنهم من كان يجاهد.

ثم مَنْ جاء بعدهم في القرون التالية، كابن خلدون وابن حجر وابن تيمية وغيرهم من أصحاب النَّفع العام للأمة.

ومن المعاصرين: ابن عثيمين الذي تفرغ للتدريس والتأليف، وبكر أبو زيد، وله مؤلفات متعددة، وقد دُعِي إلىٰ الحديث أكثر من مرة فرفض؛ لأنه كان يعرف أن قلمه أحسنَ من حديثه.

ولا ينبغي للإنسان أن يقارن نفسه بغيره كثيرًا؛ لأن هذه الفكرة تقتل كثيرًا من المواهب والطاقات، فقد يأتي شاب في بداية عمره ويقارن نفسه بشخص موهوب بالفطرة، أو يقارن نفسه بشخص في نهاياته، فلا تقارن بدايتك بنهاية الآخرين، فتعود علىٰ نفسك باللوم والعتاب.

هل توجد مشاريع جديدة؟

توجد ثغور كثيرة جدًّا، ومجالات وعلوم وفنون كلها بحاجة إلىٰ مَنْ يقوم بها، بل الثغور اليوم أكثر مما سبق، والحاجة إليها أعلىٰ، وكما قيل: كم ترك الأولُ للآخر؟! أي: تركوا مجالات كثيرة -سواء أكانت علمية أو دعوية أو تربوية-، ويستطيع الإنسان أن يخدم من خلالها دينه، ويُوظِّف هذه الأدوات والآلات في خدمة الدين بشكل أو بآخر، فالأفكار ملقاة علىٰ الطريق، لكن أين مَنْ يقوم بها؟!

إنَّ الله جل وعلا أعطىٰ الناس قدرات وإمكانات ومعارف كثيرة، ولديهم القدرة أن يقدموا أشياء كثيرة لهذا الدين من خلال تخصصاتهم، والله جل وعلا يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وكثير من الناس يُوظِّف

هاتين الآيتين في القعود وترك العمل، بينما تدل الآيتان علىٰ بذل الوسع، والحرص علىٰ العمل بقدر الاستطاعة؛ لذا يجب علىٰ كل واحد منا أن يتقي الله جل وعلا فيما أتاه من مواهب ومعارف وقدرات يستطيع أن يقدمها للآخرين، ولا يدخر وسعًا في خدمة هذا الدين.

وليعلم صاحب كل مشروع أن الدين ليس بحاجة إلىٰ أحد، بل الإنسان يعمل في مشروعه من أجل نفسه، والله جل وعلا أمر النبي ﷺ بالدعوة والبذل والعطاء، ثم قال له: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]. فعلىٰ صاحب المشروع أن يعلم أن مشروعه قد يكون سبب نجاته وفلاحه، وسبب البركة في العمر والمال والولد، وسببًا في دخوله الجنة، ففي الحديث: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَّلَهُ**». قِيلَ: وَمَا عَسَّلُهُ؟ قَالَ: «**يَفْتَحُ اللهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[1].

نسأل الله العظيم أن يتولانا برحمته، وأن يستعملنا ولا يستبدلنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراجع للاستزادة:

- ثاني لفة يمين، د. أمجد الجنباز.
- مشروع العمر التركيز، مشعل الفلاحي.
- ما هي ميزتك الوحيدة؟ ستيف أولشر.
- سلسلة كتب بشير الرشيدي عن الذات.

---

(١) رواه أحمد في مسنده رقم (١٧٧٨٤).

مقاطع مرئية:

- كيف يصبح ابنك صاحب مشروع؟ د. غسان صديقي.
- الشيء الوحيد، قناة علي وكتاب.
- مشروع العمر، بودكاست أفق، أحمد السيد.
- إشكاليات اختيار الثغر، د. أحمد عبد المنعم.

الفصل الخامس
سؤال البناء

سنتناول في هذا الفصل سؤالًا كبيرًا، وهو «سؤال البناء». فما المقصود بـ «البناء»؟

هذا السؤال من الأسئلة المتشعبة، وفيه تفاصيل فرعية، ولفهم هذه الكلمة أضرب مثالًا بشخص يريد أن يبني بيتًا، فيقوم بوضع اللبنات والبناء مباشرة دون تأسيس البيت، ثم يقوم بعد ذلك باستكمال عمليات الديكور والزخرفة، حتىٰ يصير البيت جميلًا، لكن بلا أساس قوي، وعند مرور أي عاصفة أو هزة قد يسقط هذا البناء؛ بينما يريد شخص آخر أن يبني بيتًا، فيستشير مهندسًا، ويرسم المخطط المعماري، ويحسب الأحمال المناسبة لكل دور، ثم يبني القواعد؛ حتىٰ يبني بيتًا قويًّا، ثم يكمل أعمال الزخرفة بعد ذلك.

هذا مَثَلُ الشاب الذي يريد بناء ثقافيًّا ومعرفيًّا سريعًا، فبعض الشباب يقول: أريد أن أصبح طالب علم، أو مثقفًا، أو مفكرًا، أو مُربِّيًا، ونمط الحياة يدعو إلىٰ السرعة والاستعجال. فهذا مثل بناء البيت الأول، أما مَثَلَ الشاب الذي يبني نفسه علىٰ مهل فهو مثل البيت الثاني، يستغرق وقتًا أطول لكنه أرسخ، وبعد فترة يسبق الأول، والمعرفة الحقيقية بطبيعتها تحتاج إلىٰ الزمن والوقت، وتراكم المعلومات وتكوّن المعارف وامتلاك الملكات.

إذن يُقصَد بالبناء: الجهد المنظم والمرتب والمحدد بوقت ومقدار الذي يبذله الشاب للحصول علىٰ المعرفة والثقافة من خلال منهجية متدرجة متكاملة.

لماذا نتحدث عن البناء؟

نتحدث عن البناء لعوامل عديدة، منها:

- حاجة الشاب أن يعبد الله علىٰ بصيرة وعلم.
- كثرة الفتن والموجات التي تشكك الناس في دينهم ومعارفهم.
- أنه زاد في الطريق وسبيل للثبات علىٰ الصراط المستقيم.
- الأجور المترتبة علىٰ فضل العلم والتعلم.
- توسيع الأفق والتأثير وزيادة القدرات والمعارف.
- استثمار الوقت بما يعود علىٰ الشاب بالنفع.

سِن التعلم:

يسأل بعض الشباب: هل أحتاج إلىٰ التعلُّم بعد انتهائي من دراستي الجامعية؟ وهل للتعلُّم سن يتوقف عنده الإنسان؟ ومتىٰ أطوي كراسات المعرفة وأتوقف عن تلقي العلم؟

يوجد أناس يكتفون بالدراسة النظامية، ولا يستمرون في عملية الطلب والتعلم واكتساب المعرفة، وهذا هدف عدد من الناس، لكن الدراسة النظامية والجامعية ليست كافية لأصحاب الطموح والتطلعات المستقبلية، فقد تكون الدراسة كافية لتؤهل الشاب للقراءة والكتابة والحساب، وبعض المبادئ الأولية في الوظيفة أو التخصص أو المعرفة والعلم؛ لكن هناك قضايا واجب علىٰ الناس شرعًا أن يتعلموها، مثل: علم ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالصلاة، والحج، والزكاة وغيرها-، فهذه الأحكام يجب علىٰ الإنسان أن يتعلمها خارج قاعات الدراسة.

إن الشاب الذي يرغب أن يكون لديه تأثير في الآخرين، عليه أن يعمل علىٰ بناء نفسه معرفيًا، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يُوسُف: ١٠٨]. فهو يدعو علىٰ بصيرة وحجة وبيِّنة، وفي الوقت نفسه يسلك هذا الطريق علىٰ بيِّنة وحجة وبرهان.

وبناء علىٰ ذلك ينبغي علىٰ الإنسان أن يتعلم بشكل ذاتي، والتعليم بشكل ذاتي لا يعني أنه فردي، فقد يتعلم مع مجموعة، وقد يكون مع أستاذ، وقد يكون عن بُعد، لكن لديه تعلُّم ذاتي وبناء معرفي مستمر يكمل جوانب النقص في شخصيته، ويكتشف علومًا جديدة، فالبناء المعرفي له مسارات متعددة.

مجالات البناء المعرفي:

مجالات البناء المعرفي تختلف من شخص إلىٰ آخر، لكن هناك أشياء أساسية وأشياء ثانوية، ومن هذه المجالات:

* **المجال الشرعي**: وهو أن يتعلم الشاب العلوم الشرعية، وداخل هذا المجال توجد مستويات؛ فهناك بعض الأحكام الشرعية التي تجب علىٰ جميع الناس، وتوجد بعض الأحكام فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الآخرين، وهناك ما هو فضل وزيادة، ويختلف باختلاف الناس وهممهم ورغباتهم.

* **المجالات الفكرية والثقافية**: وهو أن يتعلم الشاب القضايا والمواضيع المتعلقة بالأفكار المعاصرة، كأن يهتم الفرد بالأحداث والمستجدات المعاصرة التي تحدث من حوله كل يوم، ولها تأثير علىٰ دينه ودنياه.

* **المجالات التربوية**: هو أن يتعلم الشاب كل ما يعينه علىٰ تربية نفسه وتهذيب سلوكه، وكذلك من هم تحت يده، أو له عليه سلطة وتأثير، أو عمل علىٰ تربية أبنائه، وتربية المجتمع من حوله.

* **المجال الإيماني**: أن يتعلم الشباب قضايا الإيمان والتزكية ومعرفة الله وتعظيمه ومحبته والخوف منه، ويسعىٰ لزيادة الإيمان في نفسه.

* **المجالات المهارية**: أن يكتسب الشاب بعض المهارات التي تزيد من تكامل شخصيته مثل: التفكير، وإدارة وقته، وإدارة أعماله وزيادة إنتاجيته وغير ذلك.

* ومن المجالات أيضًا: الجانب النفسي، والجانب الاجتماعي، لكن سأركز في هذا الفصل علىٰ ثلاثة جوانب، وهي: (الجانب الشرعي، والجانب الفكري، والجانب التربوي)، وسأشير إلىٰ بعض النقاط التي ينبغي الاهتمام بها في كل مجال من هذه المجالات.

وسائل بناء المجالات:

سبق أن مجالات البناء متعددة، منها: البناء الشرعي، والبناء الفكري، والبناء التربوي، فما الوسائل المناسبة لكل بناء؟

هناك وسائل متعددة ومتنوعة، وتختلف قدرات كل شخص في تحمُّل الوسيلة والأداة، ومن أهم الوسائل التي يمكن أن تكون مصدرًا للمعرفة القراءة، فهي مصدر أساسي -وسيأتي الحديث عنها لاحقًا- فهل هي المصدر الوحيد؟

إن القراءة مهمة، وجاء الأمر بها في نصوص الوحي، وهي ليست الوسيلة الوحيدة في البناء، لكنها تُشكِّل نسبة كبيرة من عملية البناء، ومن الوسائل والأدوات التي تعين علىٰ البناء: الاستماع، والمشاهدة، والزيارة، والجلوس مع الخبراء والحكماء، وتحليل التجارب والأفكار، والبحث والتنقيب، والممارسة العملية . . . وغير ذلك. حيث تختلف الشخصيات في التعلم، فهناك شخصية تتعلم من اللقاءات والزيارات، وهناك شخصية تتعلم من الممارسة العملية أكثر من تعلُّمها من القراءة، وهذا لا يعني إغفال القراءة، بل هي مصدر أساسي في التعلم والمعرفة.

إن الشاب ينبغي عليه أن يعوِّد نفسه علىٰ القراءة، ويكتسب هذه العادة؛ لأنها أم العادات وهي عادة مهمة ومؤثرة في غيرها، وعليه -مع استمراره في القراءة-

أن يبحث عن وسائل التعلُّم الأخرىٰ التي يمكن أن يكتسب بها المعارف والأفكار.

والشاب الذي لا يقرأ ولا يطالع الكتب فلا يظن أنه هشّ، بل يمكن أن يكمل هذا النقص بجوانب أخرىٰ؛ إذ إن منابر التعلُّم لا يمكن أن نحصرها في القراءة، بل ثمَّت وسائل أخرىٰ قد تكون أكثر غرسًا في نفس الإنسان، وتسهم أكثر في بنائه.

البناء من خلال الاستماع:

يمكن للشاب أن يبني نفسه من خلال استغلال مهارة الاستماع، كالاستماع إلىٰ البودكاست، وغيره من الأدوات الصوتية المختلفة، واليوم هناك توجه قوي نحو المحتوىٰ الصوتي، ولكن عليه أن يختار ما يسمع بعناية، وبعض الناس يُفرِّقون بين السماع والاستماع، فبعضهم يقول: السماع هو أن تسمع كلامًا دون تركيز؛ لأن السامع مشغول بغير ما يسمع، وهذا لن يعطي الشاب الفائدة المرجوة؛ أما الاستماع فهو أن يُقبِل المستمع بكل قلبه وعقله علىٰ المادة التي يسمعها ليستوعبها.

وقد انتشرت ثقافة البودكاست كثيرًا، وهي مفيدة بلا شك، وأفادت كثيرًا من الناس، لكن فيها جوانب خطورة أو محاذير في الجانب التعليمي من ناحية أخرىٰ، منها: أن تكون المادة المقدمة غير مفيدة، فيظن الإنسان أنه يبني نفسه معرفيًّا، لكنه في الحقيقة لا يبني نفسه، بل يضيع وقته؛ لأن المادة التي يستمع إليها غير مفيدة -كالاستماع إلىٰ قصص السفر، أو الرحلات، أو غيرهما-. وهناك أناس يُسمَّوْن «**السمعيين**»، أي إنهم يحبون الاستماع أكثر من القراءة، لكن ينبغي عليهم أيضًا أن يجاهدوا أنفسهم علىٰ القراءة، ولو كان قراءة شيء يسير، فالإنسان يستطيع أن يتعود علىٰ القراءة من خلال الممارسة والتدريب.

إن البناء المنهجي الرصين هو الذي يجعل الشاب يستوعب الحقائق من حوله، ويحكم عليها، ويبني تصورات، وهذا لا يحصل بسهولة، بل يحتاج إلىٰ تركيز وحرص علىٰ المادة العلمية المفيدة النافعة.

أهمية الخبرات في البناء:

الخبرات العملية مهمة -سواء أكانت التجربة أو الممارسة العملية-، وتعطي الشاب جانبًا معرفيًّا كبيرًا، وهناك أناس يتعلمون بهذه الطريقة أكثر من غيرها، ويُسمَّىٰ «التدريب علىٰ رأس العمل»، فالشاب يعمل تحت إشراف شخص يعلمه، أو يتعلم الشاب نفسه من خلال أخطائه، لكن هذا وحده مشكل؛ لأنه قد يُطوِّل عليه طريق البناء، فإذا جمع بين الجانب المعرفي وجانب الممارسة فهنا تكون الخبرة أعلىٰ، والمعرفة أسهل، وتكون قراراته وأحكامه مبنية علىٰ جوانب نظرية وعملية مجربة.

أثر المصاحبة والتتلمُذ في البناء:

التتلمُذ ومصاحبة الخبراء من وسائل البناء، وهي أدوات مهمة؛ فالخبير يختصر الطريق، ويعطي الشاب معلومة لا يجدها في الكتب، وهي مفيدة خاصة للأشخاص الذين يحبون التعلُّم المباشر من أصحاب الخبرات والتجارب العملية، ويقولون: ما لم تشبع تلمذة فلن تكون أستاذ.

ولكن التلمذة والاتصال بالخبير له شروط وآداب يحتاج أن يتعلمها الشاب ولا يتكل علىٰ الأستاذ دون بذل جهد في تعلم الأساسيات، فالمقصود من الموجه الشخصي أن يضع الأطر التي ينطلق المتعلم منها ذاتيًّا حتىٰ يتركه وقد اطمأن عليه وعلىٰ قدراته في التطبيق والتنمية الذاتية.

وأحد أساتذتي الكبار قال لي من يتصل بالخبير يحتاج أن يكون قطع شوطًا لا بأس به في العلم الذي يريد التعلم فيه، حتىٰ يختصر علىٰ الخبير ويستطيع إفادته، ويكون لدىٰ المتعلم أسئلة حقيقة تفيده وتثري الخبير كذلك، أما إذا أراد أن يتعلم كل شيء في العلم فهو يحتاج إلىٰ معلم!

وقد طربت لهذا التفريق، وهي فائدة اكتسبتها في أحد لقاءات التعلم أثناء جلستي مع أحد أساتذتي الكرام.

وعلىٰ ذلك يمكن أن نفرق بين التلمذة علىٰ المعلم التي تحتاج فيها معرفة كل شيء ويأخذ بيدك من البداية، أما الاتصال بالخبير فتكون بعد أن قطعت شوطًا ولديك أسئلة تحتاج إلىٰ إجابته أو إشكالات تحتاج إلىٰ حلها.

أهمية البحث في البناء:

البحث بطرقه المختلفة من الأدوات المهمة في التعلم والبناء، مثل: البحث في محركات البحث الإلكترونية، أو البحث في الكتب، أو البحث في المقالات والبحوث العلمية، فهذا نوع من أنواع التعلُّم الذي يرسخ في ذهن الشاب.

عوائق البناء المعرفي:

عوائق البناء المعرفي متعددة، منها: عوائق داخلية في الإنسان، وعوائق خارجية، وعوائق نفسية، وعوائق اجتماعية، ومِن أبرز العوائق التي تمرُّ بطالب العلم أو المعرفة:

- **الكسل والعجز**: فقد كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ**»[(١)]. وحري بالإنسان أن يردد هذا الدعاء باستمرار حتىٰ يعينه الله تعالىٰ علىٰ الحرص.

وكان بعض الصالحين يقول: (اللهم لا تمنعنا عن العلم بمانع)؛ فالإنسان لا يودُّ أن يفارق العلم، سواءً قراءة أو تعلُّمًا أو حضورًا أو غيره، فالعجز والكسل من أكبر المعيقات التي قد تواجه الشباب والفتيات.

ولو تأملنا هذا الدعاء النبوي تجد أن الكسل داخلي نفسي، فيوجد ذبول في الهمة، وتراخٍ في الدوافع، وأما العجز فهو شيء مهاري بدنيّ، ومن المهم أن نعرف أن هذا العائق الداخلي من العوائق الكبيرة، وهو أن يكسل الشاب عن البدء في الطلب، أو يكسل عن الاستمرار فيه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٨٢٣)، ومسلم رقم (٢٧٠٦).

وأحيانًا يعجز الشاب بطريقة أخرىٰ، وهي أن يحاول عملية البناء بطريقة خاطئة، فيصل إلىٰ نتائج خاطئة، وبالتالي يتوقف، وهذا عجز عن الوصول إلىٰ الطريق الصحيح.

وأحيانًا يقرأ الشاب كتابًا أكبر من مستواه الذهني أو الفكري، فيشعر بالعجز أمام هذا النص، وأنه لا يستطيع أن يفهمه، أو يقرأ مسألة من مسائل الفقه أو أصول الفقه المُعقَّدة فلا يفهمها، فهذا نوع من العجز؛ لكن الكسل أن لا يفتح الشاب الكتاب ولا يحاول القراءة والفهم.

- **ضعف الإرادة**: إن نمط الحياة الآن يُرسِّخ قيمتين لدىٰ الإنسان، هما: اللذة، والمتعة. فهاتان القيمتان تضعفان إرادة الإنسان، ومن خلال لقائي بعدد من الشباب وجدت هذه المشكلة دائمة ومستمرة وكثيرة عند الشباب، حيث يشكو الشاب ضعف الإرادة وعدم قدرته علىٰ المواصلة، وهذه من القضايا التي أضعفها نمط الحياة، وأضعفها عدم الاستعانة بالله تعالىٰ، وطلب العون منه؛ فضعف الإرادة من القضايا التي تُضعِف طلب العلم والمعرفة والثقافة.

- **الإفراط في العطاء**: وهو الإفراط في العطاء المؤدي إلىٰ التشتُّت، كأن يعطي الإنسان العلم والثقافة دون أن يتعلم، فهو بحاجة إلىٰ تعبئة مستمرة من العلم والمعرفة والثقافة حتىٰ يستطيع أن يعطِي، وأن يستمر في عملية العطاء؛ فلو أن مربيًا أو طالب علم حرص علىٰ العطاء دائمًا دون طلب العلم والمعرفة فإن ما لديه من معلومات ومعارف سينفد، ويشعر بعدها بالعجز والضعف؛ لأن الإفراط في العطاء قد يكون عائقًا للإنسان عن العلم.

وأحيانًا يكون عدم العطاء حيلة شيطانية، فبعض الناس يقول: لا أستطيع العطاء أبدًا، وهذا إشكال في القائل نفسه، فيتعذر بحجج واهية؛ كاشتغاله في قضاء حوائج الآخرين، أو عدم وجود وقت فراغ، أو غير ذلك من الحيل التي تمنع الإنسان من العطاء.

وهذه ليست دعوة إلىٰ ترك العطاء بقدر ما هي دعوة لأن يكون العطاء مشروطًا بلحظات للتوقُّف والتزوُّد؛ إذ بالإمكان أن يسير الشاب في خطين متوازيين، وقد يزيد العطاء في أوقات، وقد يزيد البناء في أوقات أخرىٰ، فالمعلم يستطيع أن يُدرِّس في الفترة المسائية، ويستطيع أن يتزود في الفترة الصباحية، أو العكس.

وهناك أوقات يزيد فيها البناء، وهناك أوقات يزيد فيها العطاء، لكن في البدايات لا بد أن يكون البناء أكبر، أو العلاقة متوازية علىٰ الأقل، حتىٰ لا يمضي بالإنسان العمر، وبعد ذلك يندم علىٰ ماضيه. ومن اللفتات المهمة للشاب المقبل علىٰ طلب العلم والبناء المعرفي أن يقرأ كتاب «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر الأندلسي، ففيه إشارات إلىٰ قضايا بناء المعرفة التي تطرح في هذا الزمن، وما أجمل أن يقرأها بنفَسِ السلف وأهل العلم في القرون السالفة.

روىٰ البخاري تعليقًا عن عمر ﷺ: «تفقهوا قبل أن تُسوَّدوا». ثم علَّق البخاري علىٰ هذه المقولة فقال: وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم[1]. أي: حتىٰ لو صار عندك منصب، أو انشغلت فلا يصح أن تتوقف عن التعلُّم؛ لأن الإنسان إذا كبر في العمر وانشغل بمسؤوليات، أو أصبح عنده منصب فربما يشغله ذلك عن التعلُّم، أو ربما تمنع نظرةُ الإنسان لذاته من طلب العلم، كأن يكون صاحب منصب أو شهرة.

- **العوائق الاجتماعية**: ومنها الارتباطات الأسرية والمناسبات الاجتماعية، والخروج مع الأصدقاء للتنزه، ولا أدعو الشاب أن يترك هذه الاجتماعيات، لكن أدعوه إلىٰ تقنينها وضبطها؛ فالإفراط في هذه الأشياء سيؤثر علىٰ بناء الشاب نفسه علميًّا ومعرفيًّا.

---

(١) صحيح البخاري، ١/ ٢٥.

وقد كثُرَت الصوارف اليوم غير المناسبات الاجتماعية، كوسائل التواصل الاجتماعي، فهي من أكبر العوائق عند الشباب، وبعضهم أصبح يشعر بسلوك قهري تجاهها، وأنه يضيع الوقت في تصفُّحها، وهذا من العوائق التي تصيب الشباب.

- **النشأة والبيئة المحيطة**: حيث يُدعَىٰ بعض الشباب إلىٰ ترك العلم والطلب والثقافة، وهذا موجود في بعض الأسر، حيث يتعجب الوالدان من اشتغال ابنهما بالكتب وشغفه بها وبشرائها وحضور المنتديات العلمية والثقافية، فيكون ذلك من الصوارف عن البناء المعرفي.

كل ما سبق هو القاعدة التي ينبغي أن يسير عليها الشاب ويلتزم بها، ولكن لكل قاعدة استثناءات، فقد يكون لدىٰ الشخص بعض الظروف التي تمنعه من السير وفق هذه القاعدة، والإنسان الصادق الجاد يبحث عن الوقت الكافي للبناء مهما كانت الظروف، فهناك أناس يأخذون من أوقات نومهم، وهناك أناس يأخذون من أوقات متعتهم، وهناك أناس يأخذون من أوقات مواقع التواصل الاجتماعي . . . فمَنْ له رغبة في التعلُّم والمعرفة سيجد وقتًا، لكن هذا يحتاج إلىٰ تضحية ببعض المتع واللذات.

يقول الشيخ موسىٰ بن راشد العازمي صاحب كتاب «اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون»: ألَّفت هذا الكتاب ما بين الأذان والإقامة!

فكثير من الناس يظنُّ أن الوقت بين الأذان والإقامة قصير، ولا يمكن أن يصنع فيه شيئًا، ومع ذلك ألَّفَ الشيخُ الكتابَ في هذا الوقت؛ وذلك لأن البناء يكون لَبِنةً لَبِنةً، وعملية البناء ليست سباقًا مع الآخرين، بل المطلوب هو الاستمرار في البناء ولو كان قليلًا.

هل الناس في البناء أنواع؟

يرد هنا سؤال: هل الناس يتشابهون في طلب البرامج البنائية، أم أنهم مختلفون ولكل منهم برنامجه الخاص به؟

الناس مختلفون في البناء المعرفي، وكذا في أنواع البناء التي نحتاجها اليوم، ومن ذلك:

- **أصحاب التخصص الشرعي**: يوجد أناس مهتمون بالعلم الشرعي، لكنهم يغفلون الجانب الثقافي المعاصر، وفهم الحياة اليوم بتعقيداتها، والاطلاع علىٰ العلوم الإنسانية بفروعها، وهذا يؤثر عليهم في التواصل مع المجتمع والتأثير فيه، وفهم حاجات الناس وإشكالاتهم، وهو ما يمكن أن يُسمىٰ «الانكفاء علىٰ التخصُّص».

- **المثقفون والمفكرون**: يوجد نوع آخر مهتم بالثقافة عمومًا بفروعها، أو بالأفكار الحادثة في واقعنا المعاصر، ويُهمل التأصيل الشرعي، ومعرفة ما في التراث الإسلامي.

- **الباحثون عن العلم والثقافة**: وهنا يحاول الشاب أن يتعلم، سواء كان علمًا شرعيًّا أو ثقافيًّا وفكريًّا، وهذا يجتهد ويصيب ويخطئ، وقد يصل، وقد لا يصل، وهذا يحتاج أن يسير في الخطوات المنهجية التي تعينه علىٰ الوصول لمراده بشكل جيد، والإشكال في هذه الفئة أنهم يقلدون أشخاصًا مشهورين ولهم تأثير، وهذا الفئة تحتاج إلىٰ معرفة المجال المناسب لها، وذلك من خلال الأستاذ أو المرشد أو العالم الذي يأخذ بيده في هذا الطريق.

- **المتفرجون والمستمعون**: وهنا يكون الشاب متفرجًا أو مستمعًا، وهذا ينال خيرًا وأجرًا، والإنسان عليه أن يكون عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، وإن لم يكن كذلك فليكفَّ شرَّه عن العلماء والمتعلمين والمستمعين.

والإشكال في الفئتين الأولىٰ والثانية أن طالب العلم الشرعي بحاجة إلىٰ ثقافة معاصرة، وإلىٰ أن يفهم واقعه بشكل جيد، وإلىٰ أن يطلع علىٰ هذه العلوم، وإلىٰ البحث عن كيفية استخدامها في خدمة الدين والمجتمع.

وإشكال المثقف أو المفكر أنه يقرأ الأفكار والنظريات الغربية دون معيار يحتكم إليه فيها، فتجد أن هذه الأفكار تبتلعه وهو لا يشعر؛ لأنه اطلع علىٰ هذه الأفكار دون فهم مرجعيته وتراثه، فكيف يتجه إلىٰ فهم أفكار أخرىٰ لأصحاب أغراض سيئة، أو لهم منطلقات تخالف ما يعتقده!

هذان النموذجان موجودان في الواقع، والذي نحتاجه هو طالب العلم المثقف، وهذا النموذج ليس سهلًا؛ إذ إنه يجمع بين فنَّينِ أو مجالين كبيرين، وهذا يحتاج إلىٰ شخص مجتهد حريص.

إن المعارف كثيرة هذه الأيام، والشاب بحاجة إلىٰ أن يعرف: مَنْ هو؟ وماذا يريد؟ وكيف سيصل إلىٰ هدفه؟ وبدون معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة يضيع الشاب ويتشتت؛ لذلك سأبين في الصفحات التالية ثلاثة أقسام من أقسام البناء، وهي (البناء الشرعي والبناء الفكري والبناء التربوي)، وفيما يلي تفصيل ذلك:

البناء الشرعي:

البناء الشرعي ليس عملية عشوائية بل هو عملية منظمة مدروسة، ويجب أن يسير وفق خطوات واضحة، وله طرائق وأساليب في تراثنا الإسلامي ومن ذلك:

أولًا: المنهجية:

أي لا بد من وجود منهجية صحيحة في البناء، لكن الواقع أن كثيرًا من الشباب يتشتَّتون، وينتظرون الجديد من الكتب والمجلات وغيرها، فأصبحوا علىٰ أُهبة الاستعداد، ويطالعون الدراسات المتخصصة والمعاصرة دون فهم كتب السابقين، وابن رجب له رسالة جميلة اسمها (فضل علم السلف علىٰ الخلف).

وهذا لا يعني أن يهتم الشاب بكتب المتقدمين ولا يفهم كتب المعاصرين، بل المقصود هو التدرج المنهجي، والتوازن بين القراءة في كتب المتقدمين وكتب المتأخرين[1].

ومن الإشارات التي أشير إليها في منهجية الطلب عدم التفريط في الحفظ، فالحفظ مهم لكل شخص يريد أن يتعلم العلم الشرعي، خاصة مَنْ كان في بداياته، ولا أعرف أحدًا في كبره ندم علىٰ شيء في صغره إلا علىٰ ترك الحفظ، وهناك كثير كتبوا عن ذلك.

يقول أحد المشايخ: لم يبقَ معي إلا ما تعلمته بين سن الخامسة عشر وسن الخامسة والعشرين.

وأول ما يبدأ به الشاب حفظ كتاب الله جل وعلا، وسنة نبيه ﷺ؛ لأن السلف كان إذا حضر أحدهم في مجلسهم لطلب العلم يسألونه: هل تحفظ القرآن أم لا؟ فإذا لم يكن حافظًا أخرجوه من المجلس، قالوا: احفظ القرآن ثم اطلب العلم. وهذا ثابت عن كثير من السلف؛ لأن القرآن الكريم هو أصل الأصول، وبناء عليه ينبغي علىٰ الشاب البدء بذلك، والحرص عليه مهما كلفه ذلك من وقت وجهد.

وحفظ القرآن سهل علىٰ مَنْ يسَّره الله عليه، فالله جل وعلا قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وهو صعب علىٰ مَنِ استثقله، ومَنْ

---

(١) بعض الشباب من غير المتخصصين في العلوم الشرعية يسألون: ما معنىٰ متون؟ وما معنىٰ سلف؟ وما معنىٰ المتقدمين؟ وما معنىٰ المعاصرين؟

- **يقصد بالسلف**: القرون الثلاثة المفضلة منذ عصر النبي ﷺ ومن بعده، ففي الحديث: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الذين يلونهم**». وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين. وعلىٰ الشاب أن يتأسس علىٰ كتب السلف والمتقدمين، مثل الإمام الشافعي والإمام أحمد، وغيرهما.

- **يقصد بالمعاصرين**: العلماء في المئة سنة الأخيرة، أو المئتي سنة، وإن كان بعضهم يزيد.

- **يقصد بالمتن**: كتاب مختصر يُوضَع فيه أساس العلم من العلوم في عبارات مسبوكة ومحبوكة من أجل أن يُسهِّل عليه حفظ هذا العلم. ويمكن القول: إن المتون هي اختصارات العلوم.

لديه صوارف، ومَنْ هو مشغول بكل شيء إلا القرآن، إذ القرآن يحتاج إلىٰ مجاهدة وتفرُّغ.

وعلىٰ الأقل ينبغي علىٰ الشاب أن يحفظ بعض سور القرآن، وألا يكون خلوًا منه، فالقرآن ذاته علم، قال الله جل وعلا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفي الفصل السابق وضحت «سؤال المشروع»، وبذلك يمكن أن يكون مشروع الشاب حفظ كتاب الله تعالىٰ، وينوي بذلك أن يرفع الجهل عن نفسه، وهذا يدعم فكرة الفصول الماضية عن «سؤال التديُّن» و«سؤال المشروع»، ومن عظم الشريعة الإسلامية أنها يكمل بعضها بعضًا، ولن تجد شريعة مثل هذه الشريعة في تكاملها وترابطها وواقعيتها، فحفظ القرآن نوع من العلم، والحفاظ علىٰ الهوية، والحفاظ علىٰ التديُّن، والبناء المعرفي. وألفاظ السلف والعلماء وعباراتهم متواترة في أنهم تمنوا قضاء وقتهم مع القرآن الكريم.

إن المشاريع كثيرة، فإذا تكالبت علىٰ الشاب فعليه بكتاب الله تعالىٰ، فالله جل وعلا يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال النبي ﷺ: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ . . .**»(١). فالقرآن حفاظ علىٰ الهوية، وهو سبيل إلىٰ التديُّن، وهو أعظم بناء معرفي يمكن أن يحصِّله الشاب.

وكذلك حفظ السنة النبوية من وسائل البناء التي يجب أن يحافظ عليها طالب العلم الشرعي، إذ القرآن الكريم والسنة النبوية مصدرا التشريع، وبدونهما لا يستطيع الإنسان المضي قدمًا في طلب العلم الشرعي.

وكذلك حفظ المتون الأساسية التي يمكن أن يتأسس عليها طالب العلم في العقيدة، والأصول، واللغة . . . إلخ.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٢١٨).

فنون العلم الشرعي: العلم الشرعي فيه فنون أساسية، هي: التوحيد والحديث والتفسير والفقه . . . وفيه علوم الآلة التي تستخدم لفهم هذه الفنون الأساسية، وهي: علوم القرآن، ومصطلح الحديث، وأصول الفقه، وعلوم اللغة . . .

ثانيًا: التدرج في الطلب:

لطلب العلم الشرعي ثلاث مراحل:

المرحلة الأولىٰ: التأسيس: ويشمل حفظ المتون التي تسهم في ضبط هذه المرحلة، فمثلًا: في علوم القرآن: أصول التفسير لابن عثيمين، أو: مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي العقيدة: الأصول الثلاثة، والقواعد الأربعة، ونواقض الإسلام وغيرها، وفي اللغة: الأجرومية . . . وهكذا[1].

المرحلة الثانية: التأصيل: بعد التأسيس ينتقل الشاب إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ وهو التأصيل، ففي العقيدة ينتقل إلىٰ العقيدة الطحاوية، وفي اللغة ينتقل إلىٰ قطر الندىٰ، أو غيرهما، وهكذا في كل علم من العلوم ينتقل إلىٰ مرحلة أخرىٰ.

المرحلة الثالثة: التخصص، وفيها يبدأ الشاب التخصص في فن من الفنون، مثل: العقيدة، أو الفقه، أو التفسير، أو الأصول . . . إلخ. وصاحب الفنون غالبًا ليست عنده القدرة والمَلكة علىٰ أن يكون مقنعًا مستدلًّا قادرًا علىٰ النقاش، لكن صاحب الفن يكون متخصصًا متمكنًا من مجاله.

وكذلك المجالات المعرفية والثقافية الأخرىٰ لها نفس المنهجية، من حيث: التأسيس، والتأصيل، والتخصص، لكن الكتب التي يدرسها أصحاب كل فنٍّ مختلفة.

---

(١) أشارت بعض الكتب إلىٰ منهجيات طلب العلم، ومن ذلك: كتاب (دليل العلوم الإسلامية) أو (السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية)، لأحمد سالم، وهو كتاب يضع منهجية كل خمس سنوات تقريبًا. وكتاب (معالم في طريق طلب العلم)، للدكتور/ عبد العزيز السدحان، وكتاب (ارتياض العلوم)، للشيخ مشاري الشثري.

ويشير ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن العلم في تعليمه وطرق إفادته له ثلاث مراحل:

اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلّمين إنّما يكون مفيدًا إذا كان علىٰ التّدرّج شيئا فشيئًا وقليلًا قليلًا، يلقىٰ عليه أوّلًا مسائل من كلّ باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب ويقرّب له في شرحها علىٰ سبيل الإجمال ويراعىٰ في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما (يورد عليه) حتّىٰ ينتهي إلىٰ آخر الفنّ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلاّ أنّها جزئيّة وضعيفة وغايتها أنّها (هيّأته) لفهم الفنّ وتحصيل مسائله .. ثمّ يرجع به إلىٰ الفنّ ثانية فيرفعه في التّلقين عن تلك الرّتبة إلىٰ أعلىٰ منها، ويستوفي الشّرح والبيان ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه إلىٰ أن ينتهي إلىٰ آخر الفنّ فتجود ملكته .. ثمّ يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصًا ولا منغلقًا إلاّ وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفنّ وقد استولىٰ علىٰ ملكته.

هذا وجه التّعليم المفيد، وهو كما رأيت إنّما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسّر عليه[1].

ثالثًا: صاحب الرحلة:

من المهم في طلب العلم الشرعي أن يكون للطالب صاحب يعينه ويساعده في هذا الطريق، ويشجعه إذا تكاسل، ويسابقه في الطلب والتحصيل. فوجود الأستاذ أو المرشد أو العالم أو طالب العلم الذي تستفتيه وتستشيره وتسأله إذا أشكل عليك شيء مهم، وهو يختصر الطريق علىٰ طالب العلم. أو يمكن القول: لا بد أن يكون لك معلم في رحلة المعرفة، وهو الخضر، وابحث عن (هارونِك)، أي: يكون لك أخ تشد به أزرك.

---

(١) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص٢١٣.

رابعًا: اقتناء الكتب:

ويقصد بذلك معرفة المصادر ومظانها، وأبرز الكتب في المجال الذي يريده طالب العلم. ويكون ذلك من خلال سؤال المعلم، والأقران، والقراءات الذاتية، وكذلك شراء الكتب ويبدأ طالب العلم والمعرفة تكوينَ مكتبة في بيته، يشتري فيها الكتب الأصول والمصادر الأصلية وما يستجد من كتب لا سيما في تخصصه أو الفنون التي يرغب فيها، وليس القصد الاستعراض بهذه الكتب وإنما أن تعينه علىٰ القراءة والبحث، وكذلك هي من العلم النافع الذي يبقىٰ.

البناء الفكري:

من المهم للشاب أن يهتم بالبناء الفكري؛ لفهم الواقع وتعقيداته وما فيه من أفكار، لكن الإشكال أن يُؤخَذ البناء الفكري كموجة يركبها الإنسان دون وعي، ولا يعرف: من أين يبدأ؟ وكيف ينتهي؟ ومن الكتب الجميلة في هذا الباب كتاب (كيف تكون مفكرًا متمردًا في تسع ساعات؟) للدكتور/ خالد الدريس، وتكلم فيه عن ثلاث قضايا:

أولًا: الإغراب في الألفاظ، وما يتعلق بها.

ثانيًا: النسبية، والتشكيك في كل شيء.

ثالثًا: المعارضة، ومخالفة الآخرين.

وهذه سهلة يحسنها كل أحد؛ ولذلك فالتأصيل الشرعي مهم قبل الدخول إلىٰ الأفكار والثقافات الأخرىٰ، ويجب أن يحاكم الشاب هذه الأفكار بناءً علىٰ معتقداته وقيمه، يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فنستطيع أن نجعل القرآن معيارًا وحكمًا علىٰ القضايا، فالعلم الشرعي يرفع مستوىٰ جهاز المناعة عند الإنسان. وإذا أراد الشاب أن يبني خطابًا ثقافيًّا خاصًّا به فعليه أن ينطلق من ثقافته وتراثه ومعاييره

الدينية، لا من معايير الآخر وفلسفاته؛ فالأفكار والمتعقدات والمنهجيات الغربية لا تنطلق من الكتاب والسُّنة، وهُمْ يقترحون الأسئلة الكبرىٰ عن الوجود، ويضعون نظريات، ثم ينطلقون منها في فهم الواقع وتطبيقاته، ثم محاولة فهم مصير الإنسان والكون. فإذا فهم الشاب أن هذه الأفكار والفلسفات والنظريات منطلقة من مرجعياتهم وثقافاتهم استطاع أن يتعامل معها بشكل جيد. ولذلك فمِن المهم قبل الدخول في مثل هذه المجالات أن يؤسس الشاب نفسه في العلوم الشرعية.

من القضايا في الجانب الفكري: معرفة المذاهب والأفكار المعاصرة، الفكر الغربي وأثره، معرفة تاريخ الأفكار، وكيفية نشأة هذه الفكرة، ومعرفة التحولات الكبرىٰ خلال القرون الماضية، ومن ذلك الحرب بين الكنيسة والعلم، وماذا حصل بينهما؛ لأنه بسبب علاقة الكنيسة بالعلم انفجرت كثير من العلوم وتغيرت ونشأت، فمعرفة الشاب هذا الحدث وتفاصيله سيفسر له كثيرًا من القضايا.

وأقصد أن يركز علىٰ الأحداث الكبرىٰ التي حدثت بسببها تأثيرات كبيرة وتغيرات، فهي تعينه علىٰ فهم ما يحصل اليوم.

ومن الأسئلة التي تُطرَح في الغرب: كيف نصل إلىٰ المعرفة؟ وكيف نصل إلىٰ الحقيقة؟ وما أدوات المعرفة ومصادرها؟

من أبرز الأدوات عندنا: الوحي، ثم العقل، ثم الحس، ومن الكتب التي كُتِبَت في هذا الموضوع كتاب (المعرفة في الإسلام)، وكتاب (نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين)، وغيرها من الكتب التي يمكن أن تفيد في هذا الجانب. ولا أقصد بهذا التزهيد في الفكر والثقافة، بل المقصد أن هناك قضايا كبرىٰ في الفكر والثقافة يجب أن تُؤخَذ بعين الاعتبار، وهي:

الأولىٰ: التأسيس الشرعي؛ حتىٰ يستطيع الشاب محاكمة فكر الآخر.

الثانية: معرفة تاريخ الأفكار التي تؤثر علىٰ هذه العلوم والفلسفات.

الثالثة: فهم الفلسفات التي انطلقت منها هذه العلوم.

الرابعة: إمكانية الاستفادة من الأدوات والمنهجيات، وبعض التطبيقات إن لم يكن فيها إشكال، أو ليس لها تبعات فلسفية، أو تعارض مصادرنا الإسلامية أو قيمنا أو كليتنا الكبرىٰ.

إن الإنسان ينبغي عليه أن يدخل إلىٰ القضايا الفكرية ويجعل قلبه كالزجاجة، لذلك لا تجعل قلبك كالإسفنجة يتشرب كل ما يراه؛ لأن الإنسان قد يضل بسبب مقولة قرأها وانبهر بها، أو بسبب عالم قرأ له، ولو رجع الشاب إلىٰ التراث الإسلامي لوجد مقولات عظيمة جدًّا، لكن بسبب التقصير في ذلك انبهر الشباب بمقولات الآخرين وأفكارهم.

البناء التربوي:

توجد أربع إشارات في هذا المجال، أشير إليها فيما يلي:

- **بدء الإنسان بنفسه في التربية**: علىٰ الشاب أن يبدأ بتهذيب نفسه، ومعرفة دواخلها وإشكالاتها، فأنت المُخاطَب الأول دائمًا بالخطاب، وإذا لم يكن لك واعظ من نفسك فأنت خاسر.

ومن القواعد المهمة في التربية: امتلئ لتفيض، ونسمع أحيانًا «زكاة العلم تبليغه»، فبعض الشباب لم يبلغ النصاب أصلًا حتىٰ يزكي، ولكن إذا بلغ الشاب النصاب في المعرفة، وتزكية النفس، فله أن ينشغل بعد ذلك بالآخر، وأكمل الرجال الكامل في نفسه المُكمِّل لغيره. لذلك اطلب العلم لنفسك، فإن حوائج الناس لا تنتهي؛ فلا تنطلق في تربية الآخر قبل تربية نفسك، بل ابدأ في الخطاب التربوي بنفسك، ثم ثَنِّ بالآخرين.

وأتعجب من كثير من الناس الذين يمارسون التربية، أو يقومون بأدوار تربوية رغم أنهم لا يتزودون في هذا الجانب علىٰ مستواهم الشخصي في بنائهم المعرفي والعقلي والشرعي، فكيف يعمل شاب في مجال التربية وهو لم يقرأ فيه كتابًا؟!

- **مصاحبة الخبراء والعارفين**: إن مصاحبة الشاب شخصًا سبقه في هذا الطريق ولديه خبرة أو معرفة، أو التواصل مع مستشار في هذا المجال مفيد جدًّا في هذا الباب، فالذي لا يشبع تلمذةً لا يصبح أستاذًا، ومَن لا يتعلم، ولا يثني ركبتيه أمام أستاذ لا يستطيع أن يكون أستاذًا.

إن التربية لا تنقضي بوقت، وليس لها سن محدد، ولا عمر معين، بل هي عملية مستمرة، فابدأ بنفسك بتربيتها، ثم صاحب خبيرًا يرشدك إلىٰ الصواب فيها.

- **الممارسة العملية**، ويقصد بذلك: الموازنة بين المعرفة وتربية النفس، وأن يكون للإنسان ممارسة عملية يستطيع من خلالها تفسير هذه النظريات التي قرأها، أو المعارف، أو العلوم، أو ما سمعه من خبير، فهذا الميدان يغذيه معرفيًّا ووجدانيًّا.

- **الموازنة بين الذاتية والجماعية**: فكثير من الناس ينغمس في مجموعة، ويتعلم منها، فإذا فقد مجموعته ضعف، أو قد ينعزل شخص ليربي نفسه، فتظهر عنده إشكالات سلوكية وأخلاقية؛ لأنه منعزل عن الناس ولا يستطيع التواصل معهم والاستماع إليهم.

يشير ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قضية الأنس بالله تعالىٰ والتعامل مع الناس، فيقول: «مَن فَقَدَ أنسه بالله بَين النَّاس ووجده فِي الْوحدَة فَهُوَ صَادِق ضَعِيف، وَمن وجده بَين النَّاس وفقده فِي الْخلْوَة فَهُوَ مَعْلُول، وَمَن فَقده بَين النَّاس وَفِي الْخلْوَة فَهُوَ ميت مطرود، وَمن وجده فِي الْخلْوَة وَفِي النَّاس فَهُوَ الْمُحب الصَّادِق الْقوي فِي حَاله، وَمن كَانَ فَتحه فِي الْخلْوَة لم يكن مزيده إِلَّا مِنْهَا، وَمن كَانَ فَتحه بَيت النَّاس ونصحهم وإرشادهم كَانَ مزيده مَعَهم، وَمن كَانَ فَتحه فِي وُقُوفه مَعَ مُرَاد الله حَيْثُ أَقَامَهُ، وَفِي أَي شَيْء اسْتَعْملهُ كَانَ مزيده فِي خلوته وَمَعَ النَّاس، فَأَشْرَف الْأَحْوَال أَن لَا تخْتَار لنَفسك حَالَة سوىٰ مَا يختاره لَك، ويقيمك فِيهِ»[1].

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ص٤٣.

كيف يمكن تعزيز حب التعلُّم والرغبة في البناء وإعادة الترميم:

من أبرز القضايا التي تعزز ذلك:

* استحضار الأجر المترتب علىٰ ذلك، وأن الإنسان في طلبه للعلم مأجور علىٰ كل وقت يقضيه في طلب العلم والمعرفة.

* معرفة أن النبي ﷺ لم يطلب الزيادة من شيء إلا من العلم، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

* إيجاد بيئة محيطة، سواء كانت بيئة افتراضية أو حضورية تساعد علىٰ التعلُّم والمعرفة.

* مصاحبة الأخيار الذين يُذكِّرون الشاب دائمًا بفضل العلم والمعرفة.

* معرفة فضل العلم من الدوافع التي تعزز في الإنسان الرغبة بالمعرفة، ومن ذلك: ما ذكره ابن القيم رحمه الله في (مفتاح دار السعادة) من أوجه كثيرة لفضل العلم، أن الله تعالىٰ لم يستشهد علىٰ وحدانيته إلا بالملائكة وأهل العلم.

مطالعة الكتب التي تحث علىٰ الطلب وتحفز عليه، ومنها علىٰ سبيل المثال:

* كتاب (علو الهمة)، لمحمد إسماعيل المقدم، وهو مهم في تحفيز الإنسان علىٰ علو الهمة كلما شعر بالفتور.

* كتاب (صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل)، لعبد الفتاح أبو غدة.

* كتاب (قيمة الزمن) له أيضًا، وفيه بيان لأهمية الزمن في طلب العلم وتحصيله.

وفيما يلي متقرحات بالمصادر والمراجع التي يمكن أن ينطلق منها الشاب في البناء:

من المصادر والمراجع في الجانب الشرعي:

* البناء العلمي، للدكتور/ راشد الزهراني.
* حلية طالب العلم، للشيخ/ بكر أبو زيد.
* خزائن الكتب، الدرر السنية.
* جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر.
* دليل العلوم الإسلامية، أو السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية، لأحمد سالم.
* معالم في طريق طلب العلم، للدكتور/ عبد العزيز السدحان.
* ارتياض العلوم، للشيخ/ مشاري الشثري.
* المرقاة، لسليمان العبودي.
* الهمة العالية، لمحمد الحمد.

من المصادر والمراجع في الجانب الفكري:

* إضاءات في البناء الفكري، للدكتور/ سلطان العميري.
* منهجية البناء الفكري، للدكتور/ محمد السعيدي.
* تكوين المفكر، للدكتور/ عبد الكريم بكّار.
* كيف تكون مفكرًا متمردًا في تسع ساعات؟ خالد الدريس.
* مقاطع مصورة بعنوان (التأسيس الشرعي للمثقف).
* تُدرِّس أكاديمية «نماء» دبلومات متخصصة في البناء الثقافي، والبناء الشرعي.
* لدىٰ مركز «تفسير» عدد من الفعاليات والبرامج الأكاديمية في هذا الجانب.

من المصادر والمراجع في الجانب التربوي:

❊ المذهبات في التربية، مثاني، التربية من جديد، الشيخ/ فايز الزهراني.

❊ التربية النبوية، تربية الشباب، د.محمد الدويش.

❊ مقال (البناء المعرفي للمربي)، للشيخ/ مشاري الشثري.

أسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعل هذا الكلام حجة لنا لا علينا.

الفصل السادس
سؤال القراءة

في هذا الفصل نتناول الإجابة عن «**سؤال القراءة**»، ومِن المعلوم أن القراءة أهم مصادر البناء المعرفي لدىٰ الإنسان، وقد كثُرَ الحديث عن القراءة، وأهميتها، وأساليبها، وطرقها وغير ذلك.

تحرير مصطلح القراءة:

القراءة لها تعريفات كثيرة، فمنهم مَنْ يُعرِّفها أنها: «عملية عقلية لتفسير الرموز التي يقرأها القارئ بعينيه لفهم المعاني، وربطها بخبرة الإنسان الشخصية». هذه هي القراءة باختصار؛ لذلك نسمع الناس يقولون: قراءة المشهد، يعني: كأنها فك رموز منظورة؛ لفهم حقيقة الموقف الحاصل.

أهمية القراءة:

إن أسباب حرص الشاب المسلم علىٰ القراءة متعددة، منها:

استجابة لأمر الله تعالىٰ، فالله جل وعلا قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. والقلم أحد أهم أدوات التعلُّم والمعرفة بشكل عام.

قال ابن عاشور في هذه الآية: الباء الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، لها ثلاثة أوجه:

أولها: أنها للمصاحبة، والثاني: أنها للاستعانة، والثالث بمعنىٰ: علىٰ أمر. كأن المعنىٰ: اقرأ مستعينًا باسم الله تعالىٰ، أو: اقرأ مستصحبًا اسم الله جل وعلا في قراءتك، أو: اقرأ علىٰ أمر ربك، فالقارئ لا يقرأ أي شيء يقابله، بل يجب أن تكون قراءته إحدىٰ هذه الثلاث. وهذا كله يعين القارئ علىٰ الاستفادة من قراءته استفادة كبرىٰ.

وفي هذه الآيات ورد الأمر بالقراءة مرتين، قيل: إن القراءة الأولىٰ هي القراءة للمكتوب المسطور، ولما أُنزِل من الوحي، والقراءة الثانية للكتاب المشهود، أو القراءة في المنظور، وهو الكون. والباحث لن يكون متخصصًا في فنٍّ من الفنون حتىٰ يجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون.

إن قراءة الكون يغفل عنها كثير من القُرَّاء، فإذا قلنا كلمة «القراءة» اتجهت العقول والأفكار إلىٰ قراءة الكتب، أو قراءة المسطور، ويُغفَل عن قراءة الكون، أو القراءة في تجارب الحياة بشكل عام.

إن نزول هذه الآيات في أول ما أنزل علىٰ النبي ﷺ دليل علىٰ أهمية القراءة للإنسان، وعلىٰ أن يكون له نصيب من القراءة بشكل مستمر، ولا ينبغي إهمال القراءة، حيث إنها كانت أول آيات أُنزِلت، وما أُنزِلت في أول ما نزل من الوحي إلا لأهميتها.

- **القراءة سبب نهضة الأمم**: إن القراءة سبب للنهضة وتقدُّم المجتمعات، ويُقاس تقدُّم الأمم بمعدلات القراءة لدىٰ أفرادها.

- **القراءة سبب في زيادة التأثير**: فالقراءة تؤثر في الإنسان وتعطيه قوة معرفية، وتمنحه مساحة للفهم والاستيعاب، وإدراك العلاقات بين الأشياء، كل هذا لا يدركه الإنسان إلا بالقراءة.

- **القراءة سبب في زيادة العلم والمعرفة**، فالإنسان إذا أراد أن يتخصص في فنٍّ من الفنون، أو يدرك علمًا من العلوم، فإن القراءة هي أحد الأدوات الرئيسة ليتعلم ويترقىٰ وينطلق من خلالها.

للكاتب ألبرتو مانغويل سلسلة من الكتب عن القراءة وتاريخها، منها (تاريخ القراءة)، و(المكتبة في الليل)، يقول هذا الكاتب: (إن كل مُولع بالكتب يقرأ من أجل أن يفسر الحياة)؛ فالقارئ يظن أن القراءة ستشرح له كثيرًا من القضايا التي يواجهها في حياته، وقد يكون هذا صحيحًا من جانب، لكن من جوانب أخرىٰ قد تفسر القراءة الأحداث تفسيرًا خاطئًا، بحسب خيال الكاتب، وطريقته، وأسلوبه في الكتابة.

وكذلك المازني الأديب المصري المعروف له قصة مع الكتب فقد باع كتبه، بعد أن قال أصبحت أنظر للحياة من خلال الكتب، وأصبحت مشاعري مشاعر المؤلفين.

أنواع القراءة:

ينتشر بين الناس أنواع كثيرة من القراءة، منها القراءة السريعة، والضوئية، والصورية، والبنائية، والعمودية، والنقدية، والتحريرية، والبنيوية. وغيرها، ولا شك أن للقراءة أنواعًا تختلف من شخص إلىٰ آخر، ومنها علىٰ سبيل المثال:

- القراءة السريعة، ويدور حولها الجدل والنقاش، وهل هي مفيدة أو غير مفيدة.

- القراءة الناقدة، كأن يقرأ القارئ كتابًا؛ بهدف بيان ما فيه من صواب وخطأ.

- القراءة البحثية، وهي أن يتنقل القارئ بين الكتب من أجل البحث عن أشياء محددة.

- القراءة التحليلية، بأن يُحلِّل القارئ الكتاب إلىٰ أجزاء، وبيان أهداف المؤلف من الكتاب.

- القراءة التفصيلية، كأن يفسِّر القارئ كل ما يراه من نصوص ورموز وعبارات.

- القراءة المهاجرة، ويُقصد بها قراءة ما عند غيرنا من الثقافات والفلسفات.

إن القراءة من الأشياء التي تختلف باختلاف الشخص، وطبيعته، ووقته، وظروفه، واجتهاده، فهناك كتب تُقرأ قراءة سريعة؛ لأن القارئ لا يحتاج أن يعرف التفاصيل، وهناك كتب يتصفحها القارئ تصفحًا، وهناك كتب يحتاج القارئ أن يعيدها مرة أو مرات، وبعض الكتب يُسجر بها التنور.

آفات القراءة:

يقول أحد الكُتَّاب: هناك مَنْ يقرأ من أجل أن يفهم العالم، وهناك مَنْ يقرأ من أجل أن يغيب عن العالم؛ فالقراءة أحيانًا تعطي القارئ فهمًا للحياة وللناس وتجاربهم وخبراتهم، وأحيانًا تُغيِّب القراءةُ القارئَ عن الناس، فهي تدخله في خيالات وأوهام ومُثل، وأحيانًا تعزله عن المجتمع، وهذه شكوىٰ موجودة عند بعض القراء، خصوصًا الذين يقرؤون بشكل مستمر، حيث تكون عندهم مشاكل اجتماعية في التعامل مع الناس.

إن القراءة ليست غاية، وليست مقصودة لذاتها، بل هي وسيلة للحصول علىٰ العلم، فالعلم هو وسيلة لمعرفة الله تعالىٰ ومعرفة مراد الله جل وعلا.

والناس يختلفون في أنواع القراءة، فهناك من يقرأ للمتعة، وهناك من يقرأ للقوة، وهناك من يقرأ للمعرفة، لكن ينبغي أن تكون قراءتنا قراءة مثمرة ولها أثر ونتيجة، وينبني عليها عمل، ولها أثر في القارئ والأسرة والمجتمع.

ومن آفات القراءة: أن بعض القُرَّاء قد يُصاب بمرض كثرة الشراء (الببلومانيا)، وهو أن يصبح الإنسان مهووسًا بالشراء، وقد رأيت خلال الفترة الماضية كثيرًا من الشباب والفتيات يشتكون من أنهم يشترون كتبًا، لكنهم لا يقرؤونها؛ وهذه مشكلة قديمة، بل إن بعض الناس يأتي عليه معرض الكتاب ولا زالت هنالك أكياس كتب من المعرض الماضي لم ينظر فيها ولو نظرة عابرة يعرف بها محتوىٰ الكتاب.

وأعجبتني كلمة سمعتها من أحد الأصدقاء يقول: أظن أننا وصلنا مرحلة ينبغي أن يقال فيها لبعض الشباب: «لا تقرأ»!

لأن القراءة أصبحت وبالًا علىٰ بعض المهتمين بالمعرفة، وظهرت فيهم آفات نفسية واجتماعية وأصيب بعضهم بانحرافات فكرية، وغابت عنهم غايتها وهي أنها وسيلة للمعرفة والعلم، التي غايتها العبودية لله.

لذلك حاجتنا للقراءة علىٰ منهج الله، القراءة التي تقربنا لله، وتزيد من معرفتنا به، وهذه ليست وصاية علىٰ الناس كما يقول البعض، بل توجيه صحيح لا بد من سماعه، فقد يكون الجهل في بعض الأحيان أنفع، فالجاهل البسيط أفضل من الجاهل المركب.

كما أن بعضهم يصاب بوهم المعرفة ويظن أنه علىٰ شيء بمجرد قراءته لعدد من الكتب، وما علم أن المعرفة والعلم طريق طويل، القراءة أحد أدواته.

أسئلة حول القراءة:

يرد علىٰ لسان الشباب أسئلة كثيرة حول القراءة، منها: ماذا أقرأ؟ وأين أقرأ؟ ومتىٰ أقرأ؟ وكيف أقرأ؟ وكيف أقرأ قراءة فاعلة؟ وما طقوس القراءة؟

وفيما يلي أسلط الضوء علىٰ إجابات هذه الأسئلة باختصار:

السؤال الأول: ماذا أقرأ؟

هناك ثلاثة مجالات رئيسة للقراءة، وهي:

أولًا: القراءة التأسيسية، وهذه القراءة تنطلق من هوية الإنسان (الدين، واللغة، والتاريخ)، فالقراءة في هذه الثلاث هي قراءة تأسيسية لأي شخص وفي أي تخصص، فلا بد أن يعرف أساسيات الدين -كأحكام الصلاة والحج وغيرهما-. وكذلك لا بد أن يعرف لغته، فيقرأ بعض القواعد الأساسية في اللغة، وكذا في التاريخ، فعلىٰ الشاب أن يقرأ الأحداث الكبرىٰ في تاريخ الأمة.

ثانيًا: القراءة التخصصية، وذلك بحسب تخصص الإنسان، سواء كان تخصصًا شرعيًا، أو تربويًا، أو إداريًا، أو تقنيًا . . . إلخ، وهذا المسار لا بد أن يقرأ فيه الإنسان؛ لأنه مطلوب من الشاب أن يكون عارفًا عالمًا بتخصصه.

ثالثًا: الثقافة العامة، كأن يقرأ الشاب في السِّيَر والمذكرات الشخصية، والأدب وفي العلوم والفنون الأخرىٰ، إذ هناك أناس عندهم رغبات في القراءة غير تخصصهم.

ومن المهم أن تأخذ القراءة في التخصص ٥٠٪ من قراءات الشاب أو الفتاة، فيستغرق نصف وقته في تخصصه الأساسي، و٣٠٪ في القراءة التأسيسية، و٢٠٪ في القراءات العامة. وقد يحتمل هذا التقسيم الزيادة والنقصان بحسب الشخص، ومعرفته، وثقافته، وعلمه، وظروفه، ووقته، ونهمه بالقراءة.

إن القراءة في علم واحد قد تُخرِج شخصًا مشوهًا؛ لذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يقرأ في عدد من العلوم، ويعرف مبادئها ومداخلها وتاريخها، ثم يتخصص في مجال واحد؛ لأن القراءة في تخصص واحد تجعل الشخص جامدًا، ويحارب من أجل تخصصه، وقد يحارب التخصصات الأخرىٰ، ويُجهِّل الآخرين. فمَنِ اقتصر علىٰ علم واحد لم يطالع غيره أوشك أن يكون ضحكة؛ لترابط العلوم بعضها ببعض؛ ولذلك فالمعتزل في جزيرة تخصصه يغيب عنه كثير من المناطق البرية والبحرية المحيطة به.

من النقاط التي يثيرها بعض الشباب «قراءة الروايات»، وهذه مسألة ليست مقبولة علىٰ إطلاقها، وليست مرفوضة رفضًا تامًا، فأرىٰ أنها قد تكون مدخلًا لبعض الناس، وذكر ساجد العبدلي في كتاب (القراءة الذكية) عدة أوهام وخرافات عن القراءة بشكل عام. وذكر بعض الكتاب أن قراءة الروايات مضيعة للأوقات . . . لكن مع التعمق فيها وجد أن لها أثرًا في الفكر والثقافة وتوسيع الخيال والثروة اللغوية والتفكير الناقد أيضًا والربط بالتاريخ.

والمقصد أن الروايات توضع في مكانها الصحيح، فيمكن أن تُقرأ في أوقات الفتور، ويمكن أن تُعطَىٰ بعض المبتدئين في القراءة، أما المتخصِّص والمهتم فهو يعرف ما يصلح له من الرواية وما لا يصلح، وأما انتشار الرواية بشكل كبير، وتصدرها المشهد، وكونها أصبحت حديث الشباب، فأرىٰ أنه ليس مفيدًا للقُرَّاء.

ويقول البعض: إن قراءة الروايات كالطُّعم الذي يُلقَىٰ خارج المكتبة ليجرَّ الشاب إلىٰ المكتبة، فيقولون: دع الشاب يبدأ بقراءة الروايات، حتىٰ يحب القراءة، وبعد ذلك يُعطىٰ كتبًا أكثر نفعًا، وقد يكون هذا الأسلوب جيدًا، بشرط أن يكون هذا الطُّعم صحيًّا وليس مسمومًا، فأحيانًا يكون الطُّعم مسمومًا، كالروايات التي تشتمل علىٰ محظورات شرعية.

إن الرواية ممتعة ومحببة لدىٰ فئات من الشباب؛ لأنها تأتي علىٰ هيئة قصة ومشاهد . . . إلخ، ولكن هناك بدائل، كقصص الأنبياء، والسير، وكتب التاريخ، وبعض كتب الأدب، فهذه يمكن أن يُستغنَىٰ بها عن الروايات.

السؤال الثاني: أين أقرأ؟

مكان القراءة يختلف من شخص لآخر، وهناك طريقتان:

- طريقة المكان الثابت.
- طريقة المكان المتنقل.

وينبغي علىٰ القارئ أن يعوِّد نفسه علىٰ القراءة في كل مكان، لكن هناك من الناس من يُفضِّل القراءة في المكان الثابت، ومن ميزات ذلك أن الشخص يرتبط ذهنيًّا بالقراءة في هذا المكان. وبعض الناس يحب القراءة في المكان المتنقل، ولا إشكال في هذا. وكذلك علىٰ الإنسان أن يقرأ في أوقات الانتظار، فالمطلوب هو التركيز علىٰ فعل القراءة، وليس مكان القراءة.

السؤال الثالث: متىٰ أقرأ؟

ومن الأوقات المناسبة للقراءة: أوقات الذروة بالنسبة للقارئ، فكل شخص له وقت نشاط، وهذا عادة يكون بعد الاستيقاظ من النوم، وأحيانًا بعد الفجر، وأحيانًا قبل الفجر، ولو استغلَّ الإنسان وقت الصباح كل يوم في القراءة لقرأ كتبًا كثيرة في وقت قصير، يقول أحد الكُتَّاب: لا يوجد عظيم من العظماء إلا وهو يستغل وقت ما بعد الفجر؛ لأنه وقت فيه بركة وسعة للقراءة.

ومن الأوقات المناسبة للقراءة الأوقات الضائعة، كالانتظار في الطريق، أو عند إشارة المرور، أو الانتظار في المستشفىٰ، فيمكن للشاب أن يستغل هذه الأوقات في القراءة.

ومن الأوقات المناسبة للقراءة: القراءة في الطائرة، فبعض الناس يحبون القراءة في الطائرة، خاصة الذين يسافرون أوقاتًا طويلة.

ومن الأوقات المناسبة للقراءة: القراءة الموسمية، وتتبع المناسبات ومعرفة أوقاتها من الأشياء التي تعين علىٰ القراءة، ومثال ذلك: إذا جاء موعد الحج فعلىٰ الشاب أن يقرأ عن الحج، وإذا جاء رمضان يقرأ عن أحكام الصيام، وإذا بدأت الدراسة يقرأ عن فوائد المذاكرة وكيفية تحصيل العلم وآدابه وغير ذلك مما يتعلق بالتعلم؛ وبذلك يرسخ العلم في ذهن المتعلم بسبب التكرار، واحتياجه إليه في هذه المناسبات.

السؤال الرابع: كيف أقرأ؟

- علىٰ الإنسان أن يتذكر الأجر المترتب علىٰ القراءة، وأنها سبيل ووسيلة للعلم، حتىٰ يكون ذلك دافعًا إلىٰ القراءة باستمرار.

- أن يستشير الشاب مَنْ يثق فيه وفي ثقافته وعلمه؛ لأن قراءة الكتب غير المناسبة قد تصد الشاب عن القراءة وتبعده عنها.

- تكوين مجموعة أو صحبة -ولو كانت افتراضية- تساعد علىٰ القراءة بشكل مستمر، كأن يكون بينكم لقاء دوري للقراءة باستمرار.

- زيارة المناسبات والفعاليات المهتمة بالقراءة بشكل مستمر، مثل: معرض الكتاب، ودور النشر وغيرها.

- متابعة المهتمين بالقراءة في وسائل التواصل الاجتماعي، والاستفادة من المنشورات المتعلقة بالقراءة.

- دعاء الشاب اللهَ ﷻ أن يرزقه العلم النافع، وحب القراءة التي تدله علىٰ الله تعالىٰ.

ويمكن القول: علىٰ الإنسان الذي لم يتعود علىٰ القراءة أن يبدأ بكتب محبوبة وسهلة وقصيرة، فالمحبوبة تساعده علىٰ أن يستمر، والسهلة تساعده علىٰ أن يفهم، والقصيرة تشعره بالإنجاز، والإنجاز يرفع مستوىٰ التحفز، فيعتاد القراءة بعد ذلك.

والشباب مذاهب في تحديد كيفية القراءة ومقدارها، فبعضهم يقول: أنا أقرأ ثلاثين صفحة يوميًّا ثم أتوقف. وبعضهم يقول: أنا أقرأ نصف ساعة. وبعضهم يقول: أنا أقرأ في وقت نشاطي ولا أقرأ في وقت كسلي. وبعضهم يقول: أنا أقرأ إلىٰ أن أجد ما أبحث عنه. فأيُّ ذلك هو الأفضل؟

أقول: هذا يختلف بحسب الشخص، فالمتقدمون والمتوسطون في القراءة يعرفون كيف يقرؤون، أما المبتدئ فالأفضل له أن يحدِّد وقتًا للقراءة حتىٰ يكتسب عادة القراءة، ثم بعد ذلك يحدد الطريقة التي تناسبه.

ومن المهم تحديد وقت للقراءة؛ لأن القارئ إذا ربط القراءة ذهنيًّا بوقتٍ ما صارت له عادة في هذا الوقت المحدد، وهذا يساعد علىٰ اكتساب عادة القراءة.

يقول أحد الفضلاء المهتمين بالقراءة والمطالعة عن ثمرة القراءة وأثرها في النفس وفي الآخرين: هددت ابني مرة بالضرب، فقال لي ابني: لا تستطيع أن تضربني! فقلت له متعجبًا: ولم لا أستطيع؟! قال الابن: كتبك ستمنعك أن تضربني! يقول راوي القصة: فما أدري مَنِ الذي لقَّن ابني هذا؟! لقد لقنني درسًا في أثر القراءة في الآخرين.

ويقول عن موقف آخر: خرجتُ من معرض الكتاب، واشتريت كتبًا كثيرة، واستأجرت شخصًا ليساعدني في حمل الكتب، واتفقت معه علىٰ أن الساعة بخمسين ريالًا، فعمل معي ثلاث ساعات، وبعد أن انتهيت أعطيتُه مائتي ريال بدلًا من مئة وخمسين؛ لكنني فوجئت أنه لم يشكرني علىٰ الزيادة، ولم تكن له أي رد فعل! فتعجبت وقلت له: ألا تعلم أنني أعطيتك أجرتك وزيادة؟! فقال لي: أنا أعرف أنك فعلت ذلك؛ لأنه لا يوجد شخص يقرأ مثل هذه الكتب ولا يكون إنسانا صالحًا!

يقول صاحب الواقعة: لقد انتبهت، فأنا أحمل حججًا وشواهد عليَّ من خلال قراءتي هذه الكتب، وهكذا يجب أن يكون القارئ!

قال ابن مسعود عن قراءة الصحابة القرآن، وفهمهم آياته: «كنا لا نتجاوز عشر آيات من القرآن حتىٰ نعمل بهن»! فهذه هي ثمرة القراءة.

ولا شك أن القارئ يجب عليه أن يتمثل المعرفة التي يقرأها، وأن يكون قدوة أمام الناس في سلوكه وأخلاقه ومعارفه، لكن القارئ بشر قد يضعف، ولا يستطيع أن يطبق كلَّ ما قرأ، لكن عليه أن يجاهد نفسه في أن يتمثل ما يقرأه، وعلىٰ الإنسان أن يسأل نفسه: ماذا استفدتُ من هذا الكتاب؟ كيف يمكن أن أخرج منه بفوائد عملية؟ وهل هذا الكتاب يقربني إلىٰ الله تعالىٰ؟

إن المعرفة تتراكم مع الوقت، وتتحول إلىٰ معلومات، ثم أفكار، ثم قناعات، ثم تتحول إلىٰ سلوك إنساني، والإنسان لن يقرأ كتابًا فيتحول إلىٰ شخص خارق لديه كل السلوكيات الحسنة والأخلاق الجيدة في أيام أو أسابيع، بل يستغرق ذلك أوقاتًا طويلة؛ فالمعرفة قد تُحسِّن من سلوك الإنسان وأخلاقه، وقد تصيبه بعكس ذلك، فقد يُصاب القارئ بالغرور، وقد يصاب بسوء الخلق، وغير ذلك.

السؤال الخامس: كيف أقرأ قراءة فاعلة؟

توجد العديد من المؤشرات التي تفيد الإنسان في أن يقرأ قراءة فاعلة، ومن ذلك:

- **اختيار الكتاب المناسب**، واختيار الكتاب فن مستقل يكتسبه الإنسان مع الوقت، وكثرة الممارسة، والجلوس في المكتبة، مع العلم أن عبارة (الأكثر مبيعًا) ليست مؤشرًا علىٰ جودة الكتاب وأهميته، فهذه الجملة قد تكون مضللة، وبذلك فالمقصود أن تقرأ ما تحتاج إليه؛ ولذلك فتقييم الناس للكتب مختلف بحسب معارفهم وثقافتهم واهتماماتهم السابقة، ويُقَال: الكتاب الذي لا يستفز قدرات القارئ وعقله لا يستحق القراءة.

- **وجود تصور عام عن الكتاب**: وفهم فكر المؤلف، وسبب تأليف الكتاب، وهل هو متخصص في هذا المجال أو لا؟ ويكون ذلك من خلال أخذ تصور عن الكتاب، فيبدأ القارئ بمعرفة الفصول والأبواب، والفكرة العامة في الكتاب من خلال قراءة المقدمة بشكل جيد؛ لأن قراءة المقدمة هي التي تعطي القارئ إضاءة عن الكتاب؛ لذلك يقول بعض الكُتَّاب والمؤلفين: لا تكتب المقدمة حتىٰ تنتهي من الكتاب، بحيث تبيِّن فيها وجهة نظرك وطريقتك.

- **النظرة النقدية للمقروء**: أثناء القراءة لا ينبغي للقارئ أن يسلِّم بكل شيء، وأن ينفعل مع القراءة، بل عليه أن يسأل: ماذا يريد الكاتب بهذا النص؟ ولماذا كتبه هكذا؟ ولماذا هذا التداخل؟ ولماذا هذا الترتيب بين الأبواب؟ وألا تكون القراءة قراءة عادية مستمرة بشكل دائم لا حياة فيها ولا روح، فالقراءة المنفعلة بالأسئلة، وطرح التفاعل مع الكاتب والمؤلف تجعل القراءة أكثر فاعلية.

- **نقل المعرفة إلىٰ الآخرين**: من الأفكار التي تفيد في القراءة الفاعلة أن ينقل القارئ المعارف إلىٰ غيره، فهذا أثبت لحفظ العلم، سواء كان النقل مباشرًا أو غير مباشر، كالنقل من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

السؤال السادس: ما طقوس القراءة؟

القراءة عادة مثل أي عادة أخرىٰ، لكنها من العادات العميقة التي تحتاج إلىٰ وقت حتىٰ ترسخ عند الإنسان، ومَنِ اكتسب عادة القراءة واستمرَّ عليها فترة أصبحَتْ عادة صحية له، ومن الطقوس التي يفعلها بعض الشباب أنه يحيط نفسه بعدد من الأشياء التي تعين علىٰ القراءة؛ كتهيئة الجو المناسب، أو الاجتماع مع الأصدقاء، وهذه الأشياء تعين علىٰ بناء عادة القراءة والاستمرار عليها.

لكن أحيانًا تُوضَع أوهام حول القراءة تصدُّ الناس عنها؛ كالحديث عن شخص قرأ كتابًا كاملًا في يومين، أو شخص قرأ في يوم من الأيام ١٤ ساعة متواصلة؛ هذا يحدث لكن لا يحدث إلا لأفراد قليلين، وهذا يصيب بعض الشباب بالإحباط، حيث يقولون: وأين أنا من فلان الذي قرأ كتابًا في يومين؟! ثم يترك القراءة!

إن عامة القراء يقرؤون ساعة أو ساعتين يوميًّا، قد تزيد أو تنقص، يقول أحد الكُتَّاب: إن بعض الناس يقرأ كتابًا في العام، ويظل طوال العام يتحدث عن ذلك الكتاب! فبعض الناس ذكي في قراءاته، ويعرف كيف ينشر المعرفة من خلال قراءاته، وكلما قابل أصحابه أعطاهم معلومة مما قرأ، فيظن الناس أنه يقرأ كل وقته! وهذا غير صحيح، وهذا يصدُّ كثيرًا من الناس عن القراءة.

إن ما ينشره بعض القُرَّاء حول القراءة وطقوسها أوهام غير حقيقية، وهي تضر أكثر مما تنفع، بل المطلوب من الشاب أن يحرص علىٰ القراءة باستمرار، ولو كان قليلًا. يقول الدكتور/ أحمد معبد: خصصت كل يوم قبل النوم ١٠ دقائق قرأت فيها كتاب (سير أعلام النبلاء)، أو ربما قال: (الكامل في الرجال)! وهما كتابان كبيران جدًّا لمن يعرفهما.

وهناك من يتحدث عن القراءة وطقوسها وحديثه كله عن القراءة دون خوض القراءة نفسها، ولا شك أن تحفيز الناس مهم، لكن دون أن نبالغ في ذلك، وهناك كتب تعطي تصورًا كافيًا عن القراءة، سيأتي ذكرها في نهاية الفصل، وأنا

لستُ مع أن يكثر الإنسان من القراءة عن القراءة، وإنما يقرأ ما يجعله يعرف كيف يقرأ، ولو كتابًا أو كتابين، ثم ينطلق في القراءة، فإن كان ولا بد فالقراءة في مسارين متوازيين، القراءة في القراءة، ولكن بعد القراءة نفسها وخوض بحارها، ثم يزود نفسه بجرعات منظمة في القراءة في طرائق القراءة!

المهارات القرائية:

يوجد عدد من المهارات التي يحسن بالقارئ أن يُلم بها، مثل:

- مهارة تقييد الفوائد، وكتابتها وتسجيلها، حتىٰ يكون أثبت للحفظ والاستدعاء.
- مهارة التلخيص، ومعرفة كيفية تلخيص الفكرة التي قرأها.
- مهارة النقد، أو كيفية نقد الفكرة، أو تحليلها، أو التعامل معها.
- مهارة التحليل، أي تحليل قراءة النصوص والأفكار، خصوصًا الأفكار العميقة.
- مهارة الاستنباط، والتقويم والتعديل للأفكار المقروءة، ونقدها نقدًا علميًّا.

وهذه المهارات ضرورية حتىٰ تكون القراءة أكثر فائدة للشخص، وتوجد بعض المهارات التي يحتاجها القارئ المتقدم، مثل: أن يحضر القارئ عددًا من الكتب في فنٍّ واحد، ثم يرتبها ترتيبًا زمنيًّا، الأقدم فالأقدم، حتىٰ يتعرف علىٰ مَنْ اقتبس من الآخر.

وكذلك ينبغي علىٰ القارئ القراءة عن المؤلف قبل قراءة الكتاب ذاته، ومعرفة فكره، وامتداده، وحقبته الزمنية، وكيف أثَّرت هذه الأشياء علىٰ قلمه. كما يجدر بالقارئ إذا قابل مصطلحًا أو اسمَ عَلَمٍ أو كلمة لا يعرفها فإنه يبحث عن ذلك، فهذا ينقل القارئ إلىٰ فضاءات أخرىٰ، وعالم أوسع من المعرفة؛ وهذه الطريقة قد يحتاجها الباحث أو الذي يريد أن يكوِّن تصورًا كاملًا عن موضوع معين، ولا يُطالب بها كل أحد.

كيفية تعزيز القراءة بحيث تكون عادة:

من الأفكار المهمة في تعزيز القراءة:

- **تكوين المكتبة، وتهيئة الجو المناسب للقراءة،** وعند تأمل حال كثير من القراء تجد أن بدايته مع القراءة كانت أنه قرأ كتابًا من مكتبة البيت، وهذا يدل علىٰ أن وجود الكتاب بالبيت من وسائل تعزيز القراءة؛ فالإرث الذي يُبقيه الوالد أو الوالدة لمَنْ خلفهم من الأبناء والذرية يُسهم في تعزيز ثقافة القراءة.

- **حرص الوالدين علىٰ القراءة:** فعند رؤية الأبناء الأب يتردد علىٰ المكتبة فإنهم يعرفون أن هذا الفعل جيد، وهذا أمر مهم خاصة في السنوات الأولىٰ من عُمْر الابن؛ لأنه يتعلم بالمحاكاة والتقليد. ومن الأخطاء أن بعض الآباء يجعل المكتبة مكانًا محظورًا لا يدخله أحد، فهذا يسبب نفور الأبناء من المكتبة، أما ربط الأولاد بالمكتبة فإنه ينشئ نوعًا من الألفة بين الابن والكتاب.

إن كثيرًا من الأبناء عندهم شعور سيئ تجاه الكتاب؛ لارتباطه بالرسوب والنجاح والمناهج الدراسية، فإذا انتهىٰ من الاختبار ألقىٰ الكتب وترك القراءة، وينبغي علىٰ الأب معالجة هذا الأمر، ويكون ذلك من خلال الجلوس مع الابن في جلسة قرائية، أو السماح له بقراءة القصص وغير ذلك مما هو محبب، دون ربطه بالثواب والعقاب، فيرتبط الابن بمشاعر الحب تجاه الكتاب.

- **تأسيس مكتبات للأطفال،** بحيث يكون لدىٰ الأطفال مكتبة صغيرة فيها كتب تناسب أعمارهم، وتشجيعهم علىٰ القراءة بشكل مستمر، وإشراكهم في المسابقات العلمية، واستخدام أسلوب التعزيز لغرس حب القراءة في نفوسهم.

- **وجود الرغبة،** من المهم أن يكون لدىٰ الشخص الذي يريد أن يقرأ الرغبة والحرص علىٰ القراءة، وعلىٰ القارئ أن يغرس هذه الرغبة في نفوس الأبناء، وسيرىٰ نتيجة ذلك مع مرور الوقت.

ومن المراجع والكتب الجيدة التي تكلمت عن القراءة ومنهجيتها ما يلي:

- كتاب (المشوق إلىٰ القراءة وطلب العلم)، للدكتور/ علي العمران.
- كتاب (قراءة القراءة)، للدكتور/ فهد الحمود.
- كتاب (تاريخ القراءة)، ألبرتو مانغويل.
- كتاب (في صحبة الكتب)، علي حسين.
- كتاب (داخل المكتبة)، علي حسين.
- كتاب (القراءة الذكية)، للدكتور/ ساجد العبدلي.
- كتاب (قالوا عن الكتاب)، مجموعة من المؤلفين.
- كتاب (عشَّاق الكتب)، للدكتور/ عائض القرني.
- كتاب (مكتباتهم)، لمحمد آيت حنا.

الفصل السابع
سؤال الجامعة

نتناول في هذا الفصل الحديث عن «سؤال المرحلة الجامعية»، فهل تستحق هذه المرحلة أن نفرد لها فصلًا مستقلًّا؟ وهل يُعدُّ سؤال الجامعة سؤالًا مُقلِقًا؟ وما الذي يُقلق الطالب في هذه المرحلة؟

لا شك أن المرحلة الجامعية من أهم المراحل في حياة الإنسان، فهي مرحلة ذهبية في حياة الشاب، وهذه المرحلة فيها ملامح تعطيها قوة ووهجًا، وفي ذات الوقت فيها ملامح تجعلها مرحلة مهمة لأسباب متعددة، منها:

السبب الأول: بدء مرحلة الاستقلال: لأن الإنسان قبل المرحلة الجامعية كان معتمدًا بشكل كبير علىٰ الآخرين، والانتقال من الاعتماد علىٰ الآخرين إلىٰ الاستقلال الكلي يُسبِّب إشكالًا وقلقًا عند الشاب، فالتعليم عند الصغار مسؤولية المعلم، بينما التعليم عند الكبار مسؤولية المتعلم، وكذلك التربية مسؤولية الأسرة بينما في هذه المرحلة، قد تكون تربيته مسؤوليته بشكل كبير، وهذا الاستقلال قد يكون غير مألوف عند الشاب فيسب له القلق.

السبب الثاني: أنها مرحلة بناء وتكوين: فهذه المرحلة يُكوِّن فيها الشاب شخصيته، ويُحصِّل معارفه، ويبدأ فهم الحياة بشكل مختلف، ويتعرض لمواقف جديدة، وكل هذه التجارب تجعل هذه المرحلة مختلفة عن المراحل السابقة.

السبب الثالث: مرحلة العطاء، في هذه المرحلة ينمو عند الشاب حب البذل، والتضحية، والتطوع، وتكون عنده رغبة جامحة في أن يحدث أثرًا في الآخرين، وإذا انتمىٰ واقتنع مستعد أن يضحي بأشياء كثيرة في حياته ويعطي.

السبب الرابع: النضج: فيبدأ في هذه المرحلة تكوين عقل الشاب، وتتحسن مهاراته العقلية في الاستنباط والتركيب والتحليل والاستنتاج.

هذه المعالم لم تكن موجودة في المراحل السابقة من حياة الطالب، وهذا يجعل هذه المرحلة مختلفة؛ لأنها بداية رسم بوصلة واتجاه في حياة الشاب، وكثير من الأشياء التي يتلقاها الشاب في هذه المرحلة أو يتعلمها أو يحصلها أو يعتاد عليها ستستمر معه في أغلب الأحوال.

الفرق بين المرحلة الجامعية وما قبلها:

توجد فروق كثيرة بين المرحلة الجامعية وما قبلها، ومن ذلك:

- اعتماد الطفل علىٰ الآخرين في شؤون حياته؛ كالاعتماد علىٰ الأم في الاستيقاظ للمدرسة، والاعتماد في المدرسة علىٰ المعلم، والاعتماد علىٰ الإدارة في المتابعة . . . وغير ذلك. وكل ذلك يختلف في المرحلة الجامعية.

- تغيير الأصدقاء، حيث يترك الشاب أصدقاء الثانوية، وتبدأ علاقته بأصدقاء جدد في المرحلة الجامعية، أو يستمر معهم ويضيف أصدقاء جدد ومن بيئات مختلفة.

- اختلاف نمط التدريس، فقد كان لدىٰ الطالب قبل الجامعة معلم يتابعه، أما في الجامعة فالمعلم (الدكتور) مختلف عن المعلم في السابق، وقد يقتضي التخصص أن يشرح باللغة الإنجليزية، مما يسبب إشكالًا لدىٰ الطلاب.

- تغيير نظام الكتب والمصادر والمراجع وغير ذلك مما هو معلوم، حيث إنه مطالب بالبحث وكتابة البحوث العلمية وغير ذلك مما لم يكن موجودًا قبل الجامعة.

مع كل هذه المتغيرات يشعر الشاب بنوعٍ من الغربة التي تجعله لا يتأقلم بسرعة مع الوضع الجديد؛ وإذا لم تكن لدىٰ الشخص تهيئة مناسبة لهذه المرحلة، وإذا لم يكن عنده تصوُّر أن هذه المرحلة مختلفة عما قبلها فإن هذا يسبب له قلقًا.

إن الانتقال من المرحلة الثانوية إلىٰ المرحلة الجامعية أشبه بالمنعطف علىٰ الطريق المستقيم، وهذا المنعطف ليس سهلًا، وإذا لم يتعامل الشاب بشكل مناسب مع هذا المنعطف فقد يُسبِّب له انقلابًا في حياته، ومن المهم في المنعطفات أن يتجاوزها بأقل الخسائر.

أهمية المرشد في هذه المرحلة:

إن انتقال الشاب من مرحلة الثانوية إلىٰ مرحلة الجامعة يُسبِّب له حيرة، سواء في إقباله علىٰ هذه المرحلة، أو علىٰ جامعة من الجامعات، أو علىٰ اختيار التخصص، كل هذه الخيارات تسبب له إشكالًا وتناقضًا؛ لأنه يفكر في الوظيفة والمستقبل وتحقيق أحلامه، وكل هذه الإشكاليات تحتاج إجابات.

ويبدأ هنا الشاب برحلة البحث عن الخروج من هذه الحيرة، ومن الإشكالات أن يسأل الطالب شخصًا غير متخصص، أو يسأل صاحب تجربة خاطئة أو سيئة من الأقارب أو الأصدقاء، فيدله بطريقة خاطئة تسبب له مشكلة تستمر معه بشكل دائم.

ومن قواعد الاستشارة في مثل هذه المواطن أن يستشير الطالب مَنْ يعرفه، ويعرف الشيء الذي يسأله عنه، فأحيانًا يكون المستشار علىٰ علم بالتخصصات، لكنه لا يعرف السائل، أو العكس، فقد يَعرِفُ المستشارُ السائلَ لكنه لا يعرف التخصصات، وبالتالي قد يرشد السائل بطريقة خاطئة.

وقد يستفيد الشاب من الأشخاص الذين أنهوا تعليمهم الجامعي، فيمكن أن يسألهم عن التخصصات، وأحوال الجامعة، وبِمَ يوصونه في هذه المرحلة؛ ومن

المهم أن يستفيد من المرشدين المهنيين الذين عندهم قدرة علىٰ الإرشاد بشكل جيد، وعندهم اهتمام بهذه المرحلة.

ومن أصعب القرارات في هذه المرحلة اختيار التخصص، ولعلنا نتحدث عنه في الأسطر القادمة:

كيفية تحديد التخصص:

هناك طرق كثيرة ومتنوعة لاختيار التخصص، وتوجد كتب ومقاطع مصورة كثيرة تناولت ذلك، ومن أبرز هذه الطرق:

الطريقة الأولىٰ: الاختبارات الشخصية، كاختبارات هولاند، وبيركمان، وهيرمان وغيرها. وأيضًا المركز الوطني للقياس والتقويم مناسب للطلاب في اختيار تخصصاتهم. ونؤكد علىٰ أن نتائج هذه الاختبارات تعطي مؤشرًا، وليست حكمًا نهائيًّا غير قابل للمناقشة، بل إن هذه مؤشرات تعين علىٰ اختيار الطريق الأنسب؛ لأنها مؤشر يُستفاد منه، وتعطي تصورًا قريبًا من الصحيح.

الطريقة الثانية: الممارسة العملية، التي يمكن من خلالها معرفة نقاط قوتك وضعفك، وميولك واهتمامك، وما تحب وما تكره .. وهي تعطي مؤشر كذلك لمعرفة التخصصات الأقرب لك.

الطريقة الثالثة: القراءة حول التخصصات، الاطلاع علىٰ التخصصات ومعرفة المواد التي تدرس فيها، ويمكن سؤال الطلاب الذين يدرسون في الكليات التي ترغب الالتحاق بها.

الطريقة الرابعة: تطبيق الاستراتيجيات الموجودة في كلمة (رفق)، الراء: الرغبة، والفاء: الفرصة، والقاف: القدرة:

- **فالرغبة** هي أن يكون لدىٰ الإنسان ميول واهتمام بهذا التخصص.

- **والفرصة** أن يكون هذا التخصص متاحًا في الجامعات، وأن يكون مجموع الطالب يؤهله لهذا التخصص، وتعني أيضًا: أنه توجد فرصة في المستقبل في سوق العمل لهذا التخصص.

- **والقدرة** هي استعدادات الطالب الفطرية، ومواهبه وميوله، وهذه تساعد الشاب علىٰ اختيار التخصص بشكل أفضل.

ويوجد إشكالية في نموذج (رفق) ينبغي أن ينتبه الطالب إليها، فكثير من الشباب يقول: عندي رغبة في هذا التخصص، ولديَّ فيه فرصة، وعندي فيه القدرة . . . والإشكال هو: كيف تعرف رغباتك؟ فأحيانًا تكون الرغبات مستعارة يقلد فيها الطالب أحدًا من الأهل أو الأصدقاء، فليس بالضرورة أن تكون هذه الرغبة حقيقية؛ لذلك فبعض الذين يدخلون بعض التخصصات ليس لديهم معرفة حقيقية بالتخصص؛ لأن رغبتهم لم تكن حقيقية.

كيف تعرف الرغبة الحقيقية؟

من خلال المعرفة يتبين أن الحب الصادق يأتي بعد المعرفة غالبًا، أما الحب المندفع فهو الذي يأتي قبل المعرفة، وهذا يقع فيه كثير من الشباب في الغالب؛ ولذلك فمن المناسب للطالب -قبل أن يدخل أي تخصص- أن يختبر رغبته فيه من خلال اختباره، والاطلاع بشكل أكبر علىٰ تفاصيل هذا التخصص.

ومن الوسائل التي تساعد الإنسان علىٰ معرفة التخصص: أن يدخل إلىٰ الموقع الإلكتروني للكلية التي يريد الالتحاق بها، ويقرأ عن مقرراتها، ويتأمل اهتماماتها، أو يزورها، أو يسأل أساتذتها وغير ذلك.

ومن الأشياء التي تساعد في اختيار التخصص: أن يجيب الطالب عن سؤال: مَنْ أنا؟ وما قدراتي؟ وما اهتماماتي؟ سواء كان ذلك عن طريق الاختبارات، أو عن طريق التأمُّل في النفس ومعرفة خصائصها وسماتها، وهل يميل إلىٰ الأشياء التي فيها ذكاء نظري أو منطقي أو يميل إلىٰ الأشياء التي يغلب عليها الجانب التطبيقي، وهذا مما يساعد في اختيار التخصص.

ومما يساعد في ذلك أيضًا: تأمل الدرجات في المرحلة الدراسية السابقة، ومعرفة هل الدرجات مرتفعة في هذا التخصص أو ذاك؟ وبناء عليه يقرر الطالب

التخصص الذي يناسب المواد التي يتميز فيها، وهذه الطريقة تعطي الطالب مؤشرًا عن القدرة.

إن الطالب الذي يشعر بالحيرة تكون درجاته عالية غالبًا، وعنده قدرات متعددة، ويشعر أنه قادر على الكثير من الخيارات، أما الطالب الضعيف فإن الخيارات محدودة أمامه، وكلما قلَّت نسبته في الثانوية فإنه يكون مجبرًا على بعض التخصصات، فتقل عنده الحيرة. ولكي يقرر التخصص المناسب عليه الاختيار بين ثلاثة أشياء:

- ما التخصص الأنسب؟
- وما التخصص المناسب؟
- وما التخصص غير المناسب؟

ومن الأشياء التي تعين على فهم الرغبة بطريقة صادقة: النظر فيما بعد الوظيفة، أي: يتخيل الطالب أنه في مرحلة العمل الوظيفي، وعليه أن يفكر في أي الأعمال يحب: هل يحب التعامل مع الأرقام، فيمكن أن يختار قسم المحاسبة، أو هل يحب أن يقابل الناس، فيمكن أن يختار الإدارة والعلاقات العامة ... وغير ذلك من التخصصات.

ومن المهم في قضية الرغبة أن يجيب الطالب عن سؤال: مَنْ أنا؟ لكن أحيانًا لا يقدر الشاب على الإجابة عن هذا السؤال؛ لأنه لا يعرف نفسه جيدًا، فهنا عليه أن يسأل نفسه السؤال بطريقة أخرى، فيسأل نفسه: مَنْ ليس أنا؟ أي: يسأل الطالب نفسه: هل أريد أن أكون معلمًا للطلاب؟ لا. هل أريد أن أكون محاسبًا؟ لا. هل أحب التشريح؟ لا ... وبذلك فالطالب بهذا السؤال يستبعد التخصصات التي لا يحبها، فتتضح عنده بعض المعالم عما يريد.

إن بعض الطلاب ليس لديه تجربة وممارسة سابقة، وهذا يجعل الطالب غير قادر على الاختيار أو الترجيح، وخوض التجارب مهم في اكتشاف الإنسان نفسه، واختيار التخصص والوظيفة المناسبة له.

ومن المؤشرات التي تدل علىٰ أن رغبة الطالب حقيقية أن يمتلك معلومات ومعرفة مستوفية عن التخصص الذي يريد.

ومما يتعلق بمسألة الفرصة أمران:

الأول: أن توجد فرصة لدخول التخصص، ويكون ذلك من خلال معرفة أن قدرات الطالب تؤهله لذلك.

والثاني: أن توجد فرصة للعمل والتوظيف في هذا التخصص في المستقبل (وهي مشكلة دراسة سوق العمل)، وذلك لأن سوق العمل يتميز بـ:

١- أنه مُتغيِّر واحتياجاته متغيرة.

٢- أن الفرص المنتشرة الآن قد تختفي فيما بعد.

لذلك فمن المؤشرات الجيدة في معرفة سوق العمل:

المؤشر الأول: الاتجاه العالمي، أي أن هناك توجهات تجاه تخصصات مهنية معينة، مثل: التقنية والبرمجة.

المؤشر الثاني: الكليات الأهلية، والجمعيات الأهلية، فهؤلاء غالبًا يدرسون سوق العمل، وبناءً عليه يفتتحون أقسامًا وكليات ووحدات جديدة.

ختامًا، أبيِّن شيئًا في محور الفرص وهو مستقبل التوظيف:

- بعض التخصصات تؤهل الطالب للعمل في الحكومة فقط. كمَن يدرس تخصصات اللغة العربية والتاريخ مثلًا.

- وبعض التخصصات تؤهل الطالب للعمل في الحكومة، وفي القطاع الخاص. كمن يدرس في كليات الشريعة.

- بعض التخصصات تؤهل الطالب للعمل في الحكومة، وفي القطاع الخاص، وفي العمل الشخصي. كمن يدرس في كليات الطلب، فإنه قد يعمل في المستشفيات الحكومية والخاصة، وقد يعمل لحسابه الشخصي من خلال العيادة الخاصة.

ولابد للطالب أن يقوي يقينه بالله تعالىٰ، ويتوكل عليه، ويطلب التوفيق منه، وليعلمْ أن إرادة الله جل وعلا خير من اختيار الإنسان لنفسه. فمهما دبَّر الإنسان وخطَّط يجب ألا ينسىٰ أن التوفيق من الله تعالىٰ، وعليه أن يردد: اللهم اهدني وسددني، وقدر لي الخير حيث كان.

كيف ومتىٰ يتمُّ الاستعداد للجامعة؟

إن الاستعداد للجامعة يبدأ مع بداية المرحلة الثانوية؛ لأن المعدل الدراسي له تأثير في القبول بالجامعات، إذن ما يحدد القبول الجامعي:

القضية الأولىٰ: المعدل الدراسي.

القضية الثانية: حصيلة الدراسة والقدرات التي تم اكتسابها خلال المرحلة الثانوية.

القضية الثالثة: تخصيص وقت للقراءة والاطلاع خلال المرحلة الثانوية يزيد فرص الطالب في المرحلة الجامعية.

القضية الرابعة: اختيار التخصص سواء كان عمليًّا أو شرعيًّا أو إداريًّا.

وعلىٰ الشاب أن يتعامل مع المرحلة الثانوية علىٰ أنها مرحلة استعداد وتأهيل للمرحلة الجامعية، وكلما بذل الطالب جهدًا فيها كان أكثر راحة في الجامعة، ويكون دخول الجامعة انتقال من عادة إلىٰ عادة، ويكون الشاب قد تعود علىٰ الالتزام، والحرص، والتفوق، والتميُّز، والتحصيل، والقراءة، والاجتهاد.

الاستعداد بين القشور والتأثير:

إذا قَدَّم الشاب رغباته علىٰ طموحاته فإنه يفقد طموحاته، وكلما اشتغل بالأمنيات والطموحات تحققت له هذه الأمنيات في المستقبل، وبذلك فالاستعداد أمر مهم في تحديد مستقبل الطالب الجامعي.

وبعض الشباب يفكرون في مصالحهم الذاتية والحالية، ولا يعرفون أن الأسرة قد تحرمهم من بعض هذه الأشياء الحالية من أجل تحقيق مصلحة أعلىٰ،

كرفض الوالد شراء هاتف لابنه؛ حتىٰ لا يُشغَل الولد عن المذاكرة، فهناك مصالح كبيرة في عدم توفير بعض رغبات الشباب في المرحلة الجامعية.

كيفية التميز في الجامعة:

- إذا درس الطالب تخصصًا يوافق قدراته ورغباته فإنه سيبذل وقته في التعلُّم، والاجتهاد، والتعلُّم الذاتي الخارجي.

- تخصيص وقت للمذاكرة بشكل مستمر، فبعض الطلاب يؤخرون المذاكرة إلىٰ قبيل الاختبارات، ثم يبدأ المذاكرة، وهذا من أسباب عدم التميز.

- بناء العلاقات مع الأساتذة والطلاب المتميزين في التخصص يحفز الطالب علىٰ التميز والإبداع.

- معرفة الطريقة المناسبة في التعلُّم، فبعض الطلاب لا يعرفون الطريقة الأنسب للمذاكرة، وبعضهم يُضيِّع وقته في حفظ جزئية صغيرة من المنهج، ويترك نقاطًا مهمة وجوهرية.

وهناك طرق تختلف من شخص إلىٰ آخر، فمعرفة الطالب لنفسه وأفضل طريقة له في التعلم، والممارسة والتجربة كلها تعينه علىٰ التميز، كما أن الاستعانة بالله وطلب التوفيق قضية يجب ألا يغفل عنها.

ومن المهم للطالب الجامعي أن يهتم بالمواد التأسيسية، وكثرة الاطلاع حتىٰ علىٰ ما ليس داخلًا في الاختبارات، فإن هذا يقوي الطالب، ويجعله متميزًا بين أقرانه. مثال ذلك: في مادة الفقه، قد يحذف المعلم (الدكتور) بعض أبواب المقرر تخفيفًا علىٰ الطلاب، فلا ينبغي للطالب إغفال المحذوف، إذ الاطلاع عليه وضبطه مما يميِّز الطالب عن غيره ممن أهمل الجزء المحذوف.

أهم المهارات الجامعية:

المهارات الجامعية كثيرة، ومن أهمها:

- **إدارة الوقت**، وهي مهارة مهمة تساعد علىٰ تحقيق أهداف الدراسة.

- **مهارات التفكير**؛ لأن التفكير يساعد الإنسان علىٰ النظر للأمور بشكل جيد.

- **اتخاذ القرار**، فدخول الجامعة قرار، واختيار التخصص قرار، وتأجيل مادة دراسية قرار، فإذا كان الطالب لا يُحسن اتخاذ القرارات وقع في أخطاء كثيرة.

- **مهارات البحث**؛ لأن الطالب يُطالَب بالرجوع إلىٰ المصادر والمراجع وكتابة البحوث، فلا بد من التدريب علىٰ مهارات البحث.

- **المرونة النفسية**؛ لأن الشاب يمرُّ بمتغيرات وأزمات وضغط الاختبارات وغير ذلك، فإذا لم يكن عنده مرونة نفسية فإنه قد يتعثر.

ويوجد كتابان أوصي بهما في المرونة النفسية وإدارة المشاعر، وهما: كتاب (المرونة النفسية) للدكتور/ بندر آل جلالة، وكتاب (إدارة المشاعر) لأسامة الجامع، وكلاهما معاصران.

التعارض والتوازن بين الجامعة وتطوير الذات:

إن التطوير الشخصي يعود علىٰ الطالب بالفائدة، فإذا حضر الطالب دورة في إدارة الوقت، أو قرأ كتابًا في موضوع معين فإن هذا سيعود عليه بالفائدة، ولو قسَّم الشخص وقته، وخصص أوقاتًا للدراسة، وأوقاتًا للتنزه والترفيه، وأوقاتًا لتطوير الذات والبناء المعرفي، فلن يجد إشكالًا كبيرًا في حياته الجامعية.

ولا يوجد تعارض بين متطلبات الجامعة وتطوير الذات، بل يظهر التعارض بسبب عدم القدرة علىٰ إدارة الوقت وتنظيمه بشكل جيد، وهناك أناس متميزون في تخصصاتهم ويحرصون علىٰ التطوير الشخصي.

وهناك وجهة نظر أخرىٰ، وهي أن هذا يختلف باختلاف التخصصات، فحياة بعض الناس مثل القطار، فهناك طريق، وهناك محطات، وهناك نهاية، ولا بد أن يسير كل شيء في الوقت المحدد مسبقًا. وحياة بعض الناس مثل

السفينة التي تسير علىٰ مهل، وقد تقف وينزل ركابها إلىٰ الماء للسباحة والصيد وغير ذلك، فمن المهم أن تصل السفينة إلىٰ وجهتها، ولكن عامل الوقت ليس مهمًّا.

فيرىٰ البعض أن حياة الطالب الجامعي -في بعض التخصصات الجامعية- مثل القطار، فالطالب عنده جدول المحاضرات، ومواعيد الاختبارات، ثم نهاية العام وغير ذلك. فهذا لا يشتغل بشيء، بل عليه التركيز علىٰ دراسته، والاجتهاد في المسار، وترك أي شيء يحرفه عن المسار.

ويرىٰ أصحاب هذا الاتجاه أن رغبات الطالب الجامعي ينبغي أن تكون بالتوالي مع الدراسة وليس بالتوازي، فيمكن أن يفعل ما يريد خلال العطلة، لكن في أثناء الدراسة يكون التركيز علىٰ المذاكرة وحدها.

وبذلك فللطالب أن يختار من الرأيين ما يناسب حاله، والتجربة أثبتت أن بعض الناس استطاع أن يتميز في دراسته، وأن يكون عنده أنشطة أخرىٰ؛ كالتطوير الذاتي، والقراءة والاطلاع. وهذا يختلف باختلاف قدرة الشخص علىٰ تنظيم وقته، وجديته، وحرصه.

الجامعة والتطوع:

كثير من الجامعات في المملكة وخارجها جعلت التطوع من الساعات الدراسية التي تُحسب للطالب في معدله التراكمي، وبعضهم يعتبر ذلك جزءًا من تطوير الإنسان نفسه وشخصيته، والتطوع مهم لأي طالب في المرحلة الجامعية؛ لأنه يعطيه مهارات، ويُكسبه علاقات جديدة، وله أجر كبير في الآخرة، وقد يتعلم الطالب من خارج الجامعة شيئًا يفوق ما يتعلمه في الجامعة، وتجارب الشباب الذين شاركوا في التطوع ثرية، ودائمًا نجدهم متقدمين علىٰ غيرهم دراسيًّا؛ لأن عندهم مهارات، وقدرات، وخبرات ليست موجودة عند غيرهم.

بين التطوع والتحصيل الدراسي:

من القيود في التطوع ألا يُفرِط الطالب في العطاء التطوعي بحيث يؤثر علىٰ دراسته بالسلب، فبعض الشباب يبذل في التطوع جل وقته، وقد يكون ذلك سببًا في إخفاقه الدراسي، فالدراسة هي أهم أولويات الطالب؛ لأنه مسؤول عنها ومحاسب عليها، وما بقي من وقت فهو للتطوع، فالتطوع لا بد منه، لكنه يُعطَىٰ قدرًا ووقتًا لا يؤثران علىٰ الدراسة والتحصيل، وما أحسن أن يكون التطوع في نفس تخصص الطالب الذي يدرسه، فهذا أدعىٰ لتفوقه وبناء معرفته وتقوية تجربته.

الالتحاق بالدراسات العليا:

الدراسات العليا ظاهرة صحية؛ لأنها تتيح للإنسان فرصة للتطوير، والبناء المعرفي المتخصص، وتعطي مهارات لا يمتلكها إلا مَن درس في الدراسات العليا، ومن تلك المهارات: البحث والمناقشة والتفكير المنطقي، لكن ليس هذا علىٰ إطلاقه، والسؤال الذي ينبغي أن يسأله الإنسان نفسه: لماذا أدرس الدراسات العليا؟

بعض الناس يلتحق بالدراسات العليا؛ لأنه لم يجد وظيفة، وبعضهم يلتحق بها تقليدًا لزملائه! وعلىٰ كلٍّ، فالدراسات العليا خيار جيد؛ لأنها تبني الإنسان معرفيًّا، وفي نفس الوقت تعطيه فرصًا أكبر لدراسة الماجستير ثم الدكتوراه. وهذا بلا شك أمر محمود.

الجامعة والعلاقات:

الجامعة فرصة كبيرة كي يبني الطالب علاقات قوية مع الطلاب، ومع الإداريين، ومع أعضاء هيئة التدريس. وبعض الناس يتعلم بالعلاقات ويستفيد منها، وبذلك فهي من الأشياء التي تتميز بها المرحلة الجامعية. والناس داخل الجامعة أصناف:

- **الأصدقاء**، وهؤلاء لهم حقوقهم، وعلىٰ الشاب واجبات تجاههم.

- **الزملاء**، والعلاقة معهم تكون في حدود الزمالة والاحترام المتبادل.

- **الإداريون**، وينبغي أن يحرص الطالب علىٰ علاقة جيدة معهم.

- **الأستاذ الجامعي**، ويكون ذلك بتقديره واحترامه واستنطاق ما لديه من معارف وخبرات، وقد تؤثر هذه العلاقة في الطالب، فيستفيد من أستاذه الجامعي في تخصصه وطلب العلم. كما يمكن للطالب أن يستفيد من الأستاذ في الاستشارات العلمية، والتوجيه، والإشراف علىٰ البحوث.

والإشكال أن بعض الطلاب في هذه المرحلة لا يعطي الأستاذ الجامعي قيمته، وتبقىٰ العلاقة متوترة بسبب الدرجات، أو صعوبة المادة العلمية، أو غير ذلك، وعلىٰ الطالب أن يتجاوز هذه الخلافات الجزئية، ويستفيد أكبر استفادة من الأستاذ.

الجامعة وطلب العلم والحصول علىٰ الشهادة:

يقول النبي ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ**»[(١)]. فلو استشعر كل شاب أن الله جل وعلا يُسهِّل له طريقًا إلىٰ الجنة أثناء ذهابه إلىٰ الجامعة لاجتهد في التحصيل، وطاب نفسًا بما يفعل. وفي الحديث الآخر: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(٢)]. فإذا كان الطالب ذاهبًا إلىٰ الكلية، وعلم أن هذا من الخير العميم الذي أتاحه الله ﷻ له، فإن نظرته للجامعة ستختلف.

ولا ينبغي أن يكتفي الإنسان بما يُحصِّله من معلومات في قاعات الدرس، بل ينبغي عليه أن يعرف أنه في مكان علم، وعليه الحرص علىٰ الطلب بكل ما يستطيع من سمع، وبصر، وكتابة، فهذه مرحلة ذهبية في حياة الشاب سيبقىٰ أثرها في المستقبل.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٩٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).

الجامعة والمعدل الدراسي:

المعدل الدراسي يعتمد علىٰ اجتهاد الشخص خلال الدراسة، وعلىٰ حرصه علىٰ الاختبارات وأدائها بشكل مناسب. فالمعدل مهم جدًّا، وخصوصًا في الفصول الأولىٰ، ولا يعني الحصول علىٰ معدل عالٍ في الفصول الأولىٰ أن يُهمِل في بقية الفصول، بل يجب أن يحافظ علىٰ المعدل العالي بشكل مستمر، بحيث تكون درجاته في النهاية مرضية له ولأسرته؛ لأن الشهادة ستمثل الإنسان في سوق العمل بعد ذلك.

الجامعة والقيم:

توجد دراسة بعنوان (المهارات القيادية لطلاب الجامعة)، للدكتور/ مبارك آل السيف، وكان أول أمر أكَّدت عليه الدراسة هو تعزيز جانب القيم كالصدق وغيره، والمحافظة علىٰ العبادات، لأن الأستاذ الجامعي قد يسأل الطالب: لماذا تغيبت؟ فيذكر الطالب أعذارًا كاذبة، كادعاء موت قريب له، أو ادعاء المرض أو غير ذلك.

ومن ذلك أيضًا: الغش في الاختبارات، ففي الحديث: «**... أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ**»(١). وإطابة مطعم الإنسان تكون بأن يحرص علىٰ أن يكون حلالًا، والكذب للحصول علىٰ درجات أعلىٰ يدخل ضمن الأكل الحرام.

ومن ذلك أيضًا: ألا يهمل الطالب علاقته بالله تعالىٰ؛ لأنها هي التي تبقىٰ في الآخرة، ولا ينبغي أن تكون العلاقة بالله من أجل الدراسة فقط، فلا يكون الطالب ممن قيل فيهم:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٤٩٥).

صلىٰ المصلي لأمر كان يطلبه		فلما انقضىٰ الأمر لا صلىٰ ولا صام

الجامعة وتغيير التخصص:

كثير من الشباب الذين يدرسون في المرحلة الجامعية يغيرون تخصصاتهم؛ إما لعدم الرغبة في التخصص الحالي، وإما لعدم توافق مع القدرات الشخصية، وإما لإخفاق ورسوب، وإما لظروف مختلفة يمرَّ بها الطالب.

إن الشخص إذا قرر -بعد التأمُّل والاستشارة- تغيير التخصص إلىٰ تخصص آخر يمكن أن يبدع فيه فليستعن بالله تعالىٰ، ويغير التخصص لما هو أفضل أو أنسب.

وكثير من المشهورين دخلوا تخصصات وغيَّروها، فبعضهم انتقل من الطب إلىٰ الشريعة، وبعضهم انتقل من الطب إلىٰ الإعلام، وأبدعوا كثيرًا في تخصصاتهم الجديدة، وصاحب كتاب (ثاني لفة يمين) وهو الدكتور/ أمجد الجنباز كان يدرس طب أسنان، وبعد تخرجه غيَّر اهتمامه ومجاله، وانتقل إلىٰ ريادة الأعمال، وأبدع فيه.

الجامعة والأهل:

بعض الأهل يتدخلون في حياة الطالب الجامعية، بداية من اختيار التخصص، ثم الضغط علىٰ الطالب في بعض الأمور الدراسية وغير ذلك. إن الوضوح والشفافية مع الأهل، والأخذ برأيهم، والاستنارة برأي الوالدين، والموازنة بين ما يريده الطالب وما يريد الأهل يحتاج درجة عالية من الذكاء الاجتماعي، فيسعىٰ الطالب إلىٰ تحقيق ما يريد، مع عدم التصادم مع الوالدين.

والأهل نوعان فيما يتعلق بالجامعة وأحوالها:

- يوجد بعض أولياء الأمور معلوماتهم مُحدَّثة، فالأب يتابع التخصصات، وسوق العمل، فهذا يُستشار ويُؤخَذ برأيه.

- يوجد بعض أولياء الأمور الذين لا يعرفون التخصصات، ولا سوق العمل، فهؤلاء يُستأنَس برأيهم، وعلىٰ الطالب أن يطلَب منهم الدعاء له، ولا يأخذ رأيهم علىٰ محمل الجدِّ.

لكن في كلا الحالتين لا يمكن للطالب أن يقلل من مشورة الوالدين، فنقول للوالد: لا تُجبر الابن علىٰ ما لا يريد، ونقول للابن: أحسنْ إلىٰ والديك يرضَ ربُّك، فيرضيك بإذنه تعالىٰ.

أذكر أحد الشباب -هو الآن قاضٍ- حصل علىٰ نسبة ٩٨% في اختبار القدرات، وكانت قدراته تؤهله لدخول كلية الطب، فدخلها، وفي الوقت ذاته سجَّل في كلية الشريعة -وكان النظام قديمًا يسمح بالتسجيل في أكثر من جامعة-، وفي النهاية أقنع والديه بأن الطب لا يناسبه، ثم اتجه إلىٰ الشريعة، وهو الآن يعمل في وظيفة مرموقة.

هل عدم دخول الجامعة هو نهاية الحياة؟

هناك كثير من الناس لم يدخلوا الجامعة، وحققوا نجاحات كبيرة في مجالات أخرىٰ: كالتجارة، والتأثير في الآخرين، وهناك مَنْ لم يدخل جامعة وتوظف، ثم درس عن بُعد، وأكمل دراسته العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

إن عدم حصول الإنسان علىٰ شهادة جامعية لا يعني نهاية العالم، بل هناك فرص كثيرة لمن يسعىٰ إليها؛ لأن الشهادة الجامعية أقصر الطرق للنجاح وأيسرها، ولكنها ليست أفضلها.

وفي النهاية -أوصيك طالب العلم- بطاعة الله ﷻ والوالدين، ثم أحط نفسك بالمتميزين في دراستهم وقيمهم؛ لأن مَنْ تصاحبهم اليوم سيؤثرون فيك علىٰ المستوىٰ المتوسط والبعيد. فبعض الشباب يصادق مَن يجلس بجواره في مقعد الدراسة دون سابق معرفة به، بل أوصي بأن يستغرق الطالب وقتًا في اختيار

أصدقائه، واختبار معادن الرجال، ثم بعد ذلك يقترب من بعضهم ويكوِّن علاقة صداقة معه، حتىٰ تكون علاقة صالحة مفيدة بإذن الله تعالىٰ.

مراجع للاستزادة:

- عشرة أمور تمنيت لو عرفتها قبل الجامعة، ياسر بكار.
- كتاب الطالب الجامعي إلىٰ القمة، بلال الحديثي.
- كتاب ممر، د. بندر آل جلالة.
- كتاب ادرس بذكاء، وليس بجهد، كيفن بول.

الفصل الثامن
سـؤال المهارة

نتناول في هذا الفصل «سؤال المهارة»، فالشباب يتساءلون: ما مهاراتي؟ وماذا أمتلك؟ وما مواهبي؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تتعلق بالمهارة. فهل هذه الأسئلة مقلقة؟

ما المقصود بالمهارات؟

المهارة هي: القدرة علىٰ أداء مهمة أو نشاط من خلال التدريب والممارسة.

مثل شخص يريد أن يتعلم الإلقاء، فيبدأ بالتدريب والممارسة والتجربة، وبذلك يمتلك هذه المهارة، ويصبح متقنًا لها.

أهمية المهارات:

إن سؤال المهارة مهم لأسباب متعددة، منها:

- من المعلوم أن الإنسان مدني بطبعه، وما دام الإنسان مدنيًّا، فهو يختلط بالناس، ويلتقي معهم ويحاروهم، وهذه المدنية تجعل الإنسان في حاجة إلىٰ بعض المهارات التي يتعامل بها مع الآخرين.

- أن الإنسان يمرُّ بمواقف يحتاج إلىٰ أن يتصرف فيها بطريقة صحيحة، وهذا نوع من الإتقان والإحسان الذي ينبغي علىٰ الإنسان فعله.

- أن نهضة كثير من الأمم والدول والشعوب مرتبطة بامتلاك شعبها عدد من المهارات التي تجعلهم يتقدمون ويزدهرون.

- أن الإنسان يمرُّ بمنعطفات وتقلبات في حياته، والمهارات تساعده علىٰ الاستمرار، والخروج من الأزمات، ومن مشكلات بعض الناس أنه يمرُّ بمواقف وأحداث لا يستطيع أن يتجاوزها بسبب ضعف مهارته.

- أن الله تعالىٰ سخَّر الناس بعضهم لبعض، فأحدهم يمتلك مهارة لا يتقنها الآخر، والعكس، فيحتاج كل واحد ما عند الآخر، وبالتالي يصبح المجتمع متعاونًا متكاملًا متكاتفًا، بناءً علىٰ أن كل واحد يكمل نقص الآخر.

- أن المهارات مؤثرة في الحصول علىٰ فرصة عمل، وبالتالي الحصول علىٰ مصدر للدخل، وبالتالي تحسين حالة الإنسان المادية.

- أن تقدير الإنسان لذاته مبني علىٰ تحقيقه لذاته، وتحقيقه لذاته مبني علىٰ أن يحقق منجزات، وتحقيق المنجزات -بعد توفيق الله ﷻ- مبني علىٰ إتقان عدد من المهارات.

- عندما يمارس الإنسان المهارات، فإنه يستثمر فيها وقته، ويصقل فيها شخصيته، ويحصد فيها إنجازاته، ويرتفع تقديره لذاته، وتتحسن حياته، ويحتاجه الناس أكثر؛ لذا كلما زادت مهاراتك زادت حاجة الناس إليك، وزاد استغناؤك عن الناس، وكلما قلَّت مهاراتك زادتك حاجتك للناس، وزاد استغناء الناس عنك.

- أن الإنسان قد يُسأل عن إهمال المهارات يوم القيامة، يقول الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق: ٧]. فالله تعالىٰ لا يخلق المهارات عبثًا، فلماذا لم يستثمرها صاحبها ويستغلها؟ ولماذا لا ينفع بها الآخرين؟

الفرق بين المهارة والكفاءة والكفاية والقدرة والموهبة:

الكفاءة هي: الحد الأعلىٰ من المهارة.

الكفاية هي: الحد الأدنىٰ من المهارة.

القدرة هي: استعدادات فطرية عند الإنسان تحتاج إلىٰ تطوير.

الموهبة هي: نبوغ في مهارة يُولَد به الإنسان.

ومثال الفرق بين القدرة والموهبة: قد يكون عند الإنسان قدرة علىٰ الإقناع، وقدرة علىٰ التحليل، لكن عنده موهبة في الإلقاء، فهو يعمل هذا الفعل دون جهد، ومع ذلك يفوق الآخرين فيه.

ومثال الفرق بين الكفاية والكفاءة: أن الشخص يستطيع فتح الجوال، ويستخدمه في الاتصال والتواصل، فهو يمتلك حد الكفاية، أما إذا استطاع أن يبرمج التطبيقات الهاتفية، ويعمل الصيانة، فهذا يمتلك الكفاءة.

إن الموهبة من الفعل «وهب» ويولد الإنسان بها، فإذا تركها ذبلت وماتت؛ لذلك ذكر جون ماكسويل في كتابه (الموهبة وحدها لا تكفي)، أن الموهبة قد تضرُّ بأصحابها؛ لأن اتكال الإنسان علىٰ الموهبة يجعل غير الموهوب يفوق الموهوب من خلال التدريب والتعليم والمحاولة والإصرار؛ لأنه يريد أن يمتلك المهارة في هذا الشيء، فيفُوق الموهوبَ الذي اعتمد علىٰ موهبته فقط دون تطويرها. وتقول العرب: (رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة)، أي: يوجد أناس يُولدون مفوهين لكن هذا يحتاج إلىٰ تدريب وممارسة، فالعرب يشبهون المهارة بالخيمة التي رأسها الطبع (وهو الموهبة)، وعمودها الدُّربة والمحاولة والتدريب والتطوير.

بين الرغبة والقدرة:

الرغبة هي: الميول والدوافع لفعل شيء.

والرغبة لها عنصران، هما: الميول والدوافع، والفرق بينهما أن الميول تكون قبل الفعل، والدوافع تكون أثناء الفعل.

والقدرة هي: الاستطاعة علىٰ الفعل.

والقدرة لها عنصران أيضًا، هما: المعرفة، والمهارة.

فالمعرفة هي: العلم بكل أمر يريده الإنسان، وهي أنواع:

- معرفةٌ قبل الفعل.
- معرفةٌ في أثناء الفعل.
- معرفةٌ بعد الفعل (التغذية الراجعة).

والمهارة هي: القدرة علىٰ فعل الشيء باحترافية. وتحتاج إلىٰ استمرار وتغذية راجعة وزيادة مستوىٰ التحدي.

ويمكن القول: إن الفرق بين المهارة والموهبة، هو أن:

- المعرفة تأتي قبل الموهبة.
- المعرفة تأتي بعد المهارة.

ومن غير المقبول أن نرىٰ أناسًا عندهم مواهب وقدرات وإمكانات، وبسبب ضعف تطويرهم لها أو عدم اهتمامهم بها، يفرِّطون في هذه المواهب؛ لذلك قيل:

ولَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ القَادِرِينَ علىٰ التَّمامِ

وأشار ستيف أولشر في كتابه (ما هي ميزتك الوحيدة؟) إلىٰ أن كل شخص عنده موهبة، وإذا استطاع الإنسان أن يكتشف هذه الموهبة التي آتاه الله تعالىٰ إياه، ويطوَّرها من خلال التدريب والممارسة والمعرفة والرغبة فسيكون ذلك نقطة تحول في حياته.

وتُقاس المهارات بمعيار بسيط، وهو: (أن يعمل الشخص أسرعَ بأخطاءٍ أقل)، وهذا من المؤشرات التي يمكن أن يقيس بها الإنسان مهاراته.

اكتشاف المهارات:

اكتشاف المهارات فرع عن اكتشاف الإنسان نفسه، ويكون ذلك من خلال الإجابة عن سؤال: مَنْ أنا؟ فهذا السؤال يكتشف القدرات، والمجالات، والتخصصات، والمهارات. فالأدوات -التي سبق ذكرها في اكتشاف المشروع، أو الثغر، أو اكتشاف النفس- كثيرة، منها:

- الاختبارات الشخصية.
- التأمُّل.
- استشارة الآخرين.
- التجربة والممارسة.

توجد نقطتان مهمتان في قضية الاكتشاف لا بد أن يتحلىٰ بهما الإنسان حتىٰ يكتشف قدراته، هما:

- **الصدق والصراحة مع النفس**، فعلىٰ الإنسان أن يُقسِّم المهارات إلىٰ قسمين، هما: المهارات التي يتقنها، والمهارات التي لا يتقنها، ويعطي نفسه درجة من عشر في كل منها، ثم يعمل علىٰ تطويرها. ولابد أن يكون الإنسان صادقًا مع نفسه فيما يتقن وما لا يتقن؛ فالإفصاح يعين علىٰ الإصلاح.

- **البعد عن التبرير**، فإذا فشل الشاب في تحقيق أهدافه فليبتعد عن التبرير، وإلقاء اللوم علىٰ الآخرين، فمثلًا: لو أدار المدرب فريقًا في مبادرة، ثم فشلت المبادرة، فعلىٰ المدرب أو المسؤول ألا يلقي اللوم علىٰ الآخرين، أو علىٰ البيئة، أو علىٰ المشروع.

ويشير براين تريسي صاحب كتاب (نقطة تركيز) إلىٰ أن الإنسان إذا فشل فعليه أن يردِّد في نفسه: أنا المسؤول؛ لأن هذا يعين الإنسان علىٰ التصحيح والإصلاح والتطوير.

فالصدق وعدم التبرير مع استخدام أدواتِ الاكتشاف يعين الشاب علىٰ اكتشاف مهاراته، والبدء في تصحيحها وإصلاحها.

إن اتهام النفس والصراحة معها صعب علىٰ النفس الإنسانية، لكن إذا عوَّد الإنسان نفسه وهذبها وتدرج في التعامل معها فإن هذا يعود بالنفع عليه في تطوير مهاراته.

كيف يكتشف الإنسان نفسه؟

من الأشياء التي تُؤرِّق الشباب والفتيات كيفية اكتشاف الذات، ولمعرفة ذلك لا بد من التفريق بين أمرين:

- الجانب المنظور من الشخصية.
- الجانب المستور من الشخصية.

إنَّ ادعاء الإنسان أنه لا يعرف نفسه غير صحيح؛ لأنه يعرف نفسه -ولو جزءًا يسيرًا منها-، وكذلك ادعاء الإنسان أنه يعرف نفسه غير صحيح؛ لأن هناك جزء مستور في نفسه -ولو جزءًا يسيرًا منها- لا يعرفه.

وورد الجانب المنظور في قول النبي يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. فهذا إفصاح عن الجانب المنظور الذي يعرفه النبي يوسف عليه السلام عن نفسه.

أما الجانب المستور فعلىٰ الإنسان «الاستنصاح»، أي: طلب النصيحة من الآخرين فيه، وفي الحديث: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ**»[1]. فالمرآة لا تأتي الإنسان، بل يذهب إليها ليرىٰ نفسه، وكذلك حال المسلم مع المسلم، وفي الحديث الآخر: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ ... وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ**»[2].

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩١٨).

(٢) رواه مسلم رقم (٢١٦٢).

فجزء كبير من معرفة مهارات الشخص أن يستنصح مَنْ يثق برأيه؛ حتىٰ يغير من شخصيته ويقومها، ويكون أفضل وأجمل وأرقىٰ وأنقىٰ.

تقول العرب: (قُرب الشيء حجاب)، أي: قرب النفس من صاحبها حجاب، فلذلك يحتاج إلىٰ آخر يخبره بعيوبه، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ولم يقل الله تعالىٰ: يعرفونه كما يعرفون أنفسهم؛ لأن الإنسان لا يعرف نفسه جيدًا، بل يعرف الآخرين أكثر من نفسه، ولم يقل الله تعالىٰ: «أنفسهم»، بل قال: «أبناءهم»؛ لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد انقضاء بُرهة من وقت. وذلك لأن في كل إنسان غيب لا يعلمه إلا الله. فقد يكون عند الإنسان مواهب لكنه لم يجرب نفسه، أو يفعل أشياء اعتاد عليها، فعطَّلت كثيرًا من قدراته، أو يظن أنه قادر علىٰ فعل شيء، وهو غير قادر عليه؛ لأنه لم يُفصِح ولم يستنصح.

وفي الحديث عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ...»**[1]. وبذلك فمعرفتُك بجهلك ضرب من المعرفة. فكون الإنسان يعرف مواطن ضعفه -من خلال الاستنصاح- يعد نوعًا من المعرفة واكتشاف الذات.

ويوجد ما يُسمَّىٰ بوهم الثقة، أو وهم المهارة والمعرفة (منحنىٰ دانينغ)، ويعني أن الإنسان يتوهم أنه ذو مهارات وخبرات، ولا يُزَال هذا الوهم إلا بمطرقة التجربة، فإذا جرَّب اكتشف هل هو قادر أو غير قادر.

أذكر أن أحد الشباب كان يرىٰ في نفسه القيادة، والقدرة علىٰ التأثير، فلما استعجل بتولي المسؤولية قبل أن ينضج، وقبل أن يكتسب الخبرة المناسبة فشل في قيادة الفريق. فأحيانًا يحتاج الإنسان إلىٰ وقت حتىٰ يطور نفسه، ويؤهلها، فيتقدم من نجاح إلىٰ نجاح.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٨٢٥).

كيف أنمِّي مهارتي؟

المهارات تُنمَّىٰ بطرق متعددة، منها:

- التدريب.
- الممارسة والتجريب.
- الاستمرارية.
- اكتساب مهارة.

وأحيانًا تأتي المهارة والخبرة في عدة صور، ومثال ذلك قول النبي ﷺ: **«مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الغَنَمَ»**، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: **«نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»**(١). ورعي الغنم فيه تمرين للنبي ﷺ وللأنبياء من قبله؛ لأن الغنم منها الضعيف والقوي، والصغير والكبير، والمعتدي والمعتدىٰ عليه .. إلخ، وهذا نوع من التمرين؛ ليتحول النبي ﷺ بعد ذلك من رعي الغنم إلىٰ قيادة الأمم.

يقول أحد الشباب: كان أبي يشجِّع ناديًا رياضيًّا، وكان يأتيني بالجرائد، ويقول: خذ القلم وضع خطًّا تحت كل كلمة «نادي» وردت في الجريدة ... يقول الشاب: فاكتسبت مهارة القراءة السريعة! وأنا أحمدُ تلك المهامَّ التي كان يعطينيها والدي.

فأي عمل -مهما كان صغيرًا- يُكسِب الإنسان المهارات المختلفة، كمهارة الصبر، ومهارة المتابعة، ومهارة الإدارة وغير ذلك، وهذه المهام الصغيرة كالبذور إذا سقاها صاحبها بالممارسة فإنها تنمو كأجمل الشجر في بستان الشخصية.

إن العمل في الجامعات، وفي الأندية الطلابية، وفي البيئات الشبابية ... ينمِّي كثيرًا من المهارات، وأذكر قول أحد الشباب: كنتُ في البداية ألقي علىٰ

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٢٦٢).

مجموعة من الأصدقاء الشعر وغيرَهُ، وكنتُ أحاول أن أقدم مسابقات، ثم أصبحت من المميزين في فن الإلقاء بعد مُدَّة. فإذا أردتَ أن «تتطور» فحوِّل الراء إلىٰ عين.

أنواع المهارات:

المهارات متعددة، منها:

- المهارات العقلية.
- المهارات النفسية.
- المهارات الاجتماعية.
- المهارات التقنية.
- المهارات الحياتية.

وبعضهم يقسمها إلىٰ: مهارات عامة، ومهارات خاصة. فالمهارات العامة تفيد في كل التخصصات، والمهارات الخاصة تفيد تخصصًا دون الآخر.

المهارات الشبابية:

سبق في «سؤال الجامعة» ذكر بعض المهارات، وهي:

- إدارة الوقت.
- ترتيب الأولويات.
- مهارات التفكير (التفكير الناقد).
- اتخاذ القرار.
- التواصل والاتصال.
- التعامل مع الآخرين.
- المهارات التقنية، التي تعين الشاب علىٰ الإنجاز بسرعة.

- المهارات النفسية، مثل: المرونة، والقدرة علىٰ التأقلم والتكيُّف.

- الذكاء العاطفي، ويعني فهم الإنسان مشاعره وانفعالاته.

- الذكاء الاجتماعي، وهو قدرة الشخص علىٰ التواصل مع الآخرين وفهمهم.

ويمكن للشاب أن يطلع علىٰ مزيد من هذه المهارات في كتاب (الذكاء العاطفي) لدانيل جولمان، وهو أحد الكتب المهمة في هذا الباب، وتوجد قنوات في يوتيوب تهتم بالحديث عن المهارات، مثل (قناة عليّ وكتاب) وغيرها.

وفي دراسة جامعية علىٰ مجموعة من الطلاب، حصرت الدراسة درجات الطلاب في المدرسة، وصنفت ثلاثة أقسام:

- قسم مميز دراسيًّا، وأطلقوا عليه القائمة (A).

- قسم جيد دراسيًّا، وأطلقوا عليه القائمة (B).

- قسم ضعيف دراسيًّا، وأطلقوا عليه القائمة (C).

ورصدوهم لمدة أربعين سنة، ثم جاءت نتيجة الدراسة كالآتي: القائمة (A) يعملون في شركات تديرها القائمة (B)، وتمتلكها القائمة (C).

وكانت نتائج تحليل هذه الدراسة أن الطلاب في القائمة (A) كانون يركزون علىٰ المعرفة أكثر من العلاقات، وأن الطلاب في القائمة (C) كانوا يركزون علىٰ بناء العلاقات والتواصل، ولما تخرجوا من الجامعة كانت العلاقات ذات أهمية كبرىٰ في الحياة.

إن جودة الحياة مبنية علىٰ جودة علاقات الإنسان مع الآخرين، وأن الشهادة الجامعية تُدخلك باب العمل، لكن الذي يقفز بك هو الإتقان وجودة العلاقات.

أعرف أحد أساتذة الجامعات قضىٰ وقتًا طويلًا في مكتبته للقراءة والاطلاع، وبقي سنوات منعزلًا، فلما أراد الخروج للناس ونقل هذه المعارف ما

استطاع؛ لأنه فقد كثيرًا من المهارات الاجتماعية، ولم تكن عنده قدرة علىٰ الاندماج، وليس عنده قدرة علىٰ الوصول والتأثير؛ ولذلك فالتوازن بين المعرفة والمهارة والاستفادة من القدرات والاتجاهات مهم، بحيث يستطيع الإنسان نقل معارفه، والتأثير في الناس.

مهارتا التحدث والإلقاء:

هاتان المهارتان من المهارات المهمة للشباب، ولما اصطفىٰ الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام وبعثه إلىٰ فرعون، لم يطلب النبي موسىٰ عليه السلام العدة والعتاد، وإنما قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧]. ولذلك لما أراد فرعون أن يُجري مقارنة بينه وبين موسىٰ عليه السلام قال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. كأن فرعون قال: هذا لا يحسن الكلام، فكيف يكون نبيًّا؟!

إن مهارة الإلقاء تُكسب الشاب مهارات متعددة، حيث يطور أداءه، ويعطيه مزيدًا من الفرص، والفرص تمنح الشاب الكثير من النجاحات، والنجاحات ترفع تقديره لذاته، فيكون أكثر مبادرة وإنجازًا وتطويرًا لنفسه؛ لذلك قال الملك في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤]. فحكم الملكُ علىٰ يوسف عليه السلام من خلال كلامه معه!

إن كثيرًا من الناس يتعلم هذه المهارات لربطها بالتنمية البشرية، أو ربطها بالفكر الغربي، أو ربطها بعدد من الأفكار الدخيلة علينا. ويحكي الدكتور/ إبراهيم القعيد قصة تأليفه كتاب (العادات العشر للشخصية الناجحة)، يقول: إنه كان يقرأ كتاب (كيف تكسب أصدقاء وتؤثر في الناس؟) لديل كارنيجي، وكارنيجي له كتاب آخر اسمه (دع القلق وابدأ الحياة)، وبالتزامن مع قراءة هذا الكتاب قرأ رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة). المقصود أن هناك كتبًا تحدثت عن اكتساب المهارات والعادات بمرجعية إسلامية.

كما أن العادات العشر فكرتها مأخوذة من كتاب (العادات السبع للشخصية الأكثر فاعلية) لستيفن كوفي، ويوجد للدكتور/ أيمن أسعد عبده كتاب (التغيير من الداخل تأملات في العادات السبع)، يقول أيمن أسعد: إنه تأمل هذه العادات السبع من خلال عدة قراءات لهذا الكتاب، وقد قدَّم أحمد البراء الأميري لكتاب (التغيير من الداخل)، وإن أحمد البراء الأميري كان مهتمًّا بكتاب ستيفن كوفي، وألَّف الأميري عدة كتب ذات خلفية إسلامية، منها: (فنِّ التفكير)، و(اللياقات الست).

ولما قرأ أيمن أسعد هذا الكتاب وتأمله، وحضر عددًا من الدورات عن ستيفن كوفي، يقول: بدأت أتأمل هذه العادات السبع، وأناقشها مع عدد من الأصدقاء، وجدتُ أن هذه العادات السبع سنن كونية يتفق فيها المسلم والكافر، ومَنْ أخذ بها حصل علىٰ الفاعلية والنجاح، ومَنْ تركها قد يعوقه ذلك عن النجاح.

هل المهارات وحدها تكفي؟

الإنسان فيه ثلاثة مكونات رئيسة، وعليه أن يوازن بينها، وهي:

- المكون المعرفي.
- المكون السلوكي.
- المكون المهاري.

إن تركيز الشاب علىٰ المكون المهاري مع فقدانه المكونين المعرفي والسلوكي يجعله يفقد توازنه، فهناك قضايا تحتاج إلىٰ معرفة، وهناك قضايا تحتاج إلىٰ تعديل سلوك، ويجب علىٰ الشاب السير بالتوازي في هذه المكونات الثلاثة.

التداخل والتعارض بين المهارة والرزق:

يوجد أناس كثيرون صارت مهاراتهم مصدر رزق لهم، وحصلوا منها علىٰ مصدر للدخل أو وظيفة، أو حصلوا من خلالها علىٰ مكانة عالية اجتماعيًّا.

المهارات والشهادات الجامعية:

يوجد توجُّهٌ يرفع من شأن المهارات، ويحط من شأن الشهادات، والحقيقة أن المهارات وحدها لا تكفي بدون شهادة؛ لأن الشاب مهما امتلك من المهارات والقدرات دون شهادة فإن هذا يغلق في وجهه أبوابًا كثيرة، إذن الجمع بين الشهادة والمهارة هو المطلوب، وهو أفضل من الاكتفاء بإحديهما.

أين يستثمر الشاب مواهبه ومهاراته؟

يمكن فعل ذلك من خلال الالتحاق بالجامعات المفتوحة، ومتابعة قنوات يوتيوب، ومطالعة الكتب والدراسات، وكذلك المواقع الإلكترونية المهتمة بالتدريب، مثل: «رواق»، و«دراك»، وغيرهما. وهذه الوسائل تعطي الشاب نصف المهارة (التي هي المعرفة)، ويبقىٰ النصف الآخر وهو التطبيق، والممارسة، والمداومة، والتغذية الراجعة، والتحسين.

آفات اكتساب المهارة:

للمهارة آفات وأضرار متعددة، منها:

- التركيز علىٰ مهارة قد يجعل الإنسان ينسىٰ أشياء مهمة، مثل المعرفة.

- أن المهارة تستغرق وقتًا وجهدًا، فيفرط الإنسان في جوانب أخرىٰ في حياته.

- التمركز حول المهارة يُضعف جوانب أخرىٰ عند الإنسان إذا لم ينتبه إلىٰ هذا.

ويمكن حصر آفات المهارات في أربعة «ميمات»، وهي (مشروعة - مسموح بها - مُؤَمَّنَة - مفيدة):

- **مشروعة،** فالمهارة الحرام يجب التخلص منها، أو توجيهها إلىٰ الحلال.
- **مسموح بها،** فبعض المهارات ممنوعة قانونًا، ومخالفة للأنظمة.
- **مُؤَمَّنَة،** أي: ليست خطيرة؛ كالقفز من الأماكن المرتفعة وغيرها من الأعمال الضارة.
- **مفيدة،** أي: أن تكون نافعة لصحابها ولغيره ممن حوله.

مراجع للاستزادة:

- الشخصية القوية، ياسر الحزيمي.
- الخطوة السابعة، ثامر اليحيىٰ.
- العادات العشر للشخصية الناجحة، إبراهيم القعيد.
- فن التفكير، اللياقات الست، أحمد البراء الأميري.
- الموهبة وحدها لا تكفي، جون ماكسويل.
- نقطة تركيز، براين تريسي.
- الذكاء العاطفي، دانييل جولمان.
- كيف تكسب أصدقاء وتؤثر في الناس؟ ديل كارنيجي.
- دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي.
- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، عبد الرحمن السعدي.
- جدد حياتك، محمد الغزالي.
- العادات السبع للشخصية الأكثر فعالية، ستيفن كوفي.
- التغيير من الداخل تأملات في العادات السبع، أيمن أسعد عبده.

الفصل التاسع
سؤال الوظيفة

نتناول في هذا الفصل «سؤال الوظيفة»، حيث نتطرق إلىٰ بيان ماهية الوظيفة، ولماذا هذا السؤال مقلق للشباب والفتيات، مع بعض الإضاءات التي تساعد الشاب في الحصول علىٰ فرصة عمل.

ما المقصود بالوظيفة؟

الوظيفة هي: الدور أو العمل أو الجهد الذي يقوم به الشخص من أجل الحصول علىٰ مصدر دخل بشكل منتظم.

ويقول بعضهم: الوظيفة هي: الواجبات والمسؤوليات التي يقوم بها الموظف تجاه العمل الذي يعمل فيه.

لماذا نتحدث سؤال الوظيفة؟

- المتغيرات في المجالات المختلفة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، مرور العالم اليوم بأزمة فيروس كورونا، وهذه الأزمة ألقت بظلالها علىٰ القطاع الخاص، والقطاع الحكومي، وهذا يؤثر علىٰ فرص التوظيف والرواتب وغير ذلك.

- حاجة الإنسان إلىٰ الرزق وقلقه تجاهه، والحرص علىٰ توفير مصدر دخل ثابت يعيش من خلاله حياة كريمة.

- حاجة الشاب إلىٰ الاستقرار علىٰ المستوىٰ الأسري، وعلىٰ المستوىٰ الاجتماعي، وعلىٰ المستوىٰ النفسي. والوظيفة توفر له الهدوء في هذه المستويات.

- كثرة الأعداد من البشر التي تقذفها المدراس والجامعات سنويًا، مع قلة الفرص المتاحة.

هذه المتغيرات جعلت سؤال الوظيفة سؤالًا مقلقًا لكثير من الشباب الذين يبحثون عن وظيفة.

مجالات التوظيف:

مجالات التوظيف ثلاثة، وهي:

- الوظائف الحكومية.
- وظائف القطاع الخاص.
- وظائف القطاع الخيري غير الربحي.

وتوجد مجالات أخرىٰ للعمل، منها:

- العمل الحر المستقل؛ كالتجارة وغيرها من المهن المختلفة.
- العمل المرن، بأن يكون العمل جزئيًّا في عدة جهات.
- العمل عن بُعد، وهو أحد أشكال العمل الحديثة.
- عرض الخدمات من خلال المنصات الإلكترونية.

ولا بد أن تتغير نظرة الشاب للوظيفة في ظل هذه المتغيرات الحاصلة، فهذا واقع يجب أن يتأقلم الشاب معه، سواء رضينا بهذا الواقع أو لم نرضَ، وذلك لأسباب منها:

- أن الوظائف كانت كثيرة في السابق، لكنها أصبحت قليلة الآن.
- المتغيرات الاقتصادية التي قد تصيب الاقتصاد العالمي من حين لآخر.

- دخول التقنية قلَّل من احتياج الناس للموظفين.

- الثورة الصناعية الرابعة، والذكاء الصناعي وغير ذلك مما يؤثر في فرص التوظيف.

ولهذه الأسباب فإن وزارة الموارد البشرية والتنمية الاجتماعية تحفِّز الشباب للعمل في القطاع الخيري وغير الربحي، حيث تنشر ثقافة تمكين الشباب والبحث عن فرص عمل بديلة.

وتوجد دراسة أُجريت من خلال الوزارة عن المحفزات العشرة لاستبقاء الكفاءات الوظيفية في القطاع غير الربحي، وتهدف هذه الدراسة إلىٰ تحفيز الناس علىٰ البقاء في القطاع غير الربحي؛ لكونه أحد مسارات التوظيف اليوم.

وتوجد منصات متعددة للبحث عن وظائف، مثل: ساند، وطاقات، وخبرات، وحافز، وغيرها من منصات العمل الحر، كل هذه المنصات تقدم وظائف بأشكال مختلفة، فالاطلاع عليها، وتسجيل البيانات فيها يساعد علىٰ توفير فرص جيدة للتوظيف.

مهارات المتقدم للوظيفة:

المهارات لها ثلاثة مسارات، هي:

- **المهارات الشخصية**: وهي التي يتميز فيها الشخص عن الآخرين، ولا بد أن يطور الإنسان هذه المهارات باستمرار.

- **المهارات المهنية**: فكل مهنة لها مهارات خاصة بها، وينبغي علىٰ الشاب إتقانها قبل العمل فيها.

- **المهارات التقنية**: فالتقنية أحد المسارات الكبرىٰ في الأعمال، مثل كيفية التعامل مع الحاسوب وبرامج الأوفيس والتطبيقات المستخدمة في العمل.

وتوجد مهارات جزئية داخلَ هذه المهارات الثلاث، ومنها:

- مهارات التواصل، وتعني كيفية تعامل الموظف مع زملائه ورؤسائه ومرؤوسيه.

- مهارة الذكاء الاجتماعي والعاطفي، وسبق بيانها في «سؤال المهارة».

- مهارات إتقان العمل والإنتاجية.

- إدارة الوقت، وإدارة الأولويات.

يقال: وأنت في العمل ارفع شعار (هندام وابتسام، وإتقان وبيان)، أي: ينبغي أن يكون هندام الإنسان مناسبًا، وأن يكون صاحب ابتسامة وتعامل راقٍ، وعنده إتقان للعمل، وعنده قدرة علىٰ الكلام والحديث عن إنجازاته ومشكلاته وتحدياته التي تواجهه في العمل.

وورد في قصة موسىٰ عليه السلام معيار «القوي الأمين»، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وهما معياران مهمان في التواصل مع الآخرين. ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ** عز وجل **يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[١].

خطوات باتجاه الوظيفة:

توجد العديد من الخطوات والآليات التي يمكن منها البدء في الحصول علىٰ وظيفة مناسبة، منها:

- لا ينبغي لأي باحث عن وظيفة أن يقف مكتوف اليدين، أو أن يُصاب بالإحباط واليأس، بل ننصحه بأن يبذل الأسباب، مع التوكل علىٰ الله جل وعلا.

- توجد دورات تدريبية مجانية متاحة للتدريب والتعليم. منها: إدراك، وتمهير، وغيرهما، ويمكن للشاب الاطلاع عليها والاستفادة منها.

- دراسة الدبلومات المعتمدة في التخصصات المختلفة، كالدبلومة في التربية أو الإدارة، وهذه تعطي الباحث عن عمل تفوقًا علىٰ غيره.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٩٧).

- الأعمال التطوعية، وقد لا يكون لها عائد مادي كبير، لكن لها عائد معنوي؛ كالأجر من الله تعالىٰ، واكتساب المهارات، وبناء العلاقات، وغير ذلك.

ثنائية الخبرة والوظيفة:

توجد معضلة وثنائية صعبة الانضباط، وهي أن الوظيفة تحتاج إلىٰ خبرة، والخبرة تحتاج إلىٰ وظيفة! فما الذي يستطيع أن يفعله الشاب ليخرج من هذه الدائرة التي لا تنتهي؟

- **الأعمال التطوعية**، حيث يمكن أن يكتسب الشاب منها خبرات في عدة مجالات.

- **القبول بالعمل المؤقت** (العمل الجزئي)، كأن يعرض الشاب علىٰ صاحب العمل أن يعمل لمدة ثلاثة أشهر مجانًا. أو العمل بأجر قليل، فهناك شركات لا تقبل التوظيف، لكن يمكن العمل معها بعقد مؤقت.

- **التطبيق الميداني**، وهو موجود في بعض التخصصات، حيث يستطيع الشاب أن يطبق ما درسه خلال الدراسة، وهذه وسيلة جيدة للحصول علىٰ الخبرة.

- **الالتحاق ببعض الجهات التي تقوم بالتدريب**، مثل: صندوق «هدف» التابع للموارد البشرية الذي يقوم بالتدريب لمدة ثلاثة أشهر.

- **دراسة سوق العمل**، وذلك من خلال قيام الشاب بتتبع نشاط الشركات التي يريد أن يعمل بها، ثم يقدم لهم مقترحات مكتوبة لتطوير أعمال هذه الشركة، ويُذيِّل المقترحات باسمه وبريده الإلكتروني وشهاداته، فهذه الطريقة قد تلفت نظر أصحاب الشركة.

هذه المقترحات تسهم في إكساب الشاب خبرة في المجال الذي يبحث عن عمل فيه.

توجد نقطة مهمة ينبغي أن ينتبه إليها الباحث عن عمل، وهي أن الطالب المتخرج الذي يقدَّم للوظيفة -وقد ظل بدون عمل عدة أشهر وربما عدة سنوات-، يواجه مشكلة أثناء التوظيف، حيث يسأله رب العمل: ماذا فعلتَ خلال هذه المدة؟ ولماذا لم تطور نفسك خلال هذه المدة؟ وينبغي على الشاب الانتباه إلى ذلك.

التعامل مع المقابلات الشخصية:

تنظر اللجان المختصة بالمقابلة الشخصية للتوظيف من ثلاث زوايا، هي:

- **السمات الشخصية**، من ناحية المظهر، والانفعالات، وطريقة التفكير، والهندام، وكيفية التعامل مع الآخرين.

- **الجانب المعرفي**، إذ يجب أن يكون المتقدم إلى العمل عالمًا بذلك التخصص، والإجابات هي التي تنم عن إلمامه بهذا التخصص.

- **الخبرات والمهارات والتجارب**، التي تؤهل الإنسان للعمل في هذا المكان.

ومن الوسائل التي تعين على تجاوز المقابلات الشخصية:

- الهدوء، وعدم التعالي، والرد بشكل جيد ومناسب، والتواصل الجيد، وغير ذلك من السمات الشخصية.

- الاستفسار ممن يجري المقابلة الشخصية عن السؤال في حال عدم وضوحه.

- الاستفادة من تجربة الشباب الذين سبق لهم خوض هذه المقابلات.

- الاطلاع على الكتب التي تناولت موضوع مقابلات العمل.

- مشاهدة مقاطع في يوتيوب عن كيفية تجاوز المقابلات الشخصية.

- الانتباه أثناء المقابلة إلى الأسئلة الاستفزازية، حيث يُقصد من السؤال اختبار رد فعل المتقدم للوظيفة.

- دعاء الإنسانِ اللهَ جل وعلا بأن ييسر له، ويعينه علىٰ تجاوز المقابلة.

- أن يكون الإنسان صادقًا أثناء المقابلة، إذ لا يجوز أن يدَّعي ما لا يملك من الخبرات.

كيفية التعامل مع السيرة الذاتية:

أتعجب من الشاب المتخرج منذ مدة وليست عنده سيرة ذاتية، أو عنده سيرة ذاتية مكتوبة بطريقة غير مرتبة أو منظمة. ولكي يحصل الشاب علىٰ عمل مناسب يمكنه الاستعانة بما يلي:

- أن يبدأ الشاب كتابة سيرته الذاتية منذ المرحلة الجامعية، ويحدِّثها كل مدة، ويكتب فيها خبراته، وأعماله، وشهاداته.

- التوازن في السيرة الذاتية من حيث الطول والقصر، والاختصار والتفصيل، وألا تكون مشتتة لمن يطلع عليها.

- إبراز القدرات الشخصية والخبرات والمهارات دون تعالٍ علىٰ الآخرين.

- إرسال السيرة الذاتية من عنوان بريد إلكتروني يدل علىٰ الاحترافية والمعرفة.

- التعامل مع جهة العمل بطريقة احترافية رسمية، من خلال مراعاة الطريقة الرسمية في الحديث والتعامل.

التعامل مع عدم التوفيق:

قد يفعل الشاب كلَّ ما يجب عليه فعله أثناء التقديم للعمل، ومع ذلك لا يُوفَّق، ويظل يبحث شهورًا طويلة، فماذا يفعل؟

لا بد أن يكون لدىٰ الإنسان قناعة أن الرزق بيد الله تعالىٰ، وأنه لن يموت حتىٰ يستكمل رزقه، وأن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوه بشيء لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله تعالىٰ له. ولا بد أن يعلم أن الله جل وعلا هو

الـــرزاق، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هُود: ٦]. فالله ﷻ متكفل برزق الجميع، ولا يعجزه أن يرزق الشاب بوظيفة، لكن اللهَ جل وعلا كتب الرزق في وقت محدد، وسيصل إليه في ذلك الوقت.

ومن الوسائل التي تعين علىٰ مواجهة هذه المشكلة:

- دعاء الشاب اللهَ تعالىٰ بأن يرزقه الرزق الحلال، فقد يؤخر اللهُ جل وعلا الرزق لما هو خير وأنفع للإنسان.

- فالبكور له أثر عظيم في البحث عن الرزق، سواء في الخروج، أو في الكتابة، أو البحث عن عمل، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِيِ بُكُورِهَا**»[١].

- المتابعة المستمرة للتسجيل والبحث؛ لأن بعض الناس يظن أن السماء ستمطر ذهبًا، فيجلس ويقول: لا توجد وظائف، بل عليه أن يأخذ بالأسباب.

- البحث عن بدائل في حال لم يجد الوظيفة التي يريدها.

- ترك الإحباط واليأس، فالإحباط واليأس مما ينبغي البعد عنه.

- التواصل مع الأشخاص الذين يظن الشاب أنهم يساعدونه في الحصول علىٰ عمل.

- التحلي بالأخلاق المعينة في مثل هذا الموقف، مثل: الصبر، والإصرار، والمواصلة، والاستمرار.

يُروَىٰ أن أحد الشباب قديمًا كان يقدِّم للوظائف عن طريق مكتب البريد، حيث قدَّم أكثر من ألفي مرة، وبعد مدة لاحظ الموظفون في مكتب البريد حرصَ الشاب علىٰ البحث عن عمل، فاختاروه للعمل معهم. وهذا يدل علىٰ أهمية المتابعة والمواصلة في البحث.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦٠٦).

ومما ينبغي التحلي به أثناء البحث عن عمل التخلق مع الله بالأخلاق الحسنة، فإذا فاتته فرصة فليطفئ لهيبها بقول الله ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢]. إذا رأىٰ الشاب التيسير إلىٰ الوظيفة لشخص يظن أنه أقل منه؛ فليتذكر قول الله ﷻ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. فالتفضيل الحقيقي يكون في ميزان الآخرة.

وليعلم الشاب أن فُتات المهن خير من هبات المنن، ففي الحديث يقول النبي ﷺ: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»[1]. وليتذكر الشابُّ أن العاطلَ المحاول خير من العاطل المماطل.

وأؤكد علىٰ أن عدم حصول الشاب علىٰ وظيفة لا يعني أنه فاشل، بل معناه أنه لم يرزَق فرصة بَعدُ، وعليه أن يخرج نفسه من زحام القاع إلىٰ مزاحمة الناجحين في منصاتهم، وليرفع شعار التوكل علىٰ الله تعالىٰ، ففي الحديث: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[2].

ما بعد التوظيف:

خلال عملية التوظيف وبعدها علىٰ الموظف أن يسترشد بالخطوات التالية:

- قراءة عقد العمل قراءة واعية، ومعرفة ما فيه من حقوق وواجبات.
- الانتظام في الحضور والانصراف والواجبات الوظيفية.
- فهم بيئة العمل، والحرص علىٰ التميز فيه.
- أداء الواجب الذي عليه حتىٰ يستطيع أن يطلب الحق الذي له.
- صرف جزء من الراتب في تطوير الذات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٤٧١)، ومسلم رقم (١٠٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم (٢٠٥).

- إتقان العمل، وبذل الوسع في إخراجه في أبهىٰ صورة.

- الحذر من المطالبة بالحقوق دون بذل الواجبات.

- شكر الله تعالىٰ علىٰ المال الذي يكتسبه من الوظيفة، فلا يعصِ الله جل وعلا به، بل عليه شكر الله تعالىٰ ومراعاة حقه فيه.

- علىٰ الشاب ألا يتوقع أنه سيجد بيئة مثالية في مجال عمله، فلا يوجد قطاع أو وظيفة أو عمل بلا مشاكل أو عوائق أو عقبات، بل العمل يحتاج إلىٰ الصبر والمجاهدة والتطوير والاستمرار.

وصايا قبل ترك الوظيفة:

توجد العديد من الوصايا التي يوصىٰ بها الشاب قبل ترك الوظيفة والانتقال إلىٰ وظيفة أخرىٰ، ومن ذلك:

- لا يُنصح الموظف بترك الوظيفة حتىٰ يجد وظيفة أخرىٰ.

- ألا يستعجل بترك وظيفة من أجل أنه لا يحبها، بل عليه محاولة التكيف معها.

- إذ لم يستطع الشاب التكيف أو التأقلم، فعليه أن يبحث عن حلول قبل ترك العمل، كأن يخاطب المسؤولين في العمل، أو يحاول معالجة المشكلات التي تواجهه.

- ألا ينتقل إلا بعد أن يُؤمِّن مبلغًا من المال ينفق منه خلال مرحلة الانتقال من عمل إلىٰ عمل آخر.

- أداء الحقوق التي عليه، وتسليم كل أعماله قبل مغادرة العمل.

وينبغي علىٰ الشاب أن يعلم أنه أحيانًا يحتاج أن يحتمل أفعال مديره المتسلط، أو عميله الحاد، لأن عنده أهدافًا ومسؤوليات، فهنا لا ينصح بترك العمل بسبب بعض المواقف التي تواجهه، إذ ليست كل ضربة تكسره، والدنيا طُبعت علىٰ هذا الكدر، يقول ابن الزبير: كم كلمة ذل احتملتها أورثتني عزًّا.

إن تحمل المسؤولية من القضايا الجوهرية التي يجب علىٰ الشباب الاهتمام بها؛ لأن تحمل المسؤولية يدل علىٰ معدن الشخص، وقدرته علىٰ التحمُّل، وقدرته علىٰ مواجهة أعباء الحياة، فالحياة مليئة بالأعباء والمشكلات والعوائق، فإذا وجد عائقًا في الوظيفة، أو عائقًا في الزواج، أو عائقًا في التديُّن، وتراجع أمام كل عائق، فمتىٰ يستقيم له الحال؟!

يقول تي هارف في كتاب (أسرار عقل المليونير): ذات مرة خرجتُ إلىٰ الغابة، فأمطرت السماء، فدخلت الخيمة، وبعد أن انتهىٰ المطر وجدت أن الغابة قد ابتلت بالماء، ووجدتُ أن أكثر جزء نزل عليه الماء هو الجزء الذي حول خيمتي! ففكرت وقلت: إن الأرزاق والفرص تنزل مثل المطر علىٰ الأرض في كل مكان، لكن ثمَّت أناس يجلسون في خيمة الإحباط فلا يصيبون شيئًا من الرزق.

إن الرزق ليس قاصرًا علىٰ الوظيفة، فالرزق مفهومه واسع، فالصحة رزق، والتجارة رزق، والمسكن رزق. وبعض الشباب يعيش في كل أنواع الرزق، ولا يفقد إلا الوظيفة، فيشعر أن الدنيا ضيقة عليه، بينما نجد أشخاصًا لا يجدون شيئًا من هذا كله ويعيشون حياة سعيدة هانئة.

بعد هذه الجولة في «سؤال الوظيفة» أشير إلىٰ بعض النقاط السريعة التي يحتاجها الشاب فيما يتعلق بسؤال الوظيفة:

عمل الشاب في وظيفة لا يحبها:

بعض الشباب يقول: أنا أعمل في وظيفة لا أحبها، فما العمل؟

الجواب: تأقلم وتكيَّف، وجاهد نفسك، إلا إذا وجدت إعياءً حقيقيًّا، أو عليك أن تُؤمن نفسك بقدرات ومهارات مختلفة، ثم تبحث عن وظيفة أخرىٰ.

الوظيفة ليست في التخصص:

مَنْ كان تخصصه وشغفه شيئًا واحدًا، فهذا محبوب لكل الناس، لكنه قليل، لكن ليعلم الشاب أن كثيرًا من الناس يعملون في غير تخصصاتهم، ومع ذلك أبدعوا وأنجزوا وأثروا في مجال عملهم.

كثرة التنقُّل بين الوظائف:

قد يكون كثرة التنقل بين الوظائف مؤشرًا سيئًا لدىٰ رب العمل، لكن إذا لم يجد الإنسان بُدًّا فلا مفر من التنقل، لكن لا ينبغي أن يكون التنقل غير محسوب أو مدروس.

المدير لا يُقدِّرُ الموظف:

علىٰ الشاب أن يتحلىٰ بالذكاء العاطفي والاجتماعي، ويتعلم كيف يفهم المدير، ويعرف مداخله، وكيف يكون لديه طرق ووسائل للعمل بطريقة لا تؤثر بالسلب عليه، ولا تؤثر علىٰ العمل.

الاكتساب والاحتساب:

الموظف يستقطع من وقته للعمل، وأخذ أجرة لا ينافي الثواب الأخروي إذا نواه الإنسان، فالاكتساب لا يمنع الاحتساب. فيمكن للموظف إتقان عمله، واحتساب الأجر من الله تعالىٰ.

الراتب غير مجزي:

يمكن توفير مصادر دخل أخرىٰ، كالعمل في منصات العمل الحر، مثل: منصة مستقل، أو العمل الذي تتيحه بعض الوزارات، أو البحث عن أشياء أخرىٰ تزيد الراتب، وإذا وجد وظيفة أخرىٰ براتب أعلىٰ فيمكنه مغادرة وظيفته إلىٰ الوظيفة الجديدة.

ومما يساعد في ذلك أيضًا: الاقتصاد في النفقات، وتقليل الاستهلاك، وترك الكماليات، وغير ذلك من وسائل الاقتصاد.

الشهادات أم المهارات:

الشهادات ثم المهارات، فكل مَنْ يتحدث اليوم عن المهارات لديه شهادات، وعند التوظيف يُسأل الشاب عن شهادته أولًا، وإن كان هناك شركات عالمية -مثل شركة جوجل- توظِّف بناء علىٰ المهارات، لكن هذه شركات قليلة. وفي واقعنا الذي نعيشه الذي يُدخل الموظف إلىٰ الشركة هو الشهادة، والذي يُبقيه فيها هو المهارة.

الوظيفة والغربة:

أحيانًا يجد الشاب وظيفة بعيدًا عن محل إقامته، وهذه القضية من أهم القضايا في حياة الشاب، وتؤثر في حياته بشكل كبير؛ لأنها ستنقله إلىٰ مرحلة جديدة، وبيئة جديدة، وفرص جديدة، وتجربة جديدة، وصحبة جديدة، وكان علماء الجرح والتعديل يذمون الذي لا يفارق قريته في طلب العلم. وأرىٰ أن هذه من أمتع التجارب في حياة الإنسان، خاصة إذا استغلها بشكل جيد.

خرج رجل مِن العباد إلىٰ الخلاء يعبد الله تعالىٰ ويطلب الرزق، فوجد في الصحراء علىٰ الأرض غرابًا أعمىٰ مكسور الجناح، فوقف يتأمل: سبحان الله! غراب أعمىٰ مكسور الجناح، وفي صحراء! مِن أين يأكل ويشرب؟ وكيف يعيش؟! فبينما هو ينظر إذ جاء غراب آخر فوقف ففتح الغراب الأعمىٰ فمه، فأطعمه الغراب الآخر في فمه وسقاه حتىٰ شبع!

وهنا تعجب الرجل وقال: سبحان الله! والله لقد أراني الله آية، أبعد هذا أسعىٰ مِن أجل الرزق، ثم ترك السعي. فسمع به إبراهيم النخغي فمضىٰ إليه وقال له: ما الذي حملك علىٰ ما صنعت؟! فحكىٰ الرجل قصة الغراب لإبراهيم، فقال له: سبحان الله! ولِمَ رضيتَ أن تكون الأعمىٰ؟!

وظيفة الأمومة:

لا شك أن الأمومة من أعظم الوظائف التي تقوم بها المرأة في البيت، فهي تسهم في تربية المجتمع، بل تعتبر من أكبر المصادر في تنمية المجتمع؛ لأنها تخرج أبناء صالحين أسوياء، وتخلِّي الأم عن الأمومة هو نوع من التخلي عن الوظيفة الأساسية لها.

كيف نُعزِّز ثقافة العمل داخل الأسرة؟

يمكن تعزيز ثقافة العمل داخل الأسرة من خلال تحميل الأبناء بعض المسؤوليات منذ وقت مبكر، وتوزيع الأدوار بينهم، ودفعهم للعمل المؤقت في الصيف، وتعليمهم البيع والشراء والتجارة، واصطحابهم إلىٰ العمل، ودفعهم إلىٰ الجمعيات التي تقبل التطوع، بحيث يعملون معها ويتعودون عليها. ومجموع هذه الأفعال سيربي الأبناء علىٰ إدراك قيمة البحث عن الرزق.

مراجع ومنصات للاستزادة:

- وزارة الموارد البشرية، منصات للعمل: ساند، طاقات، خبرات، حافز، منصة العمل الحرّ.
- منصات تعليمية: إدراك، تمهير، رواق.
- صندوق هدف.
- منصات مستقل للعمل اليومي.

الفصل العاشر
سؤال الزواج

في هذا الفصل نتناول «سؤال الزواج»، وهو من الأسئلة المقلقة لكثير من الشباب والفتيات، حيث نتناول مفهوم الزواج وأهمية هذا السؤال، وكيفية اختيار الزوج أو الزوجة، والعلاقة بين الزواج وغيره من أنشطة الحياة، وكيفية تحقيق الزواج السعيد . . . وغير ذلك من القضايا.

سبب أهمية سؤال الزواج:

هذا السؤال مُقلِق لكثير من الشباب والفتيات لعدة أسباب، منها:

- **التشويه الحاصل لمفهوم الزواج**، سواء في الإعلام أو حتىٰ علىٰ مستوىٰ التداول المجتمعي.

- **المتغيرات الاقتصادية العالمية**، فهي تؤثر علىٰ الإنسان، وعلىٰ قدرته المالية والوظيفية، وبذلك يؤخر الشاب قرار الزواج.

- **الزواج حاجة فطرية**، فقد ركَّبَ اللهُ جل وعلا في الإنسان الشهوة، وجعل لها مصرفًا مباحًا وهو الزواج، وقد شُرِع لاستمرار النسل.

- **كثرة فتن الشهوات**، وهذه الفتن تجعل سؤال الزواج مقلقًا.

- **الحاجات النفسية والاجتماعية**، فالإنسان يحب أن تكون عنده أسرة، ولا يستطيع العيش وحده.

هل أتزوج؟!

يتحدث البعض الآن عن أن سؤال الزواج تحول مِن: متىٰ أتزوج؟ وكيف أتزوج؟ إلىٰ سؤال: «هل أتزوج؟» أي: أن هناك مَنْ يُزهِّد في الزواج، سواءً كان بقصد أو بدون قصد؛ مما أدىٰ إلىٰ وجود صور مشوهة عن الزواج؛ مما جعل بعض الشباب يتراجع عن ذلك.

وبعض الشباب يرىٰ أنه ليس هناك بنات صالحات للزواج، والعكس، حيث ترىٰ بعض الفتيات أن الشباب في هذه الأيام لا يصلحون للزواج وتحمل مسؤولياته، مما يجعل سؤال الزواج مقلقًا.

وفي هذا الفصل نبحث بعض الحلول التي تُسهِّل سؤال الزواج علىٰ كثير من الشباب والفتيات.

ما هو الزواج؟

الزواج هو: عقد وميثاق غليظ بمقتضاه يحلُّ الاستمتاع بين الزوجين علىٰ الوجه المشروع الذي يرتضيه الله تعالىٰ بأركانه وشروطه.

وقد سمَّىٰ الله تعالىٰ علاقة الزواج «بالميثاق الغليظ»، قال تعالىٰ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. وهذا يشير إلىٰ أن ميثاق الزواج يجب أن يكون صلبًا، فعادة الإنسان أنه يستهلك الأشياء ثم يستبدلها، أما علاقة الزواج فلا تُستهلك ولا تُستبدل. وهذا يَردُّ علىٰ ثقافة «الملل» التي تنتشر بين الأزواج، حيث يقول بعض الأزواج: أنه مَلَّ زوجته، أو العكس، تقول المرأة: لقد مللت هذا الزوج، فالزواج ليس للمتعة فقط، بل هو ميثاق غليظ! والحر مَنْ حفظ وداد لحظة، فكيف بعِشْرَة عشرات السنوات؟!

إن مشكلات الزواج جزء من طبيعة الحياة، والله جل وعلا يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]. الإنسان سيظل في مكابدة في هذه الحياة، ومن المعلوم أن الحياة الزوجية والأسرية لن تكون سعيدة في كل أوقاتها.

ومن المخاطر التي تسبب إشكالية في الزواج: المشاهد المصورة في التلفاز والإنترنت التي تظهر الزوجين بمظهر الأزواج السعداء الذين يقضون أوقاتهم في محبة وسلام وتآلف، بدافع البحث عن مشاهدات أو إعلانات، فهذه الظاهرة توهم الشاب أن الحياة الزوجية سعيدة خالية من المشكلات، مما يسبب إشكالية للمتزوجين؛ لأنهم ليسوا علىٰ نفس الدرجة من السعادة التي يرونها في المقاطع المصورة. وبذلك فهذه المشاهدات -التي تصور أن الزواج حالة وردية- جعلت بعض الأسر ذات المياه الراكدة عاطفيًّا تملُّ، وتبحث عن التغيير، وتريد تلك الحالة المثالية التي هي غير واقعية.

ومن إشكاليات الزواج الآن: عدم تحمُّل الزوجين مسؤولية الحياة الأسرية، فالحياة فيها العثرات والاختلافات، فينبغي قبول الزواج بحالته الطبيعية غير المصطنعة التي يشاهدها الأزواج في التلفاز أو غيره. والله ﷻ يُوصي النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [طه: ١٣١]. ويقال: كلما اتسعت عينك ضاق صدرك! فإذا تطلع الإنسان لما عند الآخرين ضاق صدره، وزهد فيما عنده من النعم.

ويقول الله تعالىٰ عن ضبط العلاقة بين الزوجين: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فهذه الآية جاءت في سياق أن الزوجين عقدا القِرَان، ثم حدث الطلاق قبل الدخول. ومع أن الزوج لم يدخل بزوجته يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾! وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: **«لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»**[1].

---

(١) رواه مسلم رقم (١٤٦٩).

حكم الزواج:

حكم الزواج يدور مع الأحكام التكليفية الخمسة، فقد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًّا، وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون محرمًا.

الزواج الواجب: إذا كان الإنسان لديه القدرة على الزواج، ويخشى على نفسه العنت.

الزواج المستحب: إذا كان الإنسان لديه القدرة، ولا يخشى على نفسه الفاحشة. وهو من سنن المرسلين، فالله جل وعلا قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

قال ابن تيمية رحمه الله: « ... فأما الاعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء»[١]. وفي الحديث: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[٢].

وتنهى الشريعة عن التبتُّل (ترك الزواج والانقطاع للعبادة)، وفي الحديث عن أَنس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا والله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٣].

---

(١) ابن تيمية، الزهد والورع والعبادة، ص٧٤.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٠٦٥)، ومسلم رقم (١٤٠٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٥٠٦٣).

من حِكم الزواج:

الزواج له مقاصد وحكم كثيرة، منها:

- **طيب العشرة بين الزوجين والأنس بينهما**، قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[١].

- **حصول الأبناء وتكثير النسل**، قال النبي ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ**»[٢].

- **حفظ الإنسان من الفتن والوقوع في الحرام**، لا سيما أن الزواج من الفطرة التي فطر الله تعالىٰ الناس عليها.

كيفية البحث عن الزوج:

هذا السؤال من الأسئلة الواقعية والمهمة، فكثير من الشباب يقول: كيف أبحث عن الزوج؟

توجد طرق كثيرة منتشرة في مجتمعاتنا، منها:

- البحث عن طريق الأم إذا كانت تعرف الصفات التي يبحث عنها الابن.

- البحث عن طريق الأخوات، لا سيما إذا كن يعرفن المواصفات التي يريدها الشاب.

- البحث عن طريق زوجات الأصدقاء اللاتي يعرفن فتيات في سن الزواج.

- البحث من خلال الجمعيات الرسمية والقنوات الموثوقة «مثل جمعية توفيق».

- البحث من خلال الأقارب والمحيطين وإمام المسجد وبعض الفضلاء وغير ذلك.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٤٦٧).

(٢) رواه أبو داود رقم (٢٠٥٠).

النسائية.

معايير الاختيار:

ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال في بيان معايير اختيار الزوج: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[1]. فأشار الحديث إلىٰ معيارين أساسيين في الزوج وهما: الدين، والأخلاق.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال في بيان معايير اختيار الزوجة: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[2]. فهذه المعايير أربعة.

كما توجد معايير إضافية لما ثبت في الحديثين المتقدمين، منها:

- **التناسب الفكري والاهتمامات**، مِن المقبول أن يتوافق الزوجان في أكثر الاهتمامات، ولا يُشترط الاتفاق علىٰ كامل اهتماماتك. ومن المهم ألا تتعارض اهتمامات الزوجين، حيث إن هذا يسبب إشكالات أسرية كثيرة.

- **التناسب في العادات والأعراف**، فكلما كانت المرأة قريبة من أعراف الزوج وعاداته كان ذلك أدعىٰ لاستمرار الزواج.

- **التناسب الاجتماعي الطبقي**، بألا يكون الشاب أقل ثراءً من الفتاة، بحيث ينقلها إلىٰ مستوىٰ مادي أو اجتماعي أقل مما كانت تعيش فيه.

ومن قواعد اختيار الزوجين: «كلما زادت المعايير قلَّت الخيارات»، أي: كلما اشترط الزوج شروطًا أكثر صَعُبَ عليه البحث عن زوجة مناسبة، ويحكىٰ في ذلك أن شابًّا اشترط قريبًا من ثلاثين شرطًا في زوجته، لكنه لم يجد زوجة بهذه

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٠٨٤).

(٢) رواه مسلم رقم (١٤٦٦).

الشروط الكثيرة، فبقي دون زواج، وذات يوم قابل أحد أصدقائه، فقال له صديقه: هل تزوجت؟ قال: لا، قال له صديقه: وماذا فعلت بقائمة الشروط؟ قال الرجل: أنا الآن لي شرط واحد فقط. قال: وما هو؟ قال: أن تكون أنثىٰ! فكلما زادت الشروط قلت الخيارات وصعب الاختيار.

ومن معايير الاختيار المنتشرة: أن بعض الشباب يجعل معيار الجمال معيارًا أساسيًّا ومحوريًّا في اختياره، دون النظر إلىٰ بقية المعايير، فينبغي علىٰ الشاب أن يتزوج بمَن يرتضيها أمًّا لأولاده، ورفيقة له عند كبر سنِّه.

وينبغي علىٰ الشاب المقبل علىٰ الزواج ألا يغتر بالجمال الصناعي -بفعل المساحيق وأدوات التجميل- للنساء اللاتي يراهن علىٰ الشاشات، حيث إنه يطلب مواصفات غير موجودة، وربما يُزهِّدُه هذا في الزواج.

ويرىٰ بعض المتخصصين أن معيار الدين ينبغي أن يكون آخر معايير الاختيار وليس أولها! وذلك لأن بعض الشباب يبحث عن ذات الدين، ويعجب بدينها، لكنه بعد ذلك يرفضها بسبب قلة جمالها، فكأنه لم يكن يبحث عن معيار الدين في الأصل. ويُروَىٰ عن أحد السلف أنه كان يبحث في البداية عن جمال المرأة، فإن وجدها جميلة سأل عن دينها، فإن كان دينها موافقًا لجمالها تزوجها، وإن كانت جميلة ولكنها ليست ذات دين ترك ما يرغب فيه من الجمال بسبب دينها.

مما ينبغي الإشارة إليه أن الجمال نسبي، فالجمال يختلف باختلاف الناس وأذواقهم، كما أن الجمال علىٰ نوعين: جمال الروح، وجمال المظهر، وجمال الروح هو الذي يستمر، أما جمال المظهر فإنه يقل وينتهي بمرور الوقت.

كيفية التعرُّف علىٰ الزوج والزوجة:

بعض الشباب يريد أن يتعرف فكريًّا وثقافيًّا وخلقيًّا علىٰ المرأة التي سيرتبط بها، ويمكن معرفة صفات الزوج أو الزوجة من خلال:

- متابعة الحسابات الخاصة بالشاب أو الفتاة في وسائل التواصل الاجتماعي، فقد يجد كلٌّ طرف ما يريد أن يعرفه عن الآخر، مثل: كيف يفكر؟ بِمَ يهتم؟ وغير ذلك.

- سؤال الأصدقاء في الجامعة أو الوظيفة، ومَن هم حول هذا الشاب أو الفتاة، فالأصدقاء غالبًا يمثلون اهتمامات الشخص، وفكره، وما يطمح إليه.

- السؤال المباشر للطرف الآخر عن القضايا والاهتمامات التي يحتاجها الشاب في زوجته، والعكس.

كيَف تتأكد الفتاة من مناسبة الشاب لها:

تقول الفتيات: إن الشاب يختار وفقًا لمعايير ومواصفات معينة يريدها في الزوجة، فكيف تتأكد الفتاة من مناسبة الشاب لمعاييرها ومواصفاتها؟

أقول: بالطرق السابقة ذاتها، فهي وسائل تصلح للفتاة والشاب علىٰ حد سواء، مثل: وسائل التواصل، والسؤال عنه، ومعرفة التنشئة الاجتماعية . . .

ومن النقاط المهمة أن الإنسان إذا استُشِير في شخص: هل هو مناسب كزوج أو لا؟ فهنا علىٰ المستشار (المسؤول) أن يستحضر ما يأتي:

- **أن يعلم أن رأيه أمانة،** فلا علاقة للصداقة والزمالة والقرابة برأيه؛ لأن المستشار مؤتمن.

- **أن يقدِّم معلومات، ولا يقدِّم آراء،** أي: يقدِّم معلومات عن دين الشخص وعمله، ولا يحكم عليه. فكم من زواج متعسر نُسِب إلىٰ نصيحة ناصح!

- **أن يحكم علىٰ الطبع، ولا يحكم علىٰ السلوك،** فعلىٰ المسؤول أن يحكم علىٰ الطبع؛ لأنه مستمر دائم، ولا يحكم علىٰ السلوك لأنه قد يتغير.

ومما يساعد علىٰ نجاح الزواج سؤال الشاب جيدًا عن أحوال الفتاة، والعكس صحيح، فذلك مما يديم الزواج ويحقق أهدافه، ومما ينبغي السؤال عنه:

- السؤال عن العبادات والتعاملات والأخلاق.
- السؤال عن المروءة والشهامة والنبل والوفاء.
- السؤال عن علاقته بوالديه وأهله وأقاربه.
- السؤال عن عمله وانضباطه فيه.
- السؤال عن استقامة لسانه، ونظافة هندامه وغير ذلك.

إن بعض الناس يتساهل في السؤال عند الزواج، ويحكم علىٰ الطرف الآخر من خلال دقائق قليلة قضاها معه! مما يسبب مشكلات متفاقمة بعد الزواج.

ومن الأمور الواقعية للفتاة ألا ترفع معايير الزوج، ولا تشترط شروطًا يصعب تحققها، حيث إن بعض المتدينات يبالغن في شرط التدين، مما يصعب عليهن معايير الزوج. وعليها أن تعلم أنه كلما تقدَّم بها العمر، أو قلَّت المواصفات -سواء من الجمال، أو الوظيفة، أو الحسب- فعليها أن تقلل من سقف طموحاتها ومعاييرها، فلا تبالغ في الشروط، فتقف طويلًا في انتظار فارس الأحلام، وهذه ليست دعوة لإلغاء المواصفات والشروط خشية أن يفوتها قطار الزواج، فلئن يفوت قطار الزواج خير من أن يدهس صاحبه.

وقد يفوت بعض الشباب أو الفتيات أن الزواج من الأقدار التي كتبها الله تعالىٰ، وليعلم الشاب والفتاة أن عدم الزواج ليس نهاية العالم، بل عليه أن يكون علىٰ يقين أن الله تعالىٰ يقدر له خير، وليعلم قول الله تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]. فهناك مَنْ قد تزوج وندم، وحصلت له مشكلات كثيرة حتىٰ تمنىٰ أنه لم يتزوج. والله تعالىٰ يقول لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. فمعظم هذه المواصفات مواصفات معنوية، فلا بد أن يدرك الشاب والفتاة أن قوام نجاح العلاقة هي الروح.

كيفية الاستعداد للزواج:

توجد بعض الأعمال التي ينبغي علىٰ الشاب القيام بها استعدادًا للزواج، منها:

- **معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بالنكاح**، وهي أحكام الخطبة والزواج والعشرة والطلاق، وحقوق الزوج والزوجة، وحدود التعامل بينهما من منظور فقهي.

- **حضور دورات تدريبية عن الزواج**، يوجد عدد من الدورات التي تقدمها وزارة الموارد البشرية والجمعيات الأسرية التابعة لها، وهي تهيئ الأزواج المقبلين علىٰ الزواج.

- **زيادة المعرفة تجاه الجنس الآخر**، فكثير من المشكلات تحدث بسبب عدم فهم الزوجين بعضهما، فهو يفكر بطريقة وهي تفكر بطريقة أخرىٰ. ومن المقاطع المصورة علىٰ يوتيوب التي تناولت ذلك: «كيف يفهم الرجل زوجته؟» لياسر قارئ.

- **الاستعداد المالي**، كادخار مبلغ من المال لما بعد الزواج تحسبًا لأي طارئ، وتقليل نفقات العرس -كحجز القاعات والفنادق الغالية وغير ذلك-، فعلىٰ الزوجين ترتيب النفقات بشكل صحيح، وإدارة الميزانية المالية، وذلك من خلال الاقتصاد في النفقات، وترتيب أولويات الإنفاق.

العلاقة قبل الزواج:

يكثر سؤال هذه الأيام، وهو: هل تؤيد الزواج عن حب أو الزواج التقليدي؟! وهذا السؤال خطأ؛ لأنه يفرض نمطين لا ثالث لهما، فإما أن يتزوج الإنسان عن حب أو يتزوج زواجًا تقليديًّا بدون حب.

الواقع يشهد أن الزواج قد يتم دون معرفة مسبقة ويكون زواجًا سعيدًا آمنًا، ويحصل الحب بعد ذلك، فأحيانًا العِشرة تؤدي إلىٰ المحبة. أما العلاقة بين الشاب والفتاة قبل الزواج فهي ممنوعة شرعًا.

وإن وقع الحب بين الشاب والفتاة فأقصر الطرق وأفضلها أن يتقدم لخطبتها، دون أن يكون هناك علاقات قد تؤدي إلىٰ ما لا يُحمَد عقباه. والواقع يشهد أن كثيرًا من العلاقات التي كانت قبل الزواج تنتهي بلا زواج.

قد يقول قائل: هناك زواج تمَّ من خلال الحب بين الشاب والفتاة، وهو زواج ناجح وسعيد. أقول: هذا صحيح، لكنه استثناء، وهناك زواج تم دون علاقة قبل الزواج، وهو زواج ناجح وسعيد، والأصل -كما جاء في الشريعة- أن تكون الخطبة بالطريقة المعروفة، ولو وقعت أي علاقة مسبقة فلا يتواصل الإنسان مع الطرف الآخر بما يؤدي إلىٰ محرم، بل عليه بالسير وفق الأحكام الشرعية المعروفة للخطبة والزواج.

والحاصل اليوم أن هناك تساهلًا في العلاقات، حيث يُوهِم الشابُّ الفتاةَ بالزواج، ثم يحدث ما لا يُحمَد عقباه؛ لذلك فالحب في العلاقات إذا كان حبًّا بنائيًّا أصبح قويًّا، أما إذا كان حبًّا ابتدائيًّا فقد لا يستمر.

المدة المناسبة بعد الخطبة أو العقد:

يوجد مَنْ يقول: المدة القصيرة بين الخطبة أو عقد الزواج والدخول بالزوجة أنسب، وهناك مَنْ يقول: لا، المدة الطويلة أفضل، حتىٰ يعرف كلا الزوجين طباع الآخر. وأرىٰ أن المدة القصيرة أفضل؛ لأن المدة الطويلة تسبب إشكالات، وتحصل كثير من حالات الطلاق بسبب طول المدة، وأرىٰ أن مدة ستة أشهر كافية ليتعرف كل طرف علىٰ الآخر بشكل أفضل.

إن العلاقة بين الشاب والفتاة تمر بمراحل:

- مرحلة الاستكشاف والانطباع الأولي الذي يؤدي إلىٰ قرار الارتباط.
- مرحلة الميل والانجذاب، حيث يبدأ كل طرف في الميل إلىٰ الآخر.
- مرحلة الاكتشاف والتعرف، من خلال طرح الأسئلة الأولية بهدف التعرف علىٰ الآخر.

- مرحلة نزع الأقنعة، فيتعرف كل واحد الصفات الحقيقية للآخر، ويتخذ قرارًا بالاستمرار أو عدم الاستمرار أو تسطيح العلاقة.

ولذلك يقول البعض: من المناسب أن تطول مدة الخطبة؛ ليعرف كل منهما الآخر، حتىٰ يصلوا إلىٰ مرحلة نزع الأقنعة، فلا يرتبطان. ولكن الإشكال في هذا الرأي هو أن الإنسان -مهم طالت المدة- سيجد لا محالة في مرحلة الاكتشاف -التي تكون بعد الزواج- أشياء سلبية في الطرف الآخر.

ولذلك فالسنوات الأولىٰ في الزواج مهمة، وأكثر الطلاق يقع فيها لسببين:

السبب الأول: وجود صراع ثقافي، فكل زوج منهما جاء من بيئة ثقافية مختلفة عن الآخر.

السبب الثاني: عدم وجود أطفال، أو صغر سنهم؛ مما يقلل قوة الرابطة بين الزوجين.

إن إطالة المجلس سبب في حصول خلاف بين الجالسين، وكذلك إطالة مرحلة الاكتشاف (الخطبة) تؤدي إلىٰ الخلاف، والمطلوب هو تقصير مدة الخطبة، مع التجاوز عن سلبيات الطرف الآخر.

استنساخ تجارب الآخرين:

يحكي أحد الفضلاء أنه كان في مرحلة الخطبة، ونصحه صديقه قائلًا: (كُن رومانسيًّا حتىٰ لا تكون منسيًّا)، ثم أرسل له صديقه رسالة غرامية، مضمونها (انظري إلىٰ القمر فإنه يشبهك وتشبهينه)، وطلب مِن هذا الأخ الفاضل أن يرسل هذه الرسالة إلىٰ خطيبته، وينتظر مفعولها! فأرسل هذا الفاضل الرسالة، وجلس ينتظر الرد حتىٰ وقت متأخر من الليل، فسمع أصوات أناس يصلون، فنظر من النافذة فإذا خسوف كامل للقمر! يقول: فلا بارك الله في مثل هذه الوصايا!

من المشاكل المتكررة في الزواج اقتباس تجارب الآخرين، فهناك زوج يناسبه أمر لا يناسب زوجًا آخر، ومما سهَّل الاستنساخ هو مطالعة تجارب

الآخرين عبر وسائل التواصل الاجتماعي. إن المقارنة داء يفتك بالأسرة، بل الصحيح إن كل تجربة لها خصوصياتها وظروفها التي تجعلها مختلفة عن التجارب الأخرىٰ.

السن المناسبة للزواج:

هناك مَنْ ينادي بالتعجيل بالزواج بعد البلوغ، وفي الحديث: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ** ...»(1). فإذا صار عند الإنسان قدرة مالية، وقدرة جسدية، ولديه الإمكانات فليتزوج، فالزواج ليس له سن محدد. أما تأخير الزواج فقد يسبِّب مشاكل كبيرة، سواء علىٰ المستوىٰ الاجتماعي أو علىٰ المستوىٰ النفسي. قال الله جل وعلا: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]. ويقول ﷻ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. وَاسِعٌ أي: عنده خير وفضل، وعَلِيمٌ أي: عليم باحتياجاتك وبفقرك. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ**»(2).

والواقع يشهد أن كثيرًا من الطلاب الذين تزوجوا أثناء الدراسة أعانهم الله تعالىٰ، وكانوا أكثر تركيزًا وتفوقًا وتحصيلًا، علىٰ عكس المشهور أن الزواج يشغل الإنسان عن الدراسة.

كيف تنمو العلاقة الزوجية؟

بعد الزواج تبدأ الصراعات بين ثقافتين وبيئتين وشخصيتين، وكل مِن الزوجين يريد أن يفرض اهتماماته، ولتجاوز هذه الإشكالية يمكن تطبيق المبادئ الآتية: (التفاهم - التغافر - التعاون - التغافل - التوبة - التكامل).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٠٦٥)، ومسلم رقم (١٤٠٠).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٦٥٥).

- **التفاهم**، بوجود اتفاق علىٰ الأسس والقواعد التي تحكم العلاقة الأسرية.

- **التغافر**؛ لأن الزواج تعتريه أخطاء وزلات، فعلىٰ الطرفين أن يغفرا أخطاء بعضهما.

- **التعاون**، فكل زوج له دور ومسؤولية، فينبغي إعلاء قيمة التعاون.

- **التغافل**، وعدم التدقيق في كل شيء، خاصة الأمور الفرعية التي يمكن إغفالها.

- **التكامل**، فما يحسنه الزوج يكون مسؤوليته، وما تحسنه الزوجة يكون مسؤوليتها، وكان أبو الدرداء ﵁ يقول لزوجته: «إذا غضبت أرضيتك، وإذا غضبت فارضيني، فإنك إن لم تفعلي ذلك فما أسرع ما نفترق»[١]. فالزوج له شخصية مختلفة عن الزوجة، ومسؤوليات كل منهما مختلفة؛ وتكاملهما يؤدي إلىٰ استدامة الزواج.

- **التوبة**، من القضايا الشرعية المهمة «التوبة من الذنب»؛ لأن الذنب قد يكون سببًا في سوء العلاقة بين الزوجين، فقد تكون الذنوب سببًا لمشكلات كثيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فإذا رأيتَ ما يسوؤك فأعتب الله، فإنما هو شيء أريد به أنت، أي: إذا رأيت ما يسوؤك من زوجك أو ابنك فاعلم أنه بسبب ذنبك. وقال الله تعالىٰ عن الغلامين اليتيمين: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: ٨٢]. رُوِيَ أن المقصود بـ «الأب» الجد السابع! ويقول أحد السلف: إني أزيد في صلاتي من أجل صلاح ابني. ومما لا شك فيه أن التوبة من الأعمال المهمة التي تجعل العلاقة تستمر.

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٧/ ١٥١.

مشكلات الحياة الزوجية:

يظن بعض الشباب أن بيته سيكون خاليًا من المشكلات؛ لأنه يحب زوجته وتحبه، وغير ذلك من المبررات. أقول: إن هذا غير صحيح، فبيوت الأنبياء -وهم أفضل الخلق- اعتراها بعض المشكلات، ويقال في ذلك: (كلما وافق التوقع الواقع خفَّ التوجع)، فلو توقع الإنسان مشكلة ثم وقعت كان وَقْعُها أخف عليه، فعلىٰ الشاب الاستعداد لهذه المشكلات ومعرفة كيفية حلها وتجاوزها، وأن يكون مرنًا في ذلك. ويقال: المشكلات في الحياة الزوجية كالملح في الطعام، إذا زاد الملح أفسد الطعام وإذا قل أفسده، فينبغي التوسط والاعتدال في ذلك.

ومن الأشياء المتكررة عند الزوجين: محاولة معرفة مَنْ هو سبب المشكلة؟ ومَن هو المتهم منهما؟ وما الدليل علىٰ إدانته؟ وغير ذلك من الأسئلة التي يريد كل طرف أي يلقي بها علىٰ الطرف الآخر، بل الصحيح هو تجاوز هذه الأسئلة والبحث عن الحل الوسط الذي يرضىٰ به الطرفان؛ منعًا من تفاقم الخلاف.

إن الله ﷻ يقول عن الحكمين الذين يحكمان في خلافات الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]. فلو اختَّلت نوايا المصلحين في الإصلاح لما وفَّقهم الله تعالىٰ؛ لذلك إذا حصلت مشكلة فلا بد من وجود نية للإصلاح عند الزوجين حتىٰ يوفقهما الله تعالىٰ إلىٰ الإصلاح.

كما لا يصح أن يكون بيت الزوجية زجاجيًا، والبيت الزجاجي هو البيت الذي تخرج كل مشكلاته إلىٰ الآخرين، بل علىٰ الزوجين حل مشكلاتهما قبل تعاظمها، وبعيدًا عن تدخلات الآخرين. إن تدخُّل الأهل في كثير من الأحيان يعقد المشكلات الزوجية أكثر مما يحلها، خاصة المشكلات العادية التي تحصل في أي بيت، فينبغي كتمانها وإبقاؤها في دائرة الأسرة.

هل الطلاق حل؟

الطلاق ليس أول الحلول، بل هو آخرها، وهناك حلول كثيرة، ومع ذلك يتساهل بعض الشباب في الطلاق، فيقع بسبب أشياء تافهة لا تكاد تُذكَر.

إن العلاقات الناضجة بدايتها تحتاج إلىٰ اتفاق ونهايتها تحتاج إلىٰ أخلاق، فليس بالضرورة اللجوء للمحاكم وغير ذلك من الوسائل العنيفة، بل توجد أطروحات تتناول الانطلاق بعد الطلاق، وكيف يخطط الزوج والزوجة لحياة الأبناء بعد الطلاق، فليس من الضرورة إنهاء كل شيء بسبب الطلاق.

يحكىٰ أن رجلًا سُئِلَ عن سبب الخلاف بينه وبين زوجته، فقال: لا أخبر أحدًا بما حدث بيني وبين زوجتي، فلما طلقها، قيل له: ما سبب الطلاق؟ قال: هذه ليست بزوجتي، فكيف أتكلم عن امرأة لا تحل لي؟

هذه أبرز ملامح «سؤال الزواج»، وفيما يلي بعض الإشكاليات السريعة حول الزواج:

هل يُنسَب الطلاق لمَنْ دلَّ الزوجين علىٰ بعضهما:

هذه أقدار مكتوبة، والذي دلَّ الزوجين علىٰ بعضهما لعله أراد الخير، ولعل الله تعالىٰ يكتب له الأجر.

تفاوت الأعمار:

كلما كان التفاوت يسيرًا كان أفضل، لكن هناك زواج ناجح رغم تفاوت الأعمار، مثل زواج النبي ﷺ بأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. وأيضًا قد تزوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها رغم صغر سنها، وكانت أحب النساء إليه. ويبدو أن الإشكال هو التفاوت في الأفكار وليس التفاوت في الأعمار.

تفاوت المستوىٰ التعليمي:

كلما كان المستوىٰ التعليمي متقاربًا كان أفضل، وأدوم للعشرة.

الدراسة والزواج ... أيهما أولىٰ؟

البعض يقدمون الدراسة علىٰ الزواج، وأرىٰ أنه يمكن الجمع بينهما.

الوظيفة أم الزواج؟

متىٰ ما تيسر للشاب ظروف الزواج فليبادر إليه، أما بالنسبة للفتاة فالوظيفة ليست بأولوية، والزواج مقدم في حقها علىٰ العمل.

كيف يتم تسهيل الزواج؟

بتخفيض المهور، ومحاولة التوفيق بين الشباب والفتيات الراغبين في الزواج عن طريق إنشاء جهات متخصصة أو وسائل مأمونة، ومساعدة الشباب الذين يريدون الزواج بالمال وغيره. والتقليل من الأعراف المكلفة ماديًّا المرتبطة بالزواج.

كيف نربي أزواجًا صالحين؟

يمكن أن نربي أزواجًا صالحين من خلال ما يلي:

- اختيار الأم الصالحة.
- التربية الصالحة للأبناء والبنات.
- أن يكون الأب والأم قدوة صالحة في الزواج.
- تهيئة الابن للزواج بتحميله بعض المسؤوليات، كالعمل والتكسب.
- تهيئة البنت بتحميلها بعض المسؤوليات، كالطبخ والاهتمام بشؤون البيت.
- التهيئة المعرفية والثقافية من خلال الدورات التدريبية المتخصصة.

أسأل الله ﷻ أن يتقبل منا، وأن ينفع بما كتبنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مراجع للاستزادة:

- المرأة البحر والرجل المحيط، عبد الله الداوود.
- الرجال من المريخ والنساء من الزهرة، جون غراي.
- لغات الحب الخمس، جاري تشابمان.
- حتىٰ يبقىٰ الحب، محمد البدري.
- العادات السبع للأسر الأكثر فعالية، ستيفن كوفي.

الفصل الحادي عشر

سؤال المداواة

سؤال المداواة من الأسئلة المهمة التي يحتاجها النشء كثيرًا، ومفردة «المداواة» مملوءة بالمعاني، وهي طريقة في التطبيب والمعالجة، أو أسلوب لمحو الآثار، وهي تستخدم في الطب وعلاج الأبدان، ولكن اليوم نستعيرها في معالجة الأنفس والأرواح، فنسأل سؤالًا: هل يمكن أن يداوي المسلم نفسه ويطهرها، ويعدِّل سلوكه، ويغير طبعه؟!

لقد تناول الإمام ابن حزم هذه المسألة في كتابه «مداواة النفوس»، وهو كتاب صغير في حجمه عظيم في معانيه ومبانيه، وفيه طرق ووسائل متعددة لتزكية النفس وتهذيبها. وفي هذا الكتاب تناول الإمام ابن حزم النفس البشرية بكل وضوح، وقال عن نفسه أنه كان فيه فرط دعابة، وعُجْب بالنفس، وبحث عن الصيت، وكلفة في الغضب، وكلفة في الرضا، ثم عمل علىٰ مداواة ذلك كله.

وهو من الكتب التي تسبب صدمة للقارئ لعدة أسباب، منها: أن لديك صورة ذهنية للعلماء والعظماء توحي إليك أنهم لا يقعون في الأخطاء إلا قليلًا، وترتسم في أذهاننا صورة مثالية لهم، وبعضهم قد يستبطن عصمة مَن يحب. وهذا الكتاب قلَّ أن تجد مثله، ويندر أن تجد عالمًا أو وجيهًا يثبت عيوبه في كتاب،

قد يتحدث الإنسان لخواصه، لكن أن يثبتها في كتاب فهذا ما لا يطيقه أي أحد؛ لأن مواجهة الإنسان نفسه بعيوبه مِن الأمور التي تصعب علىٰ النفس.

المقصود بالمداواة:

يُقصَد بالمداواة: الجهد المبذول من الإنسان لتهذيب نفسه، وتحسين طباعه، وتزكية سلوكه.

أهمية المداواة:

المداواة من الأهمية بمكان في حياة الإنسان، لما يلي:

أولًا: التزكية من مهام الرسل: إن المسلم إذا تأمل دعوة الرسل عليهم السلام وجد أنهم جاؤوا بوظائف عظيمة، ومن أهم هذه الوظائف التزكية، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[١]. فتزكية النفس وظيفة الرسل والأنبياء؛ لذلك لا بد من الحديث عن هذا السؤال، وبيان أهميته في حياة الشباب.

ثانيًا: التزكية والسلوك مرتبطان بالاعتقاد: قال ابن تيمية رحمه الله: (ومسائل السلوك من جنس مسائل الاعتقاد، وكلها منصوص عليها في الكتاب والسُّنة). وقال ابن القيم رحمه الله: (ومَن أحالك علىٰ غير أخبرنا وحدَّثَنا فقد أحالك إما علىٰ خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي. فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين. ومَن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلىٰ اللهِ والجنة سوىٰ الكتاب والسُّنة)[٢]. قيل أيضًا: إن النقص في السلوك نقصٌ في التوحيد، فالإنسان لا يجرؤ علىٰ فعل معصية إلا إذا نقص الإيمان في قلبه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده رقم (٨٩٥٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٩).

ثالثًا: الوصول إلىٰ الكمال البشري: إن الإنسان بحاجة إلىٰ أن يرتقي مدارج الكمال البشري، وعليه أن يهذِّب سلوكاته التي اكتسبها من البيئة، أو الأسرة، أو المكان الذي يعمل فيه. والتراث الإسلامي زاخر بكتب السلوك، وآداب التعليم والمتعلمين وأخلاقهم، ومن ذلك ما يلي:

١- المجلد العاشر من مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية رحمه الله فيه إشارات جيدة عن السلوك.

٢- للإمام ابن القيم رحمه الله كتب كثيرة تدور حول المداواة والتزكية، منها: الداء والدواء، وبدائع الفوائد، وإغاثة اللهفان، ومفتاح دار السعادة، ومدارج السالكين، وغيرها.

٣- للإمام ابن الجوزي كتب متعددة في تزكية النفس، ومنها علىٰ سبيل المثال: ذمُّ الهوىٰ، وتلبيس إبليس، وصيد الخاطر.

٤- للإمام ابن قدامة كتاب «مختصر منهاج القاصدين».

٥- للإمام الغزالي كتاب «إحياء علوم الدين»[١].

٦- لابن مفلح كتاب «الآداب الشرعية».

٧- لابن أبي الدُّنْيَا كتب متعددة، منها: الأولياء، والإخلاص والنية، والتوكل علىٰ الله، وذم الدنيا، ومحاسبة النفس.

إن تهذيب النفس وإصلاحها علىٰ مذهب أهل السُّنة والجماعة كان حاضرًا في الماضي بقوة في مصنفات هؤلاء الأعلام، ومن الإشكالات الموجودة الآن أن كثيرًا مِن الناس يظن أن تزكية النفس وتهذيبها يعتمد علىٰ الصوفية بشكل كبير[٢]، ومنهم علىٰ سبيل المثال: الحارث المحاسبي، وابن عطاء، والجُنَيْد،

---

(١) إحياء علوم الدين من الكتب العظيمة في التزكية والمداواة، لكنه يحتاج إلىٰ تهذيب وتخريج؛ لأن فيه بعض الإشكالات الفلسفية والكلامية.

(٢) لا شك أن التصوف كان في بداياته يعتني بقضية التزكية وإصلاح النفس وتهذيبها، ثم دخل عليه بعض الانحرافات كما هو معلوم.

وغيرهم. والإشكالية أن أهل السنة والجماعة لم يهتموا بإيجاد منهج متكامل في التزكية، بحيث يتدرج الإنسان من المستوىٰ الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ[1]. ويبدو إن كتاب مدارج السالكين كان محاولة لـ (أجرَأة) القِيَم، أي: تحويل القِيَم إلىٰ إجراءات وسلوك، بحيث يستطيع الإنسان متابعة أعمال القلوب ومظاهرها السلوكية[2].

المداواة ... رحلة أم محطة؟

يبدو أن المداواة وتزكية النفس رحلة فيها محطات، ويحتاج السائر في بعض المحطات إلىٰ أن يكثِّف جهوده لتزكية نفسه، بحيث تكون زادًا له في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة تذوق طعم الإيمان، كما في الحديث: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[3].

فمِن المهم للإنسان أن يذوق طعم الإيمان، وقد قيل لأحد السلف: إن فلانًا انتكس، فقال: لو سلك الطريق ما رجع. أي: لو ذاق حلاوة الإيمان وعرفها لما رجع عن هذا الطريق. ويُروَىٰ أن أبا بكر ﷺ رأىٰ رجلًا يبكي من خشية الله تعالىٰ، فقال: هكذا كنا في البداية، ثم قال: واشوقاه لأيام البدايات. ففي بدايات السلوك إلىٰ الله تعالىٰ يكون الإنسان أكثر صدقًا وإنابةً وإخلاصًا، وعليه أن يجاهد نفسه للاستمرار في هذا المستوىٰ السلوكي. قال ابن مسعود ﷺ في ذلك: (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

---

(١) يوجد مقطع مرئي (فيديو) بعنوان «طب الأرواح»، للشيخ/ عبد الله العجيري، تحدَّث فيه عن التزكية وفق مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) من المبادرات الجميلة التي قام بها بعض الدكاترة مبادرة الإكسير وهي عبارة عن تهذيب كتاب «مدارج السالكين»، ثم تحويله إلىٰ حقيبة وتمارين وأنشطة، وهو مشروع نافع، وله حسابات في مواقع التواصل الاجتماعي، وهو مسجل صوتيًّا، ويمكن أن تستفيد منه الجهات والجمعيات التي تهتم بتدريب الشباب والفتيات.

(٣) رواه مسلم رقم (٣٤).

ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إلا أربع سنين)[١].

فبعض الناس في طريقهم إلىٰ الله تعالىٰ قد يطول عليهم الأمد، فيضعف إيمانه وينتكس، وكلَّما بنىٰ الإنسان إيمانه علىٰ قواعد صلبة استطاع السير في هذا الطريق.

إذن، التزكية رحلة ومحطات، فهي رحلة طويلة، لكن فيها بعض المحطات التي يحتاج الإنسان فيها أن يتزود كرمضان والحج والجمعة وغيرها.

وقد أقسم الله تعالىٰ في سورة الشمس إحدىٰ عشرة مرةً علىٰ فلاح مَن يحرص علىٰ تزكية النفس، وهلاك مَن لا يزكيها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١-١٠]. وجواب هذا القسم العظيم هو مداواة النفس، وتطهيرها من الذنوب والعيوب.

ومن لطائف هذا القسم أنه بدأ بالشمس، وهي واضحة أشد الوضوح، ثم يأتي الضحىٰ، وهو أقل وضوحًا . . . ثم يأتي الليل وفيه تقل الرؤية، ثم يُقسِم بالسماء وهي مرتفعة، ثم يقسم بالأرض وهي منخفضة، وهكذا النفس البشرية، مرة تكون واضحة، ومرة تكون غامضة، ومرة تكون أهدافها عالية، ومرة تقل أهدافها، ومرة تنحط في رغباتها وشهواتها وأخطائها. والإنسان مطالب خلال جميع هذه الأحوال أن يعمل علىٰ تزكية نفسه وتطهيرها.

بين النفس والقلب:

توجد بعض الفروق بين النفس والقلب، وممَن فَرَّق بينها هو الغزالي، فبَيَّنَ رحمه الله أن الفرق يتمثل في أن القلب يُطلق علىٰ معنيين:

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٤٨).

أحدهما: اللَّحم المعروف الذي يضُخُّ الدم.

والثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب.

أما النفس فهي لفظ مشترك بين عدة معانٍ، يُهِمُّنا منها اثنان:

أحدهما: المعنىٰ الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، ويَهتم أهلُ التصوّف بهذا المعنىٰ؛ لأنّهم يُريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فلا بد من مجاهَدتها. وثانيهما: اللَّطيفة التي ذكرناها، التي هي الإنسان في الحقيقة، وهي نفس الإنسان ذاته، ولكنّها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها[1].

وبعض العلماء لا يفرِّق بينها، ويرىٰ أنها شيء واحد، فقد ذهب ابن تيمية وابن القيم إلىٰ أن القلب والنفس شيء واحد، وبَيَّنَ ابن تيمية أن مرض الأبدان يختلف عن مرض القلوب، فقال: (ومرضُ القلب يكون بفساد التصور والإرادة). ومثال فساد التصور: أن يرىٰ الإنسان الحقَّ علىٰ غير ما هو عليه، أو لا يرىٰ الحق، أو يبغض الحق، أو يحب الباطل، قال الله جل وعلا: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، قال قتادة: أي: في قلبه شك.

فالنفس تقوم مقام القلب، ويقابلها البدن، وهي تمرض كما يمرض البدن، وذكر ابن تيمية رحمه الله بعض العلاجات مثل: الصدقة وقراءة القرآن وغيرها من العبادات التي تداوي القلب.

ومما هو معلوم أن الإنسان ينبغي عليه أن يهتم بعلاج قلبه كاهتمامه بعلاج بدنه، بل علاج القلب أعظم، إذ هو مناط النجاة يوم القيامة، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا**

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣-٤).

فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[١]. فالقلب هو الملك، والجوارح هي الجنود، فإذا صلح هذا القلب صلحت الأعضاء.

إمكانية تغيير الإنسان طباعه:

القناعات المسبقة مقيِّدَة للأشخاص، ومثال ذلك: أن بعض الناس يظن أنه ورث الطباع، كمَن يظن أنه ورث الغضب من والده، أو الإسراف من أحد أقاربه . . . وهذه القناعات تعيق الإنسان عن تغيير طباعه وسلوكه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن العوائد والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق)[٢]. وهذا دليل أن مَن زاول شيئًا وتدَّرب عليه أصبح سجيَّة له.

يقول ابن خلدون: والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال.

فتكرار الإنسان للعادات الجيدة والأخلاق الحسنة، سيجعل هذا الخلق وتلك العادة سجية وطبعًا؛ لذلك قيل: تعودا الخير فإن الخير عادة.

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**». فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»[٣]. فإذا لم تكن الأخلاق والطباع قابلة للتغير لما كان لهذه الوصية النبوية فائدة، وهذا دليل علىٰ أن الإنسان يستطيع أن يغيِّر طباعه.

وذكر الإمام ابن حزم أنه كان غضوبًا، ولديه غيرة وحسد، وبَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه تغلَّب علىٰ بعضها، وخفف بعضها، وصرف بعضها فيما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتقول العرب: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدُّرْبة. فمَن لا يتدرب علىٰ ما عنده من طباع فَقَدَها، ومن أساليب مداواة الطباع السيئة عدمُ ممارسة الفِعْل السيء؛ لأن الطبع إِذَا كان معه مزاولة قَوِيَ، فإذا ترك مزاولة هذا الطبع خفَّ وخبتَ، واستطاع المرء أن يتحكم فيه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٧).

(٣) رواه البخاري رقم (٦١١٦).

ومما يدل علىٰ أن الطباع تتغير وتتعدل قوله تعالىٰ: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١]. فلو كانت الطباع لا تتغير لما أرسل الله تعالىٰ الرسل ﷺ إلىٰ البشر.

والواقع يشهد أن بعض الناس يتغيرون من الأفضل إلىٰ الأسوأ، أو من الأسوأ إلىٰ الأفضل، ولو سلَّمنا أن طباع الإنسان لا تتغير لقلنا بأنه سيهلك في الآخرة؛ لأن الإنسان جهول، ظلوم، عجول، منوع . . . وهذه الطباع من أسباب دخول النار؛ لذلك ذكر بعض السلف أن أهل الجَنَّة هم أهل التطبع، لَا أهل الطبع.

إن تهذيب النفس فيه مشقة يجدها الإنسان في معالجة سلوكه، لكن هذه المشقة أقل مِن مشقة بقاء النفس بدون تهذيب، إذ لو بقي الإنسان بلا تهذيبٍ لنفسِهِ لكان في ذلك الشقاء العظيم له في الدنيا والآخرة، ومن المعلوم أن تهذيب النفس يحتاج إلىٰ إلزام؛ لذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. فمِن الواجب علىٰ المسلم أن يلزم نفسه بالطاعات، وأَنْ يلجمها عن المحرمات، وأن يهذِّبها، وأن يصلح ما فسد مِنْهَا، ففي الحديث: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1].

البيئة والوراثة وأثرهما في طباع الإنسان:

البيئة بمعناها الواسع من الأسرة والأقارب والمجتمع والجينات الوراثية تؤثران في الإنسان وفي سلوكه، لكن يصعب تغييرها أحيانًا؛ لذلك قد يحتاج بعض الناس عشرات السنوات للتخلص من آثار البيئة والوراثة، وهو جهد كبير يؤجر الإنسان عليه يوم القيامة، ونتائجه طيبة في الدنيا أيضًا، قال أحد السلف: جاهدت نفسي بالصلاة عشرين عامًا حتىٰ استقامت، ثم تلذذت بها عشرين عامًا، والله إني لأدخل في الصلاة وأنا أحمل هم خروجي منها.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٢٢).

ومما يدل على تأثير البيئة في السلوك والطباع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]. فهذا من تأثير البيئة في السلوك.

ومن الملاحظ أن كثيرًا من الناس ينساق إلى بعض السلوكات؛ لأن المحيطين به يفعلون هذا السلوك، وهذا مما ينبغي أن يجتنبه المسلم؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**»[١].

إن أول ما يساعد في تعديل السلوك هو الوعي بِالذَّات، ومعرفة نقاط القوة والضعف، ثم العمل على زيادة نقاط القوة ومعالجة نقاط الضعف؛ إما بتغييرها، أو بضبطها، أو بالتقليل منها، أو بتوجيهها. ولفعل ذلك توجد ثَلَاث استراتيجيات وهي: المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وفيما يلي بيان هذه الاستراتيجيات:

١- **المراقبة**: وتكون بمراقبة ما يصدر منك، وتقييمه من حيث الصحة والخطأ، وأن يكون الإنسان واعيًا بما يصدر عنه من سلوكات.

٢- **المحاسبة**: وتكون بمحاسبة الإنسان نفسه بعد كل فِعْل على مدد زمنية متقاربة، والمحاسبة من شأنها تعزيز السلوكات الحسنة، والتخلص من السلوكات السيئة.

٣- **المجاهدة**: وتكون بمجاهدة النفس على الفعل الصالح، وتقليل الفعل السيء، ثم الإقلاع عنه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٠٠٧)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

ويرىٰ بعض الناس -من خلال تجاربهم الشخصية- أن مراحل تغيير السلوك أربع، هي:

المرحلة الأولىٰ: المعرفة: وذلك بأن يعلم الإنسان أن عنده مشكلة؛ لأنه بدون هذه المعرفة لن يحاول تغيير سلوكه، فإذا كان لا يعرف فعليه أَنْ يستنصح الآخرين.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ**» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**»(١). فذَكَرَ النبي ﷺ النصيحة، وهي مهمة لمعرفة الأخطاء السلوكية لمَن لا يعرف ذاته حق المعرفة.

المرحلة الثانية: الاعتراف: بأن يعترف الإنسان بما عنده من أخطاء سلوكية؛ لأنه بدون الاعتراف لن يدرك خلله السلوكي. ورغم أهمية هذه المرحلة، إلا أن كثيرًا من الشباب لا يعترف بما لديه من أخطاء، بل يبرر هذه السلوكات، وقد قيل: التبرير عدو التغيير!

المرحلة الثالث: التخطيط: بأن يقرر الإنسان خطة عمل موضوعية للتغيير، فيقرأ عن الصفات الحسنة وما يضادها، وكذلك فوائد حسن الخلق، وأجره في الآخرة، وغير ذلك.

المرحلة الرابعة: التكرار: إن المراحل الثلاث الأولىٰ ليست كافية لتعديل السلوك بدون العمل والتكرار، فلا بد من تكرار السلوك الجديد حتىٰ يصير طبعًا وسجية للإنسان، فيكون إتيانه صعبًا في بداياته، سهلًا في نهاياته.

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان أربع وسائل تعين علىٰ مداواة النفس والقلب، وهي:

---

(١) رواه مسلم رقم (٢١٦٢).

الوسيلة الأولىٰ: الإقبال علىٰ القرآن: فأول أمر يداوي القلب والنفس هو الإقبال علىٰ القرآن الكريم تدَّبرًا وتأمّلًا، وأن يعرض الشخص حاله علىٰ القرآن الكريم، ويتأمل الصفات التي تنطبق عليه، والصفات التي لا تنطبق عليه.

الوسيلة الثانية: الإيمان والعمل الصالح: ويشمل كل أركان الإيمان، وأشكال العبادة من الصلاة والصيام والصدقة وقيام الليل . . . وغير ذلك.

الوسيلة الثالثة: الحماية عن المضار: بأن يبتعد الإنسان عما يضر النفس أو القلب، وتكون الحماية باجتناب المعاصي والمخالفات الشرعية.

الوسيلة الرابعة: تفريغ القلب: أي تفريغ القلب من كل ما يؤذيه، وهذا يكون بالاستغفار والتوبة، فهما يصفِّيان النفس والقلب من كلٍّ ما يعيق سير عملية المداواة في طريقها الصحيح.

ومن المعلوم أن التوبة النصوح من وسائل المداواة العميقة، لذلك جاء في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1]. لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا دخل أحدهم الإسلام خلع كل ما أتىٰ به من سلوكات الجاهلية وطباعها.

إعلان التغيير:

يرىٰ بعض الناس أن إعلان التغيير ليس ذا أهمية في عملية التغيير، بل دَع الناس يرون فعلك لا قولك، وإعلان التغيير قد يؤدي إلىٰ وضع الإنسان تحت المراقبة والملاحظة، فإذا حدث أي خلل أو زلل لامه الناس وزجروه، وهذا له أضراره علىٰ استمرار الإنسان في التغيير. وتوجد دراسات تتحدَّث عن أن الإعلان يُشعر النفس بالاكتفاء، وأن الإعلان ومعرفة الناس في حدِّ ذاته إنجاز، فلا ينجز شيئًا بعد ذلك.

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٨٧).

يرىٰ بعض الناس أن الإنسان عليه إعلان التغيير إذا كان المجتمع المحيط يعينه علىٰ الاستمرار علىٰ ما أعلنه.

ويبدو لي أن هذا يختلف من شخص لآخر، ومن بيئة لأخرىٰ، فكل شخص أدرىٰ بنفسهِ، فإعلان التغيير في حياة الصغار جيد؛ لأن ذلك أدعىٰ لتغييرهم، أما الكبار فلا.

الإيمان وأثره في التغيير:

مما لا شك فيه أن الإيمان بالله تعالىٰ واليوم الآخر من أهم أسباب تغيير السلوك، ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (مَنْ خاف اللهَ لم يَشْفِ غَيْظه، ومَنْ اتَّقىٰ اللهَ لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون)[١]. وأخطأت جاريةٌ عند عائشة رضي الله عنها، فأرادت عائشة رضي الله عنها أن تعاقبها، لكنها تذكرت يوم القيامة، فقالت: (لله درُّ التقوىٰ، ما ترك لشفاء الغليل من سبيل)[٢]. والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحِجر: ٨٥].

إن استحضار اليوم الآخر هو علاج لكثير من المشكلات التي نواجهها، وقد أنزل الله تعالىٰ القرآن شفاء حسيًّا ومعنويًّا، ولا شك أن استحضارَ الإنسان الآخرةَ يعين علىٰ تعديل السلوك وتقويمه.

الاشتغال بالفضائل أم الآفات؟

توجد مدرستان لتعديل السلوك: المدرسة الأولىٰ تطالب الإنسان أن يشتغل بنقاط القوّة وتنميتها، ويترك نقاط ضعفه ولا يشتغل بها. والمدرسة الثانية تطالبه بمعالجة نقاط الضعف، وهذا يؤدي إلىٰ الاستثمار في نقاط القوة. فأيهما أفضل؟ هل الأفضل للإنسان أن يشتغل بالفضائل أم بالآفات؟

---

(١) أحكام القرآن، للجصاص (٢/ ٤٨).

(٢) أدب الدنيا والدين (١/ ٣١٠).

وقد سُئِل شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ عن هذه المسألة، وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها، فقال ﵀: النفس مثل الباطوس، وهو جب القذر، كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه فإنك لن تصل إلىٰ قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره . . . ومثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل علىٰ تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولكن لتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ إلىٰ سيرك[1].

إن الإنسان إذا وجد ما يعيق مسيره نحو تعديل سلوكه فعليه أن يعالج هذا العائق، لكن لا يفتش عما لا يحتاج؛ حتىٰ لا يشغل نفسه عن الهدف الأصلي، وهو تهذيب النفس. فإذا كان هناك ما يعيق الإنسان فعليه أن يزيله، ويستمر في طريقه.

أولويات المداواة المعاصرة:

أنماط الحياة المعاصرة والحضارة المادية التي نعيشها، هل لها تأثير في أولويات المداواة؟ وما الذي يجب أن نعالجه في أنفسنا؟ وهل نقدم الجسد علىٰ الروح أو العكس؟

الحضارة المعاصرة فيها جزء مادي كبير، وهذه المادية تغلغلت في قلوبنا ونفوسنا، فأصبحنا نقيِّم الأشخاص بناءً علىٰ الماديات، وأهملنا النفس والرُّوح، فعندما تُطرَح قضايا علاج النفس، أو قضايا الواقع المعاصر بطريقة إيمانية وعظية، فإن كثيرًا من الناس يزهد في هذا الحديث، أما الحديث عن الفلسفات والأفكار المعاصرة فهو محط أنظار كثير من الناس، خاصة الشباب؛ وذلك بسبب ترك الناس التوازن بين الروح والعقل.

---

(١) المستدرك علىٰ الفتاوىٰ (٥/ ٢٢٨).

إن ابتعاد بعض الناس عن القُرْآن الكريم والسنَّة النبوية ومصنفات علماء الإسلام التي اشتملت علىٰ السلوك، واتجاههم إلىٰ الكتب الفلسفية، والتمسك بمظاهر الحضارة الغربية أفسد كثيرًا من سلوكات الناس، وينبغي للشاب العمل علىٰ التوازن بين الروح والعقل.

التغيير بين الفردية والجماعية:

هل توجد مشاريع، أو مبادرات، أو مراكز متخصصة تساعد الشاب في عملية التغيير، أم أن التغيير تجربة ذاتية شخصية منفردة؟

لا بد للإنسان أن يكون له دور ذاتي في التغيير، وهذا يبدأ من المسجد، فالمكوث في المسجد أحد الأعمال التي يمكن للإنسان أن يعالج بها نفسه، في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قَالُوا بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»[(١)]. وهذا العصر مليء بالفتن والمشكلات والعوائق والعقبات التي يواجهها كثير من الشباب، فإذا لم يكن له زاد إيماني يواجه به هذا الطغيان المادي سقط عند أقرب عائق يقابله في طريقه.

أما عن المبادرات الجماعية فهي كثيرة، منها: مبادرة الإكسير، ومبادرات ميثاق، وهي مبادرة تعزز أصول الإيمان بوسائل حديثة، ومبادرة معارج، ومبادرة عفَّة، وهي مبادرة في مواجهة الشهوات وغيرها.

توقف المداواة:

إن المداواة ليست مرحلة مؤقتة، بل هي عمل مستمر لا يتوقَّف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحِجر: ٩٩]. فالمطلوب هو أن يزكِّي

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥١).

الإنسان نفسه باستمرار وبلا انقطاع. والأصل أن الإنسان مستمرٌّ في مداواة نفسه، وقد يتوقّف مرحليًّا عند بعض المشكلات لمعالجتها، ثم تجاوزها.

دور المداواة في علاج مشاكل الأبناء:

إن وجود الوالدين الصالحين في حياة الشاب أحدُّ أهم الأساليب في التربية، فإذا رأىٰ الأبناءُ الوالدين حريصين علىٰ التقويم والتعديل، فسيتأثر الأبناء عمليًّا بذلك بلا شك، وهذا أحد أكبر الوسائل في تدريب الأبناء علىٰ تهذيب أنفسهم.

ومن وسائل المداواة في الأسرة أيضًا: تعويدُ الأبناء علىٰ بعض العبادات التي تناسب أعمارهم، مثل: اصطحابهم إلىٰ المسجد، أو إلىٰ مجالس الذكر والخير، أو تعليمهم بعض المهارات، أو تحفيظهم بعض الأذكار، أو طرح قضايَا للنقاش إذا كان لديهم قُدرة ووعي كافٍ عن هذا الموضوع، أو إعطائهم بعض القصص أو الكُتب التي تناسب أعمارهم ... وغير ذلك.

طلب النصيحة وتعديل السلوك:

إن الاستنصاح (طلب النصيحة) من أهم ما يساعد المسلم علىٰ تغيير سلوكه، وقد سبق حديث: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ سِتٌّ ... وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ**»[1]. وقد رُوِي في حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ مِرْآةُ أَخِيهِ، فَإِنْ رَأَىٰ بِهِ أَذًى فَلْيُمِطْهُ عَنْهُ**»[2]. وفي هذا الحديث فوائد متعددة، منها:

١- أن الإنسان فيه جانب منظور للآخرين، ومن خلال النصيحة يمكن للآخرين أن يُبَيِّنوا للشخص بعض المظاهر السلبية في هذا الجانب، فيعمل علىٰ تعديله.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢١٦٢).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٩٢٩).

٢- المرآة تعكس الحقائق دون تهوين أو تهويل، وكذا النصيحة الصادقة تبين عيوب المرء دون زيادة أو نقصان، فينتفع بها بإذن الله.

٣- أن الإنسان يذهب إلىٰ المرآة، ولا تأتيه المرآة، كذلك طالب النصيحة، عليه أن يطلبها، ولا ينتظر أن تأتيه علىٰ طبق من ذهب.

٤- تتعدد المرايا التي ينظر الإنسان منها إلىٰ شخصيته، فيستنصح جاره في علاقات الجوار، ويستنصح زميله في علاقات العمل، ويستنصح الشيخ في أمور الدين، وهكذا يعدِّدُ المرايا فتتعدد زوايا الرؤية إلىٰ شخصيته، فيعرفها حق المعرفة.

٥- أهمية استنصاح أهل العلم والعقل والخبرة والتجربة، فهذا يوفر الوقت والجهد، ويدل الإنسان علىٰ ما يفيده بأقصر طريق.

يذكر أحد الفضلاء أنه قابل شيخًا أمضىٰ سنوات في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فطلب منه الشابُّ نصيحةً في أمر الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فقال له الشيخ: يا بُنَيَّ، قبل الدعوة عليك أن تكون قدوة، وقبل البيان عليك بالإحسان. فهذه النصيحة علىٰ قصرها تلخص تجربة طويلة في طريق الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

إدارة الأولويات:

مما ينبغي علىٰ الراغب في تغيير سلوكه أن يبدأ بنفسه أولًا، ثم محاولة إصلاح غيره، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥]. فإنَّ أصغر ذنوبك يوم القيامة ستكون أثقل عليك من أكبر ذنوب غيرك.

مراجع للاستزادة:

- مداواة النفوس، لابن حزم.
- فتاوىٰ ابن تيمية، المجلد العاشر (السلوك)، جمع عبدالرحمن بن قاسم.
- الداء والدواء، ومدارج السالكين لابن القيم.
- مجموعة رسائل ابن رجب.
- إحياء علوم الدين، للغزالي.
- الكبائر، للذهبي
- تلبيس إبليس، وصيد الخاطر، لابن الجوزي.

الفصل الثاني عشر
سؤال المبادرة

نتناول في هذا الفصل سؤال المبادرة من حيث مفهومه، وأهميته في حياة الشباب، ومعوقاته، وآفاته، وكيفية تعزيزه، وكيفية تطبيقه في واقع حياتنا المعاصرة.

تعريف المبادرة:

يمكن تعريف المبادرة بأنها: الإسراع إلىٰ فعل الخير، أيًّا كان هذا الفعل صغيرًا أو كبيرًا.

إن المبادرة تدور في فلك الإسراع إلىٰ فعل الخيرات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وهذا يشمل كل أعمال البر والخير من الأعمال الصغيرة والكبيرة، وكذا الأفكار التي يمكن أن تتحول إلىٰ مبادرات ومشروعات مفيدة.

المبادرة في القرآن والسُّنة:

إن المتأمل في كتاب الله ﷻ يجد أنه مليء بالأوامر والنواهي، وهذه الأوامر والنواهي نوع من المبادرة، ففي القرآن الكريم ألفاظ متعددة تدل علىٰ المبادرة، مثل: المسابقة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

والمسارعة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. والمنافسة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. والعجلة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]. وكل هذه الألفاظ تدعونا إلىٰ الحديث عن المبادرة.

ومن ذلك أيضًا قول الله جل وعلا لما خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]. والمبادرة من أهم مقتضيات الخلافة في الأرض وعمارتها، بأن يكون الإنسان مبادرًا مُسْتبِقًا لفعل الخير.

ولو تأمل المسلم ألفاظ السُّنة النبوية لوجد الأمر بالمبادرة واضحًا، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ...**»(١). وفي حديثٍ آخر عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «**أَوْصَانِي حَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثَةٍ لَا أَدَعُهُنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ أَبَدًا: أَوْصَانِي بِصَلَاةِ الضُّحَىٰ، وَبِالْوَتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ، وَبِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»(٢). هذا دليل علىٰ المبادرة والإسراع إلىٰ العمل، واستباق الخير، والحرص علىٰ كسب الأجور.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»(٣). وهذا نوع من المبادرة.

أقسام المبادرة:

١- **المبادرة بالقول**: ومثالها ما ورد في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ،**

---

(١) رواه مسلم رقم (١١٨).

(٢) رواه النسائي رقم (٢٤٠٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٥٢)، ومسلم رقم (١٩١٤).

فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[1]. والشاهد قول عكاشة ﵁: (ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ). فقد بادر إلىٰ الخير بالقول، فدعا له النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**».

٢- **المبادرة بالفعل**: ذكر الله جل وعلا بعض الأفعال التي فيها مبادرة علىٰ سبيل المدح، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يسٓ: ٢٠]. فلم يعرفنا الله تعالىٰ اسمه، لكن خلَّدَ فعله الذي قام به من أجل إنقاذ نبي من الأنبياء.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]. فالأوائل عَظُمَ أجرهم؛ لأنهم بادروا إلىٰ العمل الصالح.

بين سؤال الثغر وسؤال المبادرة:

سبق الحديث عن سؤال الثغر، فما الفرق بينه وبين سؤال المبادرة؟

يمكن القول: إن كثيرًا من الناس في ثغور، لكنهم غير مبادرين فيها، فهم ينتظرون الأوامر من غيرهم، فليس كلُّ ذي ثَغر مُبادرًا، لكن الشخص المبادر لديه استعداد لتحمل المخاطر باستمرار، ولا يرضىٰ بسفاسف الأمور، أما العامل في الثغر فهو كالموظف الذي يُقَاد من الآخرين إلىٰ فعل الخير.

---

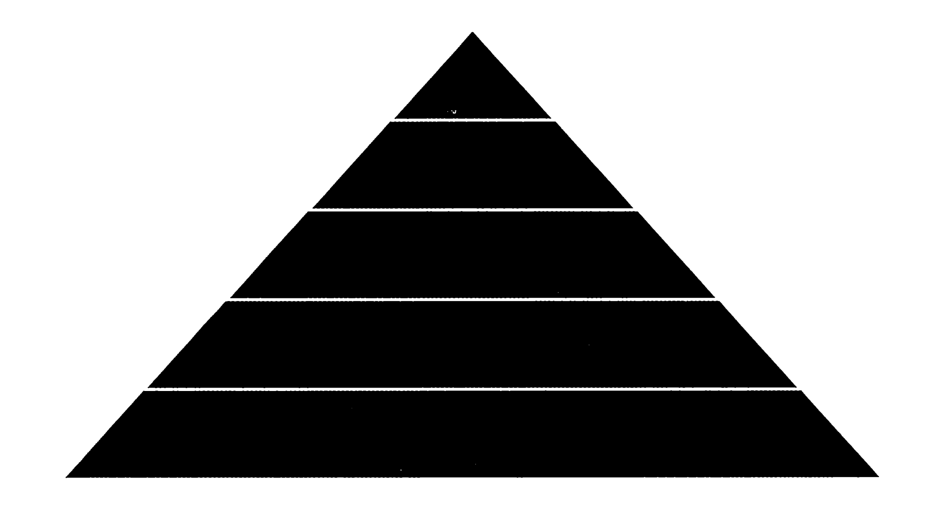
(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٧٥٢)، ومسلم رقم (٢١٦).

وبذلك لو استشعر كل مسؤول في بلده أو في وظيفته أو أمته المسؤولية الفردية لأصبح مبادرًا إلىٰ الخير؛ لأن الشعور بالمسؤولية يحدث الفارق في رؤية الشخص للأمور، وكيفية تعامله معها، يقول عُمر بن عبد العزيز: لو أن الناس كلما استصعبوا أمرًا تركوه، ما قام للناسِ دنيا ولا دين.

ويقول الشاعر:

ونمتُ علىٰ ريشِ النعامِ فلم أجدْ ... فراشًا وثيرًا مثلَ إِتمامِ واجبي

مستويات المبادرة:



من خلال هذا الشكل يمكن بيان مستويات المبادرة فيما يلي:

المستوىٰ الأول: مَن ينتظر الأوامر: فهو مبادر إلىٰ العمل، لكنه ينتظر الأوامر من غيره حتىٰ يقوم بالتنفيذ، فلا يتحرك حتىٰ يَطلب منه غيرُهُ أن يبادر.

المستوىٰ الثاني: مَن يسأل عن الأوامر: وهو مَن يسأل غيره عما ينبغي عليه القيام به، وهو أعلىٰ من المستوىٰ الأول الذي ينتظر حتىٰ تأتيه الأوامر.

المستوىٰ الثالث: مَن يقترح المبادرات، وهو الذي يقترح، بغض النظر عن رد فعل الطرف الآخر، فهو عنده قابلية للفعل.

المستوىٰ الرابع: مَن يفعل ثم يتحدث، وهو يحب أن يتحدث عن مبادراته، وما يقوم به من أجل الآخرين.

المستوىٰ الخامس: من يفعل ولا يتحدث، فأعماله تتحدث عنه، بل يتحدث عنه الناس بأنه يفعل. هذا النوع لم يبادر إلا لشعوره العميق بالمسؤولية.

ويمكن للإنسان أن يتنقل بين هذه المستويات، أو يتدرج من المستوىٰ الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، فلا يكون شخصًا سلبيًّا ينتظر من الناس أن يدفعوه إلىٰ العمل، أو يطلبوا منه ذلك، وقد قيل: ما حُرِم مبادر إلا في النادر. لذلك يقال في التسويق: مَن بادر إلىٰ شيء قاد السوق فيه. فالشخص الذي يبادر إلىٰ مجالٍ ما -وإن لم يكن هو الأفضل فيه- يصبح قائدًا في هذا المجال غالبًا.

مِن أين أبدأ المبادرة؟

المبادرات كثيرة متعددة، فمنها مبادرات فردية وأخرىٰ جماعية، ومنها مبادرات دينية وأخرىٰ دنيوية . . . إلىٰ غير ذلك من الأقسام، ومثال ذلك: أن يسأل الشخصُ المبادر عن المشكلات المحيطة به في مجتمعه، وقد تكون مشكلات مادية أو تعليمية أو صحية أو غير ذلك، ثم يبحث عن حلول لهذه المشكلات. أي أن يبدأ من المحيط الذي يعيش فيه، ثم ينطلق من هذا المحيط، وهذه فلسفة إدارية تُسمَّىٰ «البناء علىٰ الأصول»، وهو أن تبني علىٰ قدراتك وإمكاناتك، ثم تنطلق منها إلىٰ ما تحسنه.

مثال ذلك: شاب يريد أن يحدث مبادرة شبابية، فعليه أولًا أن يقرأ دراسات وبحوثًا عن الشباب، أو التقارير الصادرة عن هيئة الإحصاء، ثم يبحث عن احتياجات الشباب، وهنا تكون مبادرته، بحيث تلامس الاحتياج، فيحقق علاج مشكلة قائمة، أو يغتنم فرصة متاحة.

وقد يكون مصدر المبادرة أحاديث عفوية، أو من خلال تجربة يسيرة وليست كبيرة، وأكثر المبادرات التي رأيتها مبادرات بدأت بشكل عفوي، ثم أصبحت ككرة الثلج، تتدحرج حتىٰ تكبر، ثم تتحول إلىٰ مبادرة، فالعفوية مطلوبة أحيانًا في إطلاق المبادرات.

كيف تصمم المبادرة؟

المبادرات عمل منظم يحتاج إلىٰ الانتقال التدريجي من كل مرحلة إلىٰ المرحلة التي تليها، ومن هذه المراحل:

١- **سؤال الخبراء**: وجمع المعلومات والمعطيات والبيانات التي تخص النشاط المراد القيام به.

٢- **سؤال المستفيدين**: عن رغباتهم واحتياجاتهم ومشكلاتهم وقضاياهم.

٣- **الاطلاع علىٰ التجارب**: تحليل التجارب المشابهة المحلية والعالمية.

٤- **الاطلاع علىٰ الدراسات**: علىٰ المبادر في آخر الدراسات التي كتب عن موضوع مبادرته.

مراحل المبادرة:

توجد ثلاثية مهمة في أية مبادرة، وهي: الإعداد، والتنفيذ، والإغلاق.

فالإعداد هو تجهيز الإعدادات التي مِن شأنها أن تساعد في تنفيذ المبادرة، وهذا يختلف من مبادرة إلىٰ أخرىٰ.

والتنفيذ هو استخدام الوسائل التي تم إعدادها مسبقًا للقيام بالعمل المطلوب، من خلال البدء في الفعاليات والأنشطة المختلفة.

والإغلاق، وفيه يتم قياس رضا المشاركين في المبادرة، ورأيهم فيها، وأهم مميزاتها وعيوبها، ومقترحاتهم للمبادرات التالية، والتقرير الختامي، ثم الرؤية التطويرية للفعاليات التالية، ثم شكر المشاركين علىٰ جهودهم في إنجاح المبادرة.

معوقات المبادرات:

إن إعلان المبادرة يعني إعلان المواجهة وتحمل تبعاتها، فهناك مَن يحبط المبادر، وهناك مَن ينتقده وغير ذلك من المعوقات. إن المبادرة نوع من أنواع القيادة، ومَن قاد الناس فليتصبر، وعلىٰ المبادِر ألا يعلن المبادرة إلا وهو علىٰ أهبة الاستعداد لمواجهة العقبات والعوائق، فيجب أن تكون لديه مناعة نفسية داخلية تقيه من هذه المعوقات. أما الشخص الذي لا يستطيع التحمل فعليه أن يستعين بغيره من ذوي الخبرة والكفاءة.

ومما يعين علىٰ تجاوز العقبات في المبادرات مخاطبة أصحاب المصلحة، ويقصد بأصحاب المصلحة: كلُّ مَن يُؤثِّر في المبادرة أو يتأثر بها. بحيث يكون الجميع متهيئًا للعمل في المبادرة؛ لذلك يقال: «لا تبادر، إلا إذا كنت قادرًا»؛ لأن المبادرة بغير تجهيز قد تصيب الإنسان بالفشل، ومِن ثَمَّ الإحباط وترك المبادرة.

المبادرة المسؤولة:

المبادرة المسؤولة تعني أن بعض المبادرات تكون خاطئة من بدايتها، ولا يصح البدء فيها حتىٰ تستوي علىٰ سوقها، كأن تكون المبادرة غير مناسبة للبيئة أو للمجتمع أو للمستهدفين، فهنا علىٰ المبادر أن يُعدِّل المبادرة حتىٰ تكون صالحة مؤثرة منتجة. ورد في الحديث عن أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟**». فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا، أَنَا. قَالَ ﷺ: «**فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**». قَالَ أنس: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ. قَالَ أنس: فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ[1]. وفي رواية قال أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**حقهُ ألا**

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٧٠).

تقتل به مسلمًا، وألا تفِر مِن كافر، وأن تلقىٰ به أعداء الله . . .». فقال أبو دجانة: أنا يا رسول الله.

وهذا يدل علىٰ أهمية العلم بالمبادرة؛ فإن أبا دجانة سأل النبي ﷺ عن المقصود من تلك المبادرة، فلما فهم المبادرة جيدًا تقدم للعمل؛ لذلك «لا تبادر إلا إذا كنت قادرًا».

فالإنسان عليه ألا يبادر إلا إذا كان كامل التأهيل، وكامل القدرات والإمكانات التي يستطيع من خلالها إدارة المبادرة، أو تنفيذها، وإلا فشلت المبادرة، والقاعدة تنص علىٰ أنَّ «مَن استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه».

أنواع المبادرات:

للمبادرات أنواع كثيرة، منها: المبادرات الصحية، والمبادرات الاجتماعية، والمبادرات النفسية، والمبادرات الشرعية، والمبادرات الثقافية، والمبادرات الرياضية . . . إلخ، فكلُّ مجال من المجالات يمكن أن يقدم فيه الإنسان مبادرة بحسب اهتمامه، وبحسب معرفته، وبحسب مجاله، فلا يبادر في مجال إلا وهو يحسنه، حتىٰ لا يسيء إلىٰ هذا المجال أو المبادرة؛ لأن الإنسان إذا بدأ المبادرة وفشل -بسبب عدم الاستعداد-، فهذا يقضي علىٰ مبادرات أخرىٰ شبيهة.

يذكر أحد الفضلاء أنه نَظَّم مبادرة مع إحدىٰ الجهات ولم تنجح المبادرة؛ لأنه لم يستعد لها كما ينبغي، فخرج المنتج ضعيفًا، فلما أراد تنفيذ مبادرة أخرىٰ بعد سنة رفضت تلك الجهة تنفيذ المبادرة؛ بسبب فشله في المبادرة الأولىٰ.

ومن أسباب فشل المبادرات: أن تكون المبادرة مكررة، ولا توجد فيها إضافة حقيقية، بسبب وجود مبادرات سابقة في نفس المجال، أو أن المبادِرَ ضعيف علميًّا لن يضيف جديدًا، أو غير ذلك من الأسباب.

مهارات المبادر:

توجد مهارات كثيرة يجب أن تتوافر في المبادر، منها:

١- **المهارات الإدارية**: القدرة علىٰ إدارة الفريق، والتخطيط، وتصميم المبادرات.

٢- **المهارات الشخصية**: كمهارات التقديم والتواصل والإقناع وغيرها.

٣- **المهارات التقنية**: استخدام الحاسب، وتطبيقات قوقل، وبرامج الأوفيس.

بنك مبادرات:

يحتاج بعض الشباب إلىٰ جهة يستقي منها أفكارًا للمبادرات، فهو مبادِر، لكن ليست عنده فكرة للتنفيذ، وتوجد مصادر متعددة لاستقاء المبادرات، منها:

١- **المعرفة الشخصية**: والأفكار السابقة لدىٰ الشخص، وكذا التخصص، كأن يكون الإنسان متخصصًا في علم التفسير، فيطلق مبادرة في التفسير بأساليب معاصرة، ويستخدم الوسائط الحديثة في تسهليه وتقريبه إلىٰ الناس.

٢- **الاستعانة بالخبراء**: سواء أكانوا أشخاصًا أم جهات، سواء أكان يعرفهم المبادر أو لا، بشرط أن تكون مبادرات جادة ومفيدة.

٣- **الاحتياج**: أي أن يبحث المبادر عن المبادرات التي يحتاجها المجتمع أو الأفراد، ثم يبادر فيها. مثالها: احتياج المجتمع إلىٰ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ كتعليم الناس التجويد، أو تعليمهم العبادات، كتعليم الصغار الوضوء أو نحو ذلك.

٤- **الفئة المستهدفة**: تقسيمه للمستهدفين بأعمارهم ومواصفاتهم، هذا يعين علىٰ ابتكار أفكار.

آفات المبادرات:

للمبادرات آفات متعددة، منها:

١- **الشخصية والفردية**: كلما كانت المبادرة مشاعة ويقوم عليها عدد كبير من الناس كان هذا أدعىٰ إلىٰ استمرارها، وقبولها، وتبنيها، ولا مانع أن تكون المبادرات شخصية أيضًا، أي لا يوجد مبادرة إلا ولها شخص يقوم بها، ويكون هو محورها، ومعه مَن يعاونه ويساعده، وآفة المبادرات الشخصية أن المبادِرَ يشعر أنه مالك المبادرة، وأن غيره لا حق له فيها، وهذا يضر المبادرة ولا ينفعها.

٢- **العجب بالنفس**: من آفات المبادرات: أن يرىٰ المبادِر نفسه أفضل من الآخرين؛ لأنه بادر وسبق غيره، فيتكبر عليهم، ويرىٰ أن له فضلًا عليهم. وهذه الآفة قد تفسد العمل كله، فإذا دخل في نفس المبادرِ الكبرُ والعجب، وشَعَر أن له فضلًا علىٰ الناس بالمبادرة ربما ضاع أجره منها.

٣- **الملل السريع**: وهو مِن الآفات التي تنهي المبادرة في أثناء سيرها، والشخص سريع الملل يمكن له الشروع في المبادرات القصيرة حتىٰ يتمكن من إنجازها، وعلىٰ المبادر أن يعْرِف قدراته وإمكاناته، حتىٰ لا يدخل في مبادرات طويلة، ثم لا يكملها.

٤- **علو الطموح والأهداف**: علو الطموح من المكونات المهمة في المبادرات، لكن المقصود هنا أن بعض الناس يريد البصمات الضخمة، ويزْهَد في البصمات البسيطة، فلا يحصل هذه ولا تلك. فعلىٰ المبادر أن يبدأ صغيرًا ثم يكبر، فلا يفكر في الشيء المثالي الذي يصعب تحقيقه؛ لذلك يُقال: الإنسان في عمر العشرين يتمنىٰ أن يغيِّر العالم، وفي عمر الثلاثين يتمنىٰ أن يغير بلده، وفي عمر الأربعين يتمنىٰ أن يغير أسرته، وفي عمر الخمسين يتمنىٰ أن يغير نفسه، وفي عمر الستين يكتشف أنه لم يغير نفسه.

إن بعض الأشخاص لا يقتنعون بالأفكار الصغيرة، ولديهم مثالية عالية، مع أنهم غير قادرين علىٰ هذه الخطوة؛ لذلك يجب علىٰ الإنسان أن يبدأ بما يستطيعه حتىٰ يُوفَّق إلىٰ ما هو أعلىٰ.

المبادرة بين التطوع والربحية:

يلتصق دائمًا بالمبادرات أنها تطوع، وأنها ليست ربحية، فهل المبادرات لصيقة بعدم الربحية، أم فيها أرباح ومكاسب مادية؟

أقول: توجد مبادرات تطوعية كثيرة، وتوجد مبادرات ربحية، وهذا يختلف باختلاف فكرة المبادرة، ومدىٰ استمرارها، لكن لا بد من بقاء الجانبين: الجانب التطوعي، والجانب الربحي. فإذا وُجِدَت مبادرة لها أثر اجتماعي قوي فإنه يمكن الاستثمار من أجل تشغيل هذه المبادرة، أي: يعود الربح إلىٰ هذه المبادرة مرة أخرة مِن أجل تشغيلها؛ لأن كثيرًا من المبادرات تتطلب مصادر تمويل كي تستمر، ولا يمكن توفير مصادر التمويل إلا من خلال أن تكون المبادرة ربحية.

تعزيز المبادرة في الأسرة:

تعزيز المبادرة يبدأ من الصغر، من خلال تعويد النشء تحمل المسؤولية، وتعليمه كيف يساعد الآخرين، ويسهم معهم في الخير، وتحفيزه علىٰ فعل الخير والمسارعة إليه. إن استشعار المسؤولية الدائمة تجاه النفس والأسرة والمجتمع ينمي حس المبادرة، ويزيد من كسب الأجور والحسنات في الآخرة، فقد يكون دخول الجنة بسبب مبادرة قام بها المرء، سواءً أكانت قولًا أم فعلًا.

من الأمور التي تسهم في تعزيز المبادرة في الأُسر «وضوح المسموح والممنوع داخل الأسرة»؛ لأن الشخص قد يبادر، لكنه يبادر في مجال خطأ، فيُلام علىٰ ذلك، فيُحجم تمامًا، لكن عند وضوح المسموح به داخل الأسرة، فإن المبادر سوف يلتزم بالمبادرة بما هو مسموح؛ لأنه حصل علىٰ الإذن بحرية التحرك داخل هذا السياج، فينطلق فيه بلا معوق.

كما يجب أن تكون المبادرة في حدود الصلاحية، فأحيانًا يبادر الإنسان خارج حدود صلاحيته؛ فينعكس ذلك ذمًّا عليه، فإذا علم كل شخص مهامه والتزاماته بادر فيها، فحُمِدَ علىٰ ذلك.

إن تجاوز حدود الصلاحية يوقع الإنسان في مشكلات متعددة، فعلىٰ الإنسان أن يعرف صلاحياته، ثم يبادر فيها، بحيث تكون هذه المبادرات في حدود المسموح؛ لأن مَن تجاوز حدود المسموح له وقع في محل اللوم والريبة.

تعزيز المبادرين:

توجد خمس وسائل يمكن من خلالها تعزيز المبادرين، وهي:

١- **إيجاد الرغبة الداخلية**، وذلك من خلال التحفيز، وحث الآخرين علىٰ المبادرة، بحيث يعلم أن هذا الشيء مرغوب فيه.

٢- **وجود قدوة ملهمة**، سواءً أكان القائد، أو المربي، أو شيخ المسجد... إلخ، فوجود الشخصية الملهمة مهم في بناء المبادرة.

٣- **البيئة الداعمة والمحفزة**، بحيث لا تكون بيئة محبطة؛ لأن كثرة اللوم تحبط المبادرة، وتؤدي إلىٰ إطفاء المبادرة في النفس.

٤- **امتلاك أدوات المبادرة**، فبعض الناس يريد المبادرة، لكن لا يمتلك أدواتها، وليس لديه المهارات اللازمة للقيام بذلك.

٥- **الاطلاع علىٰ مبادرات وتجارب سابقة**، بحيث يحاكيها المبادر، ويستفيد منها، فيأتي مميزاتها، ويجتنب عيوبها.

ماذا يحتاج المبادر من الشباب؟

١- أن يثق بالله تعالىٰ أولًا، وتحدِّد مجاله، ويعرف نقاط قوته، ويكتشف شغفه، ويبذل جهده، ثم ينطلق في مبادرته.

٢- كل العوائق التي تعترض لك عن المبادرة لخدمة الدين والمجتمع هي عوائق وهمية ستزول بإذن الله، إذا استعان المسلم بالله، واستعان بالله في العون والسداد.

٣- قد يعيق المبادر عدم ثقته بقدراته ومواهبه، أو خوفه من النقد والفشل، أو التفكير السلبي الذي يسيطر عليه، هذه عوائق وهمية ووساوس شيطانية لا تقف عندها.

٤- المبادر يسبق الآخرين، ويقودهم ويلهمهم، ويحدث أثرًا عميقًا في الناس، وقد يكون سببًا في انطلاق مبادرات أخرىٰ،

٥- من المهم عندما نبادر ألا نفكر في الاستحواذ علىٰ مشاريع الآخرين وتوسيع الرقعة الجغرافية بناء علىٰ مبادرة المبادرين الآخرين، فهذه الأعمال تخلق بيئة مليئة بالحسد وشحن القلوب.

٦- المبادرة لا تعني التفرد والعناد والتهور والاستبداد بالرأي، بل قد يكون الشاب مبادرًا وهو يعمل ضمن فريق، ولكنه يبادر برأيه وفكره وجهده وماله.

٧- هناك عدد من المبادرات الشبابية المؤثرة انطلقت بعفوية، فلا يصح أن يتقيد الشاب كثيرًا بالترتيب الإداري -مع أهميته-، ولكن عليك بقاعدة (أطلق ثم صوِّب).

٨- مراجعة المبادرة وتقييمها بعد مدة من انطلاقها مهم جدًّا، فلا تنشغل بالنجاحات عن بعض الأخطاء التي قد تُفقِد المبادرة استمرارها ونجاحها.

٩- كثير من المبادرات الشبابية حققت نتائج أكثر مما كان يظن أصحابها، وأحدثت أثرًا عميقًا في المجتمع، فلا تحقرن مبادرة مهما صغرت.

١٠- المبادرة قد تكون سببًا في بلوغك أعلىٰ المنازل، وإن كانت صغيرة، فقد مَرَّ رجل بغصن، فبادر بإزاحته عن طريق المسلمين، فكان سببًا في دخوله الجنة.

مراجع للاستزادة:

- روائع المبادرات النسائية في التاريخ الإسلامي، مجموعة باحثين.
- المبادرات النافعة، علي سعيد القحطاني.
- مبادرات الصحابة وأثرها في عصر الخلفاء الراشدين، د. صالح الزهراني.
- دليل المبادرات والمشاريع الشبابية، شباب مجتمعي
- كيف تنجح مبادرتك؟ د. أمجد الجنباز - هاني المنيعي.
- تصميم المبادرات النوعية للمسؤولية المجتمعية، د. كمال شعبان.

الفصل الثالث عشر
سؤال الشهرة

نتناول في هذا الفصل سؤال الشهرة من حيث بيان معناها، وأهمية تناول هذا السؤال، وضوابط السعي إلىٰ الشهرة، خاصة في هذا الزمن الذي سهلت فيه وسائل التواصل الاجتماعي الشهرة لعدد كبير من الشباب والفتيات.

إن سؤال الشهرة يستحق الدراسة لأسباب متعددة، منها:

السبب الأول: أن الشهرة أصبحت حديث الناس، فأخبار المشهورين وأحوالهم محط أنظار الناس وأسماعهم، حتىٰ أصبحت حديث الناس في مجالسهم العامة والخاصة.

السبب الثَّاني: أن الشهرة أصبحت حاجة عند هذا الجيل، بينما كانت مذمومة في الماضي، وساعد علىٰ ذلك انتشار وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة.

السبب الثالث: هوس كثير من الشباب والفتيات بالشهرة والحديث عنها، وتداعياتها وآثارها الإيجابية أو السلبية.

السبب الرابع: أن الأشخاص المشهورين مؤثرون في غيرهم، فهم ينشرون قِيَمًا متعددة، سَوَاءً أكانت إيجابية أم سلبية.

السبب الخامس: أهمية معالجة سؤال الشهرة من وجهة نظر الناحية الشرعية، وبيان الآثار الواردة فِيهَا.

السبب السادس: الثراء السريع والتأثير الواسع والمكانة الاجتماعية، كلها حاجات يراها الشاب تتحقق للمشاهير.

لماذا سؤال الشهرة مقلق؟

إن سؤال الشهرة مقلق؛ لأن مَن وقع تحت ضوء الشهرة يحتاج إلىٰ إجابات لأسئلة كثيرة تحتاج إلىٰ تحرير، ومَن ليس مشهورًا فإنه أيضًا بحاجة إلىٰ معرفة بعض الإجابات عن الشهرة، هل هي ضرورية أم غير ضرورية؟ وبذلك فالناس من حيث الشهرة ثلاثة أصناف:

الأول: الشخص المشهور.

الثاني: مَن يتابع المشهورين.

الثالث: مَن يريد أن يكون مشهورًا.

فالشهرة محيطة بنا في كل مكان، ومجالسنا مبنية علىٰ نقل ما يقوله المشهورون عن القضايا المختلفة؛ لذلك نتناول سؤال الشهرة بالبيان والشرح.

إن الإنسان إما أن يكون مستقْبِلًا، وإما أن يكون مُرسِلًا، فما واجب كل منهما؟ وهل يجب أن يكون المرسِل مشهورًا؟ وكيف يتعامل المستقْبِل مع المشهورين؟

إن الشباب والفتيات يبحثون عن الشهرة بشكل مبالغ فيه، وهو ما يسمىٰ «تحقيق الذات»، وهي إحدىٰ الحاجات التي ذكرها ماسلو في «هرم الحاجات»؛ لأن النفس مجبولة علىٰ حب الشهرة، وأن يكون الإنسان مشارًا إليه بالبنان، مُسلَّطًا عليه الضوء، محبوبًا من الآخرين، فكيف يسيطر الإنسان علىٰ هذا ويعالجه ويهذِّبه؟

إن الإنسان إذا ترك نفسه لشهواتها أوردته المهالك؛ لذلك ذمَّ السلف الشهرةَ؛ حتىٰ لا يصبح الدين عُرضة للبيع والشراء، كما ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ** . . .

يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1]. وهذا حاصل ومشاهَد، فقد يُغَيِّر شخصٌ دينَهُ من أجل الشهرة أو البحث عَنْهَا.

ومِن عجائب ما ورد في رغبة الإنسان في الشهرة: أن رجلًا بال في ماء زمزم، فقيل له: لم فعلت ذلك؟! قال: حتىٰ أكون مشهورًا! فبعض الناس يمكن أن يرتكب أية حماقة من أجل الشهرة، والمكانة العالية، والثراء، ونيلِ إعجاب الآخرين.

إن كثيرًا من الشباب اليوم يحاول أن يحقق الشهرة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، فعنده رغبة للاعتراف الخارجي به، وكأن حصوله علىٰ متابعين كُثُر في مواقع التواصل الاجتماعي يُشعره بأنه في مركز اهتمامات الناس، وليس علىٰ الهامش.

إن منصات التواصل الاجتماعي «مثل تيك توك وغيرها» درست سلوك المستهلكين والمستفيدين من الشباب والفتيات، فوجدوا أَنَّ الرغبة في الشهرة مرتفعة في نفوس الشباب؛ لذلك تجد بعض الشباب لديه مليون متابع خلال شهور قليلة علىٰ الرغم من ضعف المحتوىٰ الذي يُقدِّمه.

إن الشهرة ذئب الإيمان كما وصفها النبي ﷺ في الحديث: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ أَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَىٰ الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[2]. فذكر النبي ﷺ المال والجاه[3]؛ لذلك فالشهرة والمال مِن أهم ما يجب أن يفطن إليه الإنسان؛ لأنه يدفع المال ليحصل علىٰ الجاه، فيجعل المال وسيلة للجاه، وحب الجاه ذئب يبتلع الكثير من قِيَم الإنسان ومبادئه.

---

(١) رواه مسلم رقم (١١٨).

(٢) رواه أحمد في المسند رقم (١٥٧٨٤).

(٣) توجد مادة صوتية مسموعة في اليوتيوب للشيخ خالد السبت في شرح هذا الحديث، وفيه تناول جيد لكثير من الفوائد المستفادة من هذا الحديث الشريف.

هل الشهرة واجبة؟

لا يلزم الإنسان أن يكون مشهورًا، فإذا كان الإنسان يقوم بدوره ويؤدي أمر الله ﷻ، ويشعر بالسعادة والاطمئنان فهذا يكفيه للنجاة في الآخرة، كما أن الغاية من الحياة ليست المال أو الجاه، بل الغاية هو عبادة الله ﷻ وتحقيق التقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. أما حب الدنيا، والظن أن الدنيا دار جزاء فإن هذا يجعل الإنسان يبحث عن الشهرة والمال، وإن كان بسبيل غير مشروع.

بين الشهرة والتأثير:

قد يكون الإنسان مؤثرًا وليس مشهورًا، ويمكن أن يكون مشهورًا وغير مؤثر، وبعض الناس يريد أن يجعل الشهرة وسيلةً للتأثير الإيجابي في الآخرين، فإذا جعل الإنسان الشهرةَ غاية فهذه مفسدة، وإذا جعلها وسيلة فهي مصيدة يمكن أن تؤذيه، فقد يريد التأثير في الآخرين بالإيجاب، فيتأثر هو بالسلب!

لذا يجب أن تكون الشهرة نتيجةَ العمل الصالح الذي يبذله الإنسان، وليست هدفًا بذاتها؛ لأن الإنسان قد يبذل جهدًا ولا يُرزَق الشهرة، قال الله ﷻ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. فوردت كلمة «رسل» نكرة، ولم يذكر أسماءهم.

ويُروىٰ عن ربيعة الرأي -وهو شيخ الإمام مالك- أن الناس كانوا يجتمعون علىٰ الإمام مالك يسألونه، ولا يأتون ربيعة الرأي، فقال ربيعة: قطميرُ حظٍّ خيرٌ من قنطار علم. ومن المسلم به أن كل ما يفعله الإمام مالك هو في ميزان حسنات ربيعة الرأي علىٰ الرغم من عدم شهرته. إذن لا علاقة بين الشهرة والتأثير، فهما منفصلان وليسا متكاملين.

ويروىٰ أن الصحابي حذيفة بن اليمان ؓ حافظ سر النبي ﷺ أمَّ

الصحابةَ ﷺ يومًا في الصلاة، ثم التفت وقال: التمسوا إمامًا غيري؛ لأنه خُيِّل لي أنني خيرٌ منكم.

وكان بعض الأئمة إذا اجتمع الناس حوله في الدرس انصرف ولم يعد، حتىٰ لا يدخل العجب بنفسه إلىٰ قلبه، فيكون سبب هلاكه.

ويروىٰ أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر يومًا، فأعجبه رفع الناس رؤوسهم إليه، فنزل من علىٰ المنبر، خوفًا علىٰ نفسه من فتنة الإعجاب بالنفس.

وثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا** ...»[1]. وكذلك الشهرة إذا جاءت الشخص فعليه أن يستعين بها علىٰ النفع، وليعلَمْ أن الله تعالىٰ سيعينه علىٰ القيام بحقها.

بين الشهرة والتصدر:

كان السلف إذا أراد أحدهم أن يتصدر في العلم أو الفتوىٰ فلا يفعل ذلك حتىٰ يزكيه ثمانون من العلماء من أهل البلد. أما الآن فالحال مختلف، فقد تجد المتصدرين من غير أهل العلم والفتوىٰ والاختصاص، وبذلك فلا علاقة بين الشهرة والتصدر، ولا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، فقد توجد الشهرة عن علم ومعرفة، والعكس، فقد توجد الشهرة عن جهل وعدم استحقاق، حتىٰ يصير الشخص المشهور كالبهلوان الذي هدفه إضحاك الناس وتسليتهم. وفي الحديث: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**»[2]. وفي الحديث الآخر: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ**». وفي رواية: «**ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**»[3]. فالجزاء من جنس العَمَل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٦٢٢)، ومسلم رقم (١٦٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٤٩٩)، ومسلم رقم (٢٩٨٦).

(٣) رواه أبو داود رقم (٤٠٢٩).

إن الأصل في السعي إلىٰ الشهرة هو الذم، لكن الواقع يشهد أننا لا نستطيع منع الشباب من اللجوء للشهرة، حيث إن وسائل التواصل الاجتماعي غذَّت «الأنا» عندهم، فإذا حدث ذلك وكان أمرًا واقعًا مشاهدًا فعلينا الانتقال إلىٰ مرحلة توجيه الشاب إلىٰ كيفية استخدام هذه الوسيلة في فعل الخير.

وكل مجال من مجالات فيه فاقد، قد يحصل أن تنحرف بوصلة من يتصدر حتىٰ في العلم الشرعي وهو أشرف المجالات، فكيف بغيره من المجالات؟

فتخوفنا من الفقد صحيح ونبحث له عن حلول، ولا يبقىٰ حائل لنا دون تقديم مبادرات في صناعة كفاءات إعلامية أوفي صناعة محتوىٰ إيجابي أو حتىٰ في طرح أفكار برامج إعلامية أو إنشاء حسابات وقنوات داخل الإعلام بمختلف منصاته.

وتجدر الإشارة إلىٰ أن مَن له حسابات في وسائل التواصل الاجتماعي، ويقدم محتوىٰ هادفًا، ولديه متابعون قليلون عليه أن يستمر في ذلك؛ لأن الشهرة وأعداد المتابعين ليست مقياسًا للتأثير، فلا يتوقف بسبب قلة المتابعين، ولا يجفف منابع الخير.

إن الجمهور المتابع لما هو جاد ومفيد هو جمهور قليل مقارنة بالجمهور الذي يبحث عن اللذة والمتعة والترفيه، وهو جمهور صامت وقليل التفاعل مع وسائل التواصل الاجتماعي. فيُقال لهؤلاء المجيدين غير المشهورين: استمر، فأنت لست ضعيفًا، بل أنت مؤثر، وإن كان جمهورك قليل العديد.

ومن المهم أن يعزز المتابعُ الجادُّ الجوانبَ الإيجابية في المحتوىٰ الذي يتابعه في وسائل التواصل الاجتماعي؛ لأنَّ مَن يتفاعل مع المحتوىٰ الرديء كثيرون؛ لذلك ينبغي علىٰ متابعي المحتوىٰ الهادف التفاعل معه ونشره ومشاركته مع الآخرين كلما كان ذلك ممكنًا.

إن أصحاب الآراء والخبرات والعلم والمعرفة والثقافة عليهم أن يقدموا الخير للنَّاس، وإن أدىٰ ذلك إلىٰ الشهرة، إذ لا يصح أن تكون الشهرة هي المانع

من إيصال الخير للناس، وهذا النوع من الناس يحتاج مجاهدة مضاعفة، ومعالجة نيته باستمرار، وأن تكون له خبيئة من العَمَل الصالح -كالدُّعَاءِ وقيام الليل والصدقة- تمنعه من الرياء والسمعة؛ حتىٰ لا يصاب بالتناقض بين ما يقوله وما يفعله، والله ﷻ يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّفِّ: ٣].

ومن تلبيس إبليس أن يجعل الإنسان يطرق باب الشهرة من أجل التأثير والنفع، ثم يتغير بعد ذلك ويدخل الإعجاب بنفسه إلىٰ قبله، وفي هذا يقول الله ﷻ للنبي ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإِسْرَاءِ: ٧٤]. فكان النبي ﷺ حريصًا علىٰ هدايتهم، وكان يحتاج إلىٰ التثبيت من الله ﷻ.

إن كثيرًا من المشهورين يُعاد تشكيل شخصياتهم ورسمها من خلال المتابعين، فالمتابعون هم مَن يعيد تشكيل شخصيات المشهورين بما يريدون؛ لذلك تجد بعض الدعاة له منهج قبل الشهرة، ويختلف هذا المنهج بعد الشهرة، حتىٰ يصيروا مثل الدمىٰ يحركهم أتباعهم، حتىٰ يصبح الشخص المشهور تابعًا في لباس متبوع؛ لأنه صار عبدًا لآراء الآخرين، وقد بُلينا بأصحابِ قممٍ بلا قيمة، وأصحاب قيمٍ بلا همم.

من ضوابط الشهرة:

للشهرة ضوابط متعددة حتىٰ تكون نافعة مفيدة، وفيما يلي بعض هذه الضوابط:

١- الظهور في وسائل التواصل فرض كفاية علىٰ المجموع، إذا قام به مَن يكفي سقط الإثم عن البقية، ولا يسعىٰ الإنسان للشهرة إلا إذا كان لديه ما سيضيفه للمتابعين.

٢- الأصل في الظهور ليس للشهرة، بل للنفع؛ لأن الإنسان إذا بدأ من منطلق الشهرة فإنه سيغير منهجه ومبادئه بما يريده المتابعون، حتىٰ يكون عمله موافقًا لهواهم.

٣- اجعل شعارك في العمل والشهرة حديث النبي ﷺ: «... **فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[١].

٤- لابد أن يكون لك خبيئة من العمل غير ما يظهر للناس، لأنها زاد لك في الطريق.

٥- اعلم أنه رُبَّ شخص مؤثر ليس له حسابات في وَسَائِل التواصل، ورب شخص له حسابات في كل وسائل التواصل وليس له أي تأثير، بل هو متأثر.

تأثير وسائل التواصل:

تأثير وسائل التواصل الاجتماعي خفي غير مشاهد، ويحتاج وقتًا حتىٰ يكون مؤثرًا في الآخرين، ووسائل التواصل الاجتماعي أحدثت في قلوب بعض الناس جُرحًا غائرًا بحب الدُّنْيَا، والمالِ والسفر وغير ذلك، حتىٰ أفسد ذلك أنفسهم وتفكيرهم وأعمالهم، ومن تأثير وسائل التواصل الاجتماعي أنها قد تعطي الحياةَ صورةً غير حقيقية، فمن يتابع «سناب شات» سيجد أن الحياة كلها رحلات وسفر وغير ذلك من الملذات، ومَن يتابع «تيك توك» يظن أن الْحَيَاة تافهة وكوميدية وغير ذلك، وهذا تصور غبر حقيقي عن الحياة.

تغير الأشخاص المشهورين:

غالبًا يتغير بعض المشهورين أثناء رحلة الصعود والشهرة؛ لأن الشهرة تُعرِّض الإنسان للفتن، فيرىٰ نفسه أفضل من الآخرين، ومِن هنا يبدأ في التغير إلىٰ الأسوأ غالبًا. ثم تتغير علاقاته بالآخرين؛ لأنه يرىٰ نفسه أفضل منهم، وهم يرونه متكبرًا لا يسمع النصح والإرشاد، ثم تتغيّر اهتماماته وأفكاره وقناعاته، وهذا من الآثار السيئة للشهرة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٣٠٠٩)، ومسلم رقم (٢٤٠٦).

إن الراغب في الشُّهْرة يكون لديه أحيانًا هيجانًا كهيجان الثور عند رؤية القماش الأحمر، فهو يتَّجهُ إلىٰ هدفه بسرعة ولا يأبه بأي شيء في سبيل الوصول إلىٰ هدفه، فتجده يخسر صحته، أو مبادئه أو قيمه، أو وِرْده اليومي من القُرْآن، أو من القراءة، أو من التعلُّم . . . من أجل أن يصل إلىٰ ما يريد، فإذا وصل والتفت وجد أنها خسائر لا يمكن تعويضها.

النيَّة والشهرة:

جميع أعمال المسلم يجب أن تكون خالصة لله تعالىٰ، وذلك لأن السمعة والرياء وحب الشهرة معانٍ متجذرة في النفس البشرية، ونتيجة ذلك عظيمة في الآخرة، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»[١].

إن نيَّة حب الخير وحدها لا تكفي لضبط مسألة الشهرة؛ لأن الإنسان أحيانًا بظهوره وتصدُّره قد يسيء أكثر مما يحسن، فقد يتصدَّر إنسان لتعليم الناس فيسيء

---

(١) رواه مسلم رقم (١٩٠٥).

من حيث يريد الإصلاح، وقد يردُّ علىٰ شُبهة لا يحسن الرد عليها، فيسيء أكثر مما يحسن؛ لذا علىٰ مريد الخير أن يكون مؤهلًا لما هو مُقدِم عليه، حتىٰ لا يفسد من حيث يريد الإصلاح. وعلىٰ ذي النية الصالحة ألا يتعجل، حتىٰ لا يرتكب أخطاء، بل عليه الصبر حتىٰ يتعلم ويتقن التخصص الذي يريد التحدث فيه، حتىٰ لا يكون من المتعالمين الذين يصعب عليهم قول: «لا أدري».

إن الشخص إذا سعىٰ إلىٰ الشهرة دون التأهل والكفاءة ربما ارتكب أخطاء كثيرة، وتبعه في ذلك الآلاف، لذلك يقال: خطأ المغمور مغمور، وخطأ المشهور مشهور. وهذا له تبعاته في الدنيا والآخرة.

إن النية والمراقبة وجعل الدار الآخرة نصب عين الإنسان يعصمه من الخطأ والزلل؛ لأن هذا سيغيِّر نظرته للأشياء وتقييمه لها، إما إن كانت النية فاسدة، وكان الشخص يبحث عن الدنيا والمال فإنه لن يبالي بما يقول وما يفعل، مما يؤدي إلىٰ وقوع الخطأ والفساد.

ما دور المربين والعاملين والجهات المختصة؟

١- طرح هذه القضية للنقاش وتداولها بموضوعية، وتهذيب الأفكار الخاطئة حول الشهرة.

٢- عدم مصادمة أي شاب يرغب في الشهرة أو تحطيمه، بل ينبغي التعامل معه برفق، والتعاون معه في حال قدرته علىٰ تقديم محتوىٰ جيد.

٣- وجود جهات وأشخاص يقدمون خدمات متنوعة للراغبين في التأثير، مع تقليل الخسائر قدر الإمكان.

٤- استثمار القدوات الإيجابية ودعمها، وتقبل الأخطاء اليسيرة التي تكون نتيجة ما يسمىٰ «بصدمة الشهرة».

٥- انتهىٰ زمن المنع، فنحن في زمن المناعة، وتمليك المهارات التي تعين علىٰ النقد والتمحيص.

٦- عناية المؤثرين والمشاهير بقلوبهم وأعمالهم، وإحاطة أنفسهم بمستشارين ناصحين، وأصدقاء صادقين.

وعلىٰ الراكضين خلف الشهرة أن يعرفوا أنَّ هذا الطريق محفوف بالمخاطر والفتن والمكائد، وهو طريق شائك يتمنَّىٰ كثير من المشاهير لو لم يسلكوه، وهذا ليس تثبيط للقادر، ولكنه حديث من سمع وشاهد وعرف.

مراجع للاستزادة:

- شرح حديث ما ذئبان جائعان، لابن رجب.
- الزهد، لابن المبارك.
- صناعة المشاهير، الشهرة وعالم الأضواء في ميزان الشريعة، سعيد عبدالعظيم.
- ما ذئبان جائعان، د. خالد السبت (مقطع مرئي).

الفصل الرابع عشر
سؤال الثبات

نتناول في هذا الفصل سؤال الثبات -نسأل الله ﷻ الثبات في الدنيا والآخرة-، حيث نتناوله في هذا الفصل من خلال بيان معناه، وأهميته، والوسائل المعينة عليه، وبعض النماذج للثبات من سير الأنبياء والصالحين.

معنىٰ الثبات:

الثبات في اللغة: مصدر الفعل «ثبتَ»، ويعني: البقاء والاستمرار والدوام.

ويمكن تعريف الثبات اصطلاحًا بأنه: الاستمرار علىٰ طريق الهُدىٰ من غير عوج ولا انحراف، والدوام في فعل الخير وسبيل الحق حتىٰ الممات.

أسباب الحديث عن سؤال الثبات:

توجد أسباب متعددة للحديث عن سؤال الثبات، منها:

١- الإنسان بحاجة إلىٰ الثبات في كل أحواله، منذ ولادته إلىٰ مماته، سواءً أكان في زمن الرخاء أم في زمن الشدة، وتكثر الحاجة إليه في زمن الفتن، لا سيما وقد كثُرت فتن الشهوات والشُّبهات في هذا العصر، وفتحت علىٰ الناس من كل مكان.

٢- شدة الأعداء وقوتهم، سواءً أكان هذا العدو هو الشيطان، أو عدوًّا من غير المسلمين، أو الأعداء الداخليين -كالهوىٰ أو النفس-، فهؤلاء يجتمعون علىٰ الإنسان فيُضعفون دينه، يُحاولون إخراجه من هذا الدين، فهدف الشيطان هو هلاك الناس في الآخرة، وهذا يكون بإخراج الإنسان من الدين.

٣- شدة النوازع الموجودة داخل الإنسان للتفلُّت من أحكام الشريعة، وعدم الانضباط بشيء من ضوابطها، وقد جاء الدين لتهذيب النفس، وإلزامها بما جاء عن الله ﷻ من خلال اتباع أوامره واجتناب نواهيه.

٤- الثبات يحمي الإنسان من الانحرافات، فيعيش باطمئنان، ويكون لديه ثقة بربه ﷻ، وبدينه الحنيف.

الثبات في القرآن والسُّنة:

وردت في القرآن الكريم ألفاظ كثيرة عن الثبات، منها قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وورد أيضًا في السنة النبوية، ومن ذلك قوله ﷺ عند ذكره الدجال: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**»(١).

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٣٧).

الأسباب المساعدة علىٰ الثبات:

توجد أسباب تساعد الإنسان علىٰ الثبات، ومنها:

١- **الدعاء**، فهو من أهم السبل لثبات الإنسان علىٰ الدين، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يُكثر في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»[(١)]. وفي رواية: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**»[(٢)]. وفي رواية: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ** ...»[(٣)]. وهذه الأحاديث تدل علىٰ أن الإنسان بحاجة إلىٰ الدعاء المستمر حتىٰ يُرزَق الثبات.

وقد ذكر الله تعالىٰ في سورة الفاتحة سؤال الثبات والهداية، قال تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فطلب الهداية باستمرار وطلب الثبات يوميًّا أمر مهم للمسلم، والثبات منحة إلهية، لا يحصل عليه المسلم بعمله أو جُهده أو اجتهاده، بل هو منحة إلهية ومحض فضل من الله تعالىٰ.

٢- **تدبُر القرآن الكريم**، قال ابن القيم: (فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما)[(٤)]. وذكر أيضًا أن الإنسان إذا قرأ آية واحدة بتدبُر خيرٌ له من ختمة بلا تدبُر.

وقال الله تعالىٰ للنبي ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]. فمِن الأسباب التي تُثبت النبيَّ ﷺ أن القرآن الكريم نزل عليه مُفرقًا؛ حتىٰ يُثبت النبي ﷺ في دعوته.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٤٠).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٥٤).

(٣) رواه النسائي رقم (١٣٠٤).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠).

٣- **العمل بالعلم**، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. وفي الآية إشارة إلىٰ وجوب العمل بالعلم، وقد رُوِيَ عن عثمان وابن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم عشر آيات فلا يجاوزونها إلىٰ عشر آيات أخرىٰ حتىٰ يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلموا العلم والعمل جميعًا.

٤- **الالتزام بفعل الواجبات**، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. ففعل الواجبات من أسباب الثبات والاستقامة.

٥- **المُداومة علىٰ العمل الصالح**، قال النبي ﷺ: «... **وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[١]. فالأعمال الصالحة والمداومة عليها من أسباب ثبات الإنسان علىٰ الدين. ولما تكلم ابن القيم عن النوافل ثم الواجبات ثم المُباحات، وصف المُباحات بأنها البرزخ، وبَيَّنَ أن العاقل لا يقف كثيرًا عند البرزخ، فالإكثار من المباحات من أسباب الانزلاق تجاه المكروهات ثم المُحرمات. فمن وسائل الثبات ألا يطيل الإنسان المُكث في هذا البرزخ، بل ينبغي أن ينتقل أبعد ما يمكن عن المباحات، ومن باب أولىٰ المكروهات والمحرمات.

٦- **ذكر الله تعالىٰ**: قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. فهذا موقف مواجهة وجهاد ومعركة، ومع ذلك أمرهم الله تعالىٰ بالذِّكر الكثير؛ لأنه من أسباب الثبات. والمشاهَدُ أن كثيرًا من الناس يستثقل الذِّكر مع أنه سهل، وقد مدح الله تعالىٰ الذاكرين والذاكرات، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٤٦٤)، ومسلم رقم (٧٨٣).

كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فمَن أراد الثبات فعليه أن يحافظ علىٰ أذكار الصباح والمساء، وأذكار الدخول والخروج، وأذكار بعد الصلاة، وأذكار النوم . . . حتىٰ يكتب مِن الذاكرين اللهَ كثيرًا والذاكرات.

٧- الثقة بهذا الدين، بأن يكون لدىٰ الإنسان ثقة بهذا الدين ومحاسنه، وأنه الدين الذي اختاره الله تعالىٰ للبشرية، وأنه الدين الذي ختم الله تعالىٰ به الرسالات، وأنه الحق الذي لا مراء فيه.

٨- قراءة سير الأنبياء والمُصلحين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. فتأمل قصص الأنبياء والرُسل والصالحين يساعد الإنسان علىٰ الثبات في مواقف الزلل، وقد قيل:

فتَشَبَّهوا إن لَم تَكُونوا مِثلَهُم ... إنَّ التَّشَبُّه بِالكِرامِ فَلاحُ

٩- تذكُر الآخرة، فقد كان مِن دأب النبي ﷺ إذا رأىٰ ما يُعجبه من الدنيا أن يقول: «**اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَة**»[1]. وجانب طويل من خطاب القرآن الكريم يتناول الآخرة وأحوالها، وما سيحصل فيها من الصراط والميزان وغير ذلك، حتىٰ يبقىٰ قلب الإنسان حاضرًا ومُرتبطًا بالآخرة. كما أن ذِكر الآخرة فيه إصلاح للقلب، وهو أمر مهم لبقاء التوازن في حياة الإنسان بين الدنيا والآخرة؛ لذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

١٠- استحضار العلاقة مع الله ﷻ، وهي علاقة عبودية الإنسان لربه تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وأن يعلم الإنسان أن الدنيا دار ابتلاء، وأنها ليست دار مقر، بل دار عمل من أجل الحياة الأبدية.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٩٦١)، ومسلم رقم (١٨٠٤).

١١- تذكر الموت وما بعده، إن الله تعالىٰ يعطي الدنيا مَن يُحب ومَن لا يُحب؛ ولكن الآخرة لا يُعطيها الله ﷻ إلا لمن يُحب، فعلاقة الإنسان مع الآخرة علاقة جزاء، وهذا الاستحضار لفلسفة الجزاء يُرتب حياة الناس بشكل مختلف؛ لأن تذكُر الموت يجعل الحياة ذات قيمة؛ لذلك كان النبي ﷺ يقول: «**فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، الْمَوْتِ**»[١].

دور الصحبة في الثبات:

إن الفتن لا تأتي المسلم في هيئة الباطل المحض، ولا علىٰ هيئة شر دائم، بل تأتيه جميلةً مُزينةً؛ لاختبار ثباته علىٰ مبادئه، فيعرف الإنسان أن هذا الطريق محفوف بالمخاطر والفتن، وعليه أن يحتاط لها.

وقد ذكر الله تعالىٰ الصحبة في القرآن الكريم قائلًا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فإذا كان الصاحب لا يعين صاحبه علىٰ الوصول إلىٰ هدفه وغايته فهو صديق سوء.

إن الصُحبة مثل المواد الحافظة التي تضاف إلىٰ الأطعمة، فهي تُحافظ علىٰ دين الإنسان واستقامته، قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقد رُوِي عن إبراهيم بن أدهم: لا تغتر بمكانٍ، فإن آدمَ عصىٰ اللهَ في الجنة، ولا تغتر بكثرة العلم، فإن بلعام بن باعوراء[٢] كان يعلم

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤٦٠).

(٢) هو رجل من بني إسرائيل، عاش في زمن النبي موسىٰ عليه السلام، قيل: إنه أول مَن ألَّف كتابًا أن ليس للعالم صانعًا. وقيل: إنه المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

اسم الله الأعظم فكان منه ما كان، ولا تغتر بقُرب مكانٍ وصُحبة، فإن كُفار قريش كانوا عند النبي ﷺ ولم ينتفعوا به.

إن الإنسان يهلك إذا لم يكن لديه شعور داخلي بالحاجة والفقر إلىٰ فضل الله ﷻ، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[1].

بين الثبات والجمود:

إن الثبات يعني أن يتحرك الإنسان في دائرة الخير والفضل، ولا يعني الجمود والاستقرار في مكان واحد، بل المقصود هو الصمود عندما تصطدم مصالح الإنسان مع مبادئه، والثبات الحقيقي هو الصعود إلىٰ مرتبة الفضيلة عندما يهبط الناس في مستنقع الرذيلة.

ثبات النبي يوسف عليه السلام:

إن النبي يوسف عليه السلام ضرب أروع الأمثلة في الثبات علىٰ الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يُوسُف: ٣١-٣٣].

إن بعض الناس يسارع إلىٰ الاستسلام للواقع الذي يعيشه، ويقول: لا أستطيع الصمود، ولا أستطيع تربية عيالي بسبب البيئة التي نعيش فيها، يُقال له: لك في النبي يوسف عليه السلام أسوة حسنة، وأن هذه الأعذار لن تنفع يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٤-١٥].

---

(١) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠).

ثبات امرأة فرعون:

قد يحتج بعض الناس بالبيئة السيئة علىٰ انحرافه، وأن المجتمع تغير، وأن الأخلاق لم تعد كما كانت في الماضي، يقال له: ليس لك عُذر وحجة في البيئة الفاسدة، فامرأة فرعون ضربها الله تعالىٰ مثالًا في القرآن فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. فقد كانت في بيت فرعون، لكنها تمسكت بالإيمان والاستقامة؛ لذا خلَّدَ الله تعالىٰ ذِكرها، وضربها مَثَلًا في الإيمان، فلو كان لأحد أن يحتج بالبيئة علىٰ فساده لكان أولىٰ الناس بذلك امرأة فرعون التي كانت تعيش في بيت مَن يقول: أنا ربكم الأعلىٰ!

الثبات علىٰ المبدأ والثبات علىٰ الموقف:

يُروَىٰ عن ابن المبارك أنه قال: مَن تهاون بالآداب ترك المُستحبات والسُنن، ومَن تهاون بالمُستحبات والسُنن ترك الواجبات، ومَن ترك الواجبات ترك الدين. والشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له: اترُك دينك، بل يأتيه من طريق الإكثار في المُباح، ثم المكروه، ثم المحرم حتىٰ يُهلكه. لذلك حَذَّرَ الله تعالىٰ من خطوات الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وبعض الناس لا يفرق بين الثبات علىٰ المبدأ، والثبات علىٰ الموقف، بل ينبغي التفريق بينهما، فبعض الأمور لا تقبل التغيير، مثل: الثبات علىٰ الدين والإيمان، أما غيرها من المواقف الحياتية -كطريقة المعيشة وهيئة الملابس وغير ذلك- فتقبل الأخذ والرد، ما دامت لم تدخل دائرة الحرام والحظر.

صعوبة الثبات:

الثبات علىٰ الإيمان والطاعات صعب علىٰ النفس البشرية؛ لأن الطريق طويل، والأعداء كُثر، والنفس ضعيفة، والفتن خطافة، والقلب يتأثر ويتغير، وإذا اتَّكَأ الإنسان علىٰ نفسه هلك، لكن إذا اعتصم بالله تعالىٰ وبحبله المتين فلا شك أن الله تعالىٰ سيُعينه ويُثبته، إذا علم الله تعالىٰ من قلب الإنسان صِدق النية والرغبة في الاستقامة.

أسباب عدم الثبات:

الذنوب والمعاصي من أهم أسباب عدم الثبات، فالذنب مثل الجرح، ورُبَّ جُرحٍ أصاب مَقتل، وقد يستهين شخص بالجُرح فيكون سبب موته! والذنوب إذا استصغرها الإنسان واستهان بها ربما أهلكته، لذلك قيل: لا تنظُر إلىٰ صغر المعصية، وانظر إلىٰ عظمة مَن عصيت. وقد يحيط بالمعصية الصغيرة مِن الاستهانة وعدم الخوف من الله تعالىٰ ما يجعلها من الكبائر، وقد يُحيط بالمعصية الكبيرة من الخوف والرجاء والندم ما يجعلها من الصغائر.

إن الذنوب والمعاصي من أكبر الأسباب التي تنخُر في الثبات، لا سيما ذنوب الخلوات، فكما أن طاعات الخلوات سببٌ في الثبات، فذنوب الخلوات سببٌ في ترك الثبات.

قال الشاعر:

وإذا خَلَوتَ بِرِيبَةٍ في ظُلمَةٍ والنَفسُ داعيَةٌ إلىٰ الطُغيانِ
فاِستَحيِي مِن نَظَرِ الإِلَهِ وقل لها إِنَّ الَّذي خَلَقَ الظَلامَ يَراني

هل الثواب مُرتهن بالفتن؟

كلما كثرت الفتن وصبر الإنسان عليها زاد أجره في الآخرة، ورد في حديث: «... **فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَىٰ الْجَمْرِ،**

لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ». قال الصحابة ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ ﷺ: «**أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[١]. وورد في حديث آخر: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ**[٢] **كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»[٣]. فالثابت في زمن الفتن لا شك أن أجره عظيم عند الله ﷻ؛ لذا يستحب الإكثار من العبادات في زمن الفتن، إذ الأجر مضاعف في الآخرة.

نماذج في الثبات:

أعظم نموذج في الثبات هو النبي ﷺ، فقد اتُّهِمَ في عرضه، وفي رسالته، وفي أمانته، وقيل عنه شاعر ومجنون وكذاب، وعُرضت عليه النساء والمال والمُلك، لكنه رفض ذلك كله، وقال: «**وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**»[٤].

وقد تربىٰ الصحابة ﷺ علىٰ الثبات، فكان بعضهم يُعذَب، ومن هؤلاء عمار بن ياسر وأبوه وأمه ﷺ، وكان النبي ﷺ يقول لهم: «**صبرًا آل ياسرٍ، فإنَّ موعدَكم الجنةُ**»[٥].

وكان بلال وغيره من الصحابة ﷺ يُعذبون، ومع ذلك كان الثبات هو سبيل هؤلاء الصحابة الكرام ﷺ؛ لذلك تبوأوا أعظم المنازل والرتب في الدنيا والآخرة.

وقد ثبت خبيب بن عدي ﷺ، فقد رُوِي أن المشركين حينما رفعوا خبيب بن عدي علىٰ الخشبة ليصلبوه نادوه: أتحب أن محمدًا مكانك وأنت في

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٣٤١).

(٢) **المراد بالهرج**: الفتنة واختلاط أمور الناس، وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها.

(٣) رواه مسلم رقم (٢٩٤٨).

(٤) سيرة ابن هشام (١/٢٦٦).

(٥) سيرة ابن إسحاق (١٩٢).

بيتك؟ فقال: لا والله ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه! وفي رواية قال لهم: والله ما أحب أني بين أهلي ومحمد ﷺ في المكان الذي هو فيه تشوكه شوكة!

التربية علىٰ الثبات في الأسرة:

إن حرص الوالدين علىٰ الثبات من أهم وسائل التربية، فهما القدوة الأولىٰ لأبنائهما، إذ التربية العملية أنفع وأقوىٰ أثرًا من التربية النظرية، فإظهار التديُن السلوكي في الأسرة من وسائل التربية، كأن تصلي الأُم أمام أبنائها باستمرار -مع إصلاح النية-، حتىٰ يعتادوا علىٰ رؤية التدين في الأسرة، كما يُسنُّ للرجل أن يُصلِّي بعض السُنن الراتبة في البيت.

ومِن الوصايا للوالدين: اجعل ابنك يعيش مع القرآن، من خلال ارتباطه بحلقات التحفيظ والتلاوة، وارتباطه بالمسجد والصحبة الصالحة، فكلٌّ هذه الأعمال تُعين الأبناء علىٰ الثبات.

مراجع للاستزادة:

- الثبات علىٰ دين الله وأثره في حياة المسلم علىٰ ضوء الكتاب والسنة، الصادق الأمين.
- الثبات علىٰ الدين: أسبابه وآثاره ومعوقاته (جمع ودراسة)، د. إبراهيم الرحيلي
- وسائل الثبات في زمن المتغيرات، د. عبدالله الدميجي.
- وسائل الثبات علىٰ دين الله.

الفصل الخامس عشر
سؤال الشهوات

نتناول في هذا الفصل سؤال الشهوة، إذ يتساءل كثير من الشباب عن أقسام الشهوات، وسبب خلقها، والتصرف الصحيح تجاهها، ومصارفها المباحة والشرعية، وغيرها من الأسئلة التي تدور حول هذه الغريزة.

معنىٰ الشهوة وحكمها وأقسامها:

الشهوة هي: الرغبة الشديدة، وما يُشتهىٰ من الملذات.

والشهوات ليست محرمة بإطلاق، بل أباح الله ﷻ بعضها بضوابط، وفي ذلك يقول عمر بن عبد العزيز: ألذُّ عيشٍ هوًى وافقَ طاعة!

والشهوة قسمان، هما: الشهوات المادية، والشهوات المعنوية:

١- **الشهوات المادية،** مثل الغريزة الجنسية، قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]. فهذه كلها متع وشهوات حسية.

٢- **الشهوات المعنوية،** مثل: حُبِّ الجاه والشرف والمكانة وغيرها من الشهوات التي يسعىٰ الناس لتحصيلها بالطرق المشروعة أو غير المشروعة.

أهمية الحديث عن سؤال الشهوة:

تتمثل أهمية الحديث عن سؤال الشهوة فيما يلي:

١- خلق الله ﷻ النفس البشرية، وركَّب فيها غريزة الشهوة، وذكر بعض أهل العلم عددًا من مقاصد هذه الشهوة التي خلقها الله ﷻ في الإنسان، ومن فوائدها: استمرار النسل، ودوام الجنس البشري، والتمتع والاستمتاع بما أباحه الله جل وعلا للبشر، وهو الزواج.

٢- أن هذا الزمن هو زمن الصُّورَةِ، سواء أكانت مقطعًا مرئيًّا (فيديو) أو صورًا فوتوغرافية، ولم يسبق في التاريخ البشري أن انتشر هذا الكم الهائل من الصور، وهذا الكم الكبير من الصور يجعل الغريزة تتحرك عند الإنسان، وهذا يثير أهمية هذا السؤال في هذا العصر.

٣- الحرب الإباحية موجودة اليوم من خلال مقاطع الفيديو، والأفلام والمجلات المتنوعة المنتشرة، وهي عملية تجارية يُدفَع فيها ملايين الدولارات من أجل نشر هذه المواد الإباحية بهدف الربح.

الشهوة خلال المراحل العمرية:

الشهوات تختلف بحسب الأعمار، وأيضًا بحسب الأهواء والرغبات عند الإنسان، فمنها: شهوة الْمَالِ، وشهوة الجنس، وغيرهما من الشهوات. ومن المعلوم أن الملذات الحسية -مثل الغريزة الجنسية- يشترك فيها جميع الناس؛ لأنها غريزة مركبة في الإنسان.

إن مخاطر الغريزة الجنسية أكثر من مخاطر الشهوات الأخرىٰ، إذ قد تكون الشهوات الأخرىٰ مباحة، كمَن يحب ركوب الخيل، أو القراءة، أو غير ذلك من الأعمال التي يشعر معها الإنسان باللذة.

وقد بين عمر بن الخطاب ﵁ مخاطر الشهوة بقوله: الفراغ للرجل غفلة، وللمرأة غلمة. أي أنه يثير شهوتها، وفي هذا حث علىٰ عدم الفراغ، حتىٰ

لا يقع الإنسان أسير شهوته. ويروىٰ عنه ﷺ أيضًا أنه مَرَّ ليلًا ببيت، فسمع امرأة تنشد:

تطاول هذا الليل واسود جَانِبُه ... وأرَّقَني ألا حبيب ألاعبُه
ألاعبه طورًا وطورًا كأنما ... بدَا قمرًا في ظلمة الليل حاجبُه
فوالله لولا الله لا شيء غيره ... لحُرِّكَ مِن هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشىٰ رقيبًا موكَّلًا ... بأنفاسنا لا يفتر الدهر كاتبُه
مخافة ربي والحياء يصونني ... وإكرام بعلي أن تُنَال مراكبُهُ

فالفراغ أحد الإشكالات الكبرىٰ التي تسبب الشهوات، ولا شك أن الانصراف إلىٰ المباح، والتطوع بفعل الخيرات يخفف مسألة الشهوة. وقد فَصَّل ابن القيم القول في ذم الهوىٰ وعشق الصور وغيرهما في كتابه «الداء والدواء»[(١)]، فقال: إن إبليس يرمي القلب الفارغ بقوس الصور، فإن صادف قلبًا فارغًا تمكَّن. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَتاني هَواها قَبلَ أَن أَعرِفِ الهَوىٰ ... فَصادَفَ قَلبًا خالِيًا فَتَمَكَّنَا

ومما يساعد علىٰ علاج مشكلة العشق والهوىٰ أن يشغل الإنسان نفسه بما هو مفيد، وأن يزاحم قلبه باهتمامات أخرىٰ، وهذا من شأنه أن يصرف الإنسان عن الشهوة والعشق المحرم إلىٰ ما هو نافع مفيد.

دوافع انتشار الشهوات:

من أسباب انتشار الشهوات بين الشباب في هذا الزمن ما يلي:

١- إطلاق البصر، أي: إطلاق النظر لكل ما تقع عليه عين الإنسان، والإنسان عبارة عن مثير واستجابة، فإذا كثرت المثيرات احتاج الإنسان إلىٰ استجابات أكثر، فتثور الشهوة وتكبر لدىٰ الشباب، وساعد في ذلك الانفتاح علىٰ

---

(١) لابن القيم رحمه الله كتاب عظيم في هذا الباب، وهو إجابة علىٰ سؤال حول العشق، حيث سأله شاب: إني عشقت كذا، فأجابه ابن القيم في كتاب الداء والدواء، أو: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، وفصَّل هذه القضية، ومطالعة هذا الكتاب مهمة في علاج الشَّهَوَات.

وسائل التواصل الاجتماعي، مع وجود الشركات التي تروِّج لهذه الصور، فأصبح الناس يتساهلون في إطلاق البصر وهو السبب الأول لإثارة الشهوة.

إن البصر بوابة الزنا، وقد عدَّ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ إطلاق البصر من كبائر الصَّغَائِر؛ لأنه يفضي إلىٰ الزِّنَا، يقول الغزالي: هي نظرة ثم خطرةٌ ثم خطوةٌ ثم خطيئة. فالمعصية بدأت أولًا بالنظر، وانتهت بكبيرة من الكبائر!

وقد قال الله تَعَالَىٰ في الأمر بذلك: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النُّور: ٣٠].

٢- **الفراغ**، وهو مِن أهم الأسباب التي تدعو إلىٰ الشهوات، وقد قيل:

إن الشبابَ والفراغَ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

٣- **التساهل في الصغائر والمحرمات**، قال النبي ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَىٰ الرَّجُلِ حَتَّىٰ يُهْلِكْنَهُ** ...»[1]. فبعض الناس يتهاون بالمعصية الصغيرة، ثم تتكاثر عليه حتىٰ تهلكه.

٤- **الصحبة السيئة**، فإذا صاحَبَ الشابُّ أشخاصًا سيئين فإنه يُعرِّض نفسه للشهوة من خلال الحديث معهم حول ذلك، أو عرض مواد مثيرة، أو غير ذلك، فيتسبب ذلك في معرفته بهذه الأشياء التي قد يصعب عليه التخلي عنها بعد ذلك.

٥- **ترك الصبر**، فالصبر عاصم من الوقوع في الشهوات، ذكر ابن تيمية أن الفتنة نوعان، هما: فتنة الشبُهَات، وفتنة الشهوات. وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن سبب فتنة الشبهات هو عدم اليقين، وسبب فتنة الشهوات هو عدم الصبر؛ لذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة: ٢٤].

٦- **عدم استحضار الثواب والعقاب في الآخرة**، فهذا يَجْعَل الإنسان يبتعد عن الشهوات، رجاء الأجر الجزيل في الآخرة.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٣٨١٨).

٧- **الإعلام وَمَا يُعرض فِيْهِ،** فالأفلام والمسلسلات وغير ذلك مما يعرض علىٰ الشاشات يغذي الشهوات، وهذه الأعمال تستخدم فيها نظريات في علم النفس لتحريك هذه الغرائز، بهدف جذب الجمهور؛ لذلك يحتاج الشخص أن يعرف كيف يتعامل مع الإعلام، وكيف يتعامل مع المنصات والتطبيقات المختلفة، حتىٰ لا يكون فريسة لإثارة الغرائز بشكل مستمر.

٨- **ثنائية القلب والعين،** إذا فسد الْقَلْب تحرَّكَ البصر، إذ القلب يتحكم في الأعضاء، ومنها العين والبصر، فإذا بدأت العين النظر إلىٰ المحرمات فسد القلب؛ لذا يجب علىٰ الشاب أن يراعي صلاح قلبه وغض بصره؛ لأن كلًّا منهما يؤدي إلىٰ الآخر.

٩- **التنشئة الأسرية،** لأن إهمال الأسرة الصغار وعدم تربية الأبناء علىٰ الإيمان واستشعار مراقبة الله ﷻ، وترك الحبل علىٰ الغارب في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي . . . كل ذلك يعرض الشباب للشهوات. وعلىٰ الآباء أن يعلموا أن الواقع صعب، والمغريات كثيرة، لكن هذا لا يعني الاستسلام، وإذا رأىٰ اللهُ جل وعلا من الإنسان صدق النية في البحث والجهد والاجتهاد في التربية فسيبارك في هذا الجهد، وإن كان قليلًا.

١٠- **البيئة المحيطة بِالإِنْسَانِ،** كالأقارب والزملاء والأصدقاء، وعلىٰ الشاب أن يكون صلبًا لا هشًّا تذروه الرياح في كل مكان، فإذا اختار الإنسان لنفسه بيئة صالحة فهذا من أكثر المعينات التي تبعده عن الشهوة المحرمة.

١١- **كثرة الأكل،** بعض الأطعمة تحتوي علىٰ سعرات حرارية تسبب زيادة الشهوة، وبعض الأطعمة يقللها، فمَن أراد تقليل الشهوة فعليه تناول الأطعمة التي تعمل علىٰ تقليلها، ويمكن استشارة أهل العلم والتخصص في ذلك.

علاج الشهوة:

١- **غض البصر**، وهو مِن أهم العلاجات التي تبعد الإنسان عن الشهوة المحرمة، قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

٢- **ترك الخلوة**، إن الفراغ من أبواب الشهوات، وعلىٰ الشاب أن يملأ فراغه بالخير والمبُاح والنافع، مثل: ممارسة رياضة، وتعلم مهارة معينة، ومساعدة الآخرين.

٣- **أداء العبادات**، قال الله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. فإضاعة الصلاة قد تكون سببًا في دخول الشاب في وحل الشَّهَوَات، والمحافظة عليها ومجاهدة النفس علىٰ الخشوع فِيْهَا من الأسباب التي تقي من الشهوة، قال ﷻ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفي الحديث: «**... مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[١].

٤- **الصوم**، لا شك أن الصوم علاج فعال لشدة الشهوة، وفي الحديث: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[٢].

٥- **التبكير بالزواج**، وعدم تأخيره ما دام الإنسان مقتدرًا جسديًّا وماليًّا، وهو علاج رئيس لمشكلة الشهوة لمن يقدر عليه.

٦- **منع أسباب الشهوة**، والابتعاد عن كل ما يؤدي إلىٰ الشَّهَوَات،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٥٩)، ومسلم رقم (٢٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٠٦٥)، ومسلم رقم (١٤٠٠).

كالمواقع الإباحية، أو البقاء منفردًا وحيدًا بلا عمل، أو صحبة السوء . . . فعلىٰ الشاب أن يجفف المنبع، وَلَا يتساهل فِيْهِ.

٧- **استشعار مقام الإحسان،** وهو أن يعلم الإنسان أن الله تعالىٰ يراه في كل مكان وزمان، وقد قال النبي ﷺ: «. . . **وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1]. فإن عِلْمَ الإنسان بأنه محاسب يوم القيامة يجعله يبتعد عن الشهوات، خاصة إذا آمَن أن سمعه وبصره وجلده يشهدون عليه يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٠].

٨- **استحضار نعم الله تعالىٰ،** إن استحضار نِعم الله تعالىٰ كفيلة بأن تردع الإنسان عن الانطلاق في الشهوات المحرمة، وكان النبي ﷺ يدعو فيقول: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ . . .**»[2].

٩- **إيقاف الخواطر،** كثير من السلوكات التي تنتج عَنْ الخواطر والفكر تكون ضارة، وهذا من أسباب البعد عن الشهوات أو تقليلها.

الاسترسال في الخواطر السيئة:

إن الإنسان قَدْ لا يحاسب علىٰ الخاطرة السيئة، بل يحاسب علىٰ الاسترسال فيها. فكيف يمنع الإنسانُ هذه الخواطر؟

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرين يمكن للإنسان أن يقطع بهما الخواطر السيئة، وهما:

١- التفكر في الكون، وفي مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبديع خلقه.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٤٢٧)، ومسلم رقم (١٠٥٣).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٥٠٢).

٢- شهود منة الله ﷻ عليه، وأنه محاسب علىٰ هذه النعم في الآخرة.

إن العقل مِثْل قمة الجبل الضيقة التي لا تتسع إلا لشيء واحد، فإذا جاءت فكرة سيئة فعلىٰ الشاب أن يمنعها من أن تعلو القمة، بل عليه أن يزاحمها بفكرة حسنة حتىٰ تزول الفكرة السيئة، أما الاسترسال في الخاطرة السيئة فهو مظنة الفساد.

إن الإنسان يسهل عليه التعامل مع الأفكار، ويصعب عليه التخلص من العادات التي اعتادها؛ لذلك يُقَال: راقب خواطرك؛ لأنها ستصبح أفكارًا، وراقب أفكارك؛ لأنها ستصبح سلوكات، وراقب سلوكاتك؛ لأنها ستصبح عادات. ويُقَال: الدفع أسهل من الرفع. أي أن دفع الشيء قبل وقوعه أسهل من رفعه بعد وقوعه؛ لأن مبدأ كل عمل خواطر، والخواطر تفضي إلىٰ الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وقطع هذه الخواطر من بداياتها أيسر من قطعها بعد تمامها.

إن للاسترسال في الخواطر السيئة أضرارًا صحية، واجتماعية، ونفسية، ودينية، ومن ذلك أنها سبب للوقوع في الذنب، كالعادة السرية أو المحرمات الأخرىٰ، والإنسان العاقل هو الذي ينظر في عواقب الأمور، ويعرف تبعاتها، ومما يساعد في ذلك أن يكون الشاب صاحب قضية أو هدف، فوجود شيء يشغله باستمرار يقلل الخواطر السيئة.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن الشاب لا ينبغي له أن يقسو علىٰ نفسه إذا وقع في الذنب، فهناك مِن الشباب مَن يتجه إلىٰ كُرْهِ نفسه أو احتقارها، فيقنط وييأس، وهذا من مداخل الشيطان التي ينبغي للإنسان أن ينتبه إليها، ويتذكر أن أبا البشر آدم عليه السلام خالف أمر ربه ﷻ، قال ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٣٧]. وقد تاب آدم عليه السلام فتاب الله ﷻ عليه، أما الشيطان فقد أُبْعِد عن رحمة الله بسبب شبهة، وهي الكبر وأنه أفضل مِن آدم عليه السلام، فكان أبعد عن قبول الحق.

إن معاصي بعض الناس قد تكون سببًا في توبته، وقربه من ربه تعالىٰ؛ لأنه يشعر بحرارة الذنب ويتوب، حتىٰ يغفر الله ﷻ له، وقد قيل: رُبَّ مَعصيةٍ أورثتْ انكسارًا خير مِن طاعة أورثت استكبارًا.

ومما يعين علىٰ الابتعاد عن الشهوات أن يتدبر الشاب حديث: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1]. فيتذكر أن طريق الشهوات هو طريق النَّار، وأنّ المكاره والصبر وإلزام النفس وإلجامها هو سبيل دخول الجنة.

الشريعة وضبط الشهوة:

من كمال هذه الشريعة الإسلامية وعظمتها أنها عالجت مشكلات الإنسان في مراحل عمره المختلفة، بداية من الطفولة مرورًا بالشباب ثم الشيخوخة، فالشريعة لها دور وقائي لحماية الإنسان من الوقوع في الشَّهَوَات، ابتداءً من تربية الطفل علىٰ الاستئذان في الدخول علىٰ والديه، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٥٨]. والهدف من ذلك: ألا يقع بصر الطفل علىٰ ما يكره. ومن سن السابعة إلىٰ سن العاشرة ثبت الحديث: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[2]. فأمر النبي ﷺ بالتفريق بين الأبناء في المضاجع. وعند البلوغ شُرِع غض البصر، قال ﷻ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]. ثم شُرِع الزواج في قول النبي ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[3]. ومَن لم يستطع الزواج أو الصوم فعليه البعد عن

---

(١) وراه مسلم رقم (٢٨٢٢).

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٩٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٥٠٦٥)، ومسلم رقم (١٤٠٠).

مواضع الريبة والشهوة، ففي الحديث: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ**»[1].

فإذا لم يراعِ الشابُّ كلَّ هذه الوسائل الوقائية ووقع في الفاحشة، فقد شُرِع حَدُّ الزنا، قال الله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]. وإقامة الحد له دور وقائي عظيم في الحدِّ من انتشار الزنا؛ لأن مَن يرىٰ إقامة الحد فإنه سيعتبر ويبتعد عن ذلك؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

آثار الشهوة علىٰ حياة الإنسان:

بَيَّنَ الإمام ابن تيمية أن الشهوة وأمراض القلوب تفسد التصورات وتضعف الإرادات؛ لأن ضعف الإرادة قد يُسبِّب للإنسان محبة الباطل، وكره الحَقِّ، فيصبح الباطل أقرب لنفسه؛ لأنَّهُ غارق في وحل الشهوة.

ومن الآثار السيئة للشهوة تبرير الفعل القبيح، فقد يستحل ما حرم الله ﷻ، أو يقع في المعصية دون أن يقتنع أن ما يفعله محرم.

إن ضعف الإرادة من أسباب ضعف الشاب عن ممارسة مهامه بشكل صحيح، فيكون مسلوب الإرادة، معتمدًا علىٰ غيره في القيام بمهامه، وهذا أعظم ما يريده أعداؤنا منا.

بين الحب والعشق:

يفرق البعض بين الحب والعشق بأن الحب مقرون بإجلال، كأن يحب المسلمُ الله ﷻ أو والديه أو أبناءه، أما العشق فهو الحب مع استحسان، وإن كان المعشوق سيئًا؛ لذلك فالعشق قد يوقع الإنسان في مخالفات أو مغالطات، وفي ذلك يقول كُثَير عزة:

---

(١) رواه الترمذي رقم (١١٧١).

ألا ليتنا يا عزَّ كنا لذي غِنًى بعيرَين نرْعىٰ في الخلاءِ ونَعْزُبُ
نكونُ بعيرَي ذي غِنًى فيُضيعُنا فلا هو يرعانا ولا نحنُ نُطلبُ
كلانا به عُرٌّ فمَن يرَنَا يقُلْ علىٰ حُسنها جرْباءُ تُعْدي وأجرَبُ
إذا ما وردْنا منهلًا صاحَ أهلُه علينا فما ننفكُّ نُرْمَىٰ ونُضربُ
وددْتُ وبيتِ الله أنكِ بكْرَةٌ هجانٌ وأني مُصعبٌ ثمَّ نَهْرب

إن طريق الشهوة شديد الانحدار، فينبغي للإنسان أن يبتعد عن الانزلاق فيه؛ لأنه إذا ابتدأ الطريق صعبت عليه العودة، ويتحقق البعد عنه من خلال الحرص علىٰ الإجراءات الوقائية التي وردت في أحكام الشريعة الإسلامية الغراء.

بين الشهوات والشبهات:

إن أصل الشبهات يقوم علىٰ جذع الشهوات، وذلك أن بعض الشباب إذا غرق في بحر الشهوات فإنه يسعىٰ للتخلص من الدين كلِّهِ، فيتجه نحو الإلحاد وغير ذلك حتىٰ يبرر لنفسه ما يفعل، ويستحل ما حرم الله ﷻ. ومثال ذلك أن شابًّا قال: كيف يبتليني الله ﷻ بالشهوة، ثم يبتليني بالفقر فلا أتزوج، ثم يعذبني في الآخرة علىٰ ذلك؟! ومن هنا كانت بداية طريقه إلىٰ الإلحاد!

النجاة من الشهوات[1]:

جاءت في الشريعة طرق متعددة تساعد المسلم علىٰ النجاة من هذا الابتلاء، ومن ذلك:

١- **تحصيل التقوىٰ والاستغفار**، قال الله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا

(١) توجد مبادرات متخصصة تعين الشباب علىٰ التخلص من الشهوات، منها: مبادرة عفة، وهي موجودة في اليوتيوب، ومبادرة وعي، وهي متخصصة في محاربة الشهوات والإباحية، وعندهم أدوات وتقنيات لمعالجة من وقع في هذه الشهوات، وهي برامج نافعة مفيدة.

فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢- مزاحمة السيئة بالحسنة: فذلك مما يعين علىٰ التخلص من الشهوات، وقد وَرَدَ أن رجلًا قَبَّلَ امرأة، فتاب وأناب، فنزل قول الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

٣- التوبة والإنابة: وهما من الوسائل المعينة علىٰ الابتعاد عن الشهوات، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ أَصَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ- آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[(١)].

أولادنا والشهوة:

هذا الزمن مليء بالشهوات، وعلىٰ الأسرة دور كبير في تحصين الأولاد منها، وهذا ليس صعبًا، بل واقع ومشاهد، إذ الواقع يشهد أن كثيرًا من الشباب مبتعدون عن مواطن الشهوات المحرمة، ومن ذلك حديث: «**إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٧٥٠٧)، ومسلم رقم (٢٧٥٨).

الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»[1]. أي: الشاب الذي ليس له انحراف أو زلل. وقيل: هو الشاب الذي ليس له مَيْل إلىٰ الهوىٰ بحُسْن اعتياده للخير، وقوة عزيمته في البُعْد عن الشر.

وفي إحدىٰ الدراسات عن دور الأسرة في وقاية الأطفال والشباب من الفكر الإلحادي، ذكرت ثلاث استراتيجيات، هي:

الاستراتيجية الأولىٰ: البناء والتأسيس، ويقصد بذلك المحافظة علىٰ فطرة الطفل من الصغر، من خِلَال تربيته تربية إيمانية تساعده علىٰ النشأة الصحيحة، وهذا الأصل مهم في حمايته مستقبلًا من الانحرافات، وعناصر هذه الاستراتيجية هي: المحافظة علىٰ الفطرة، وغرس الإيمان، وغرس المراقبة.

الاستراتيجية الثانية: المساندة والدعم، وذلك بالقرب من المراهق ومساعدته، وحل مشكلاته، وتقديم التشجيع المستمر علىٰ الحشمة والعفاف وغض البصر، وتعليمه النماذج الصالحة، كقصة النبي يوسف عليه السلام، مع مراعاة الفوائد المستفادة من هذه القصص.

الاستراتيجية الثالثة: المتابعة واليقظة، وذلك بمتابعة تصرفات الأبناء، وكيفية تعاملهم مع وسائل التواصل الاجتماعي، ومتابعة حواسيبهم وهواتفهم الشخصية، وهذا مِن شأنه أن يعين الوالدين علىٰ التحقق من صحة النتائج التي وصلت إليها عملية التربية.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٧٣٧١).

مراجع للاستزادة:

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم.
- تعس عبد الشهوات، أزهري أحمد.
- تهافت الشهوات، .
- كتاب شهوة كيف نخوض معارك الشهوات بطريقة أكثر وعيا، حسن باشا.

الفصل السادس عشر
سؤال التفكير

نتناول في هذا الفصل سؤال التفكير من حيث معناه، وأهميته، ومستويات التفكير، ومعوقاته، ومهاراته، وأنواعه، وكيفية تطويره.

معنىٰ التفكير:

التفكير له تعريفات كثيرة، وفيه مدارس متنوعة، منها علىٰ سبيل المثال:

قيل: التفكير هو: سلسلة من الأنشطة العقلية التي تعمل علىٰ الوصول إلىٰ الحقيقة.

وقيل: التفكير هو: البحث المدروس والتقصي من أجل الوصول إلىٰ غرض معين.

وقيل: التفكير هو: القدرة علىٰ التأمل والتفكير من أجل اتخاذ قرار أو حل مشكلة أو الحكم علىٰ الآخرين.

ويمكن القول: إن التفكير يدور بين هذه التعريفات الثلاثة، وبذلك فالتفكير هو: نشاط ذهني، ومجموعة من العمليات العقلية؛ كالإحساس، والإدراك، والتخيل، والتحليل، تهدف إلىٰ حل مشكلة، أو اتخاذ قرار، أو حكم علىٰ الآخرين، أو تمييز بين الصواب والخطأ.

أهمية سؤال التفكير:

تتمثل أهمية هذا السؤال فيما يلي:

١- **التفكير مطلبٌ شرعي**، ففي آيات كثيرة من القرآن أمر الله ﷻ بالتفكر والتدبر، قال ﷻ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]. وغيرهما من الآيات التي تدل علىٰ أهمية التفكير وإعمال الإنسان عقله فيما حوله.

٢- **التفكير ضرورة إنسانية**، إن حياة الإنسان اليومية -منذ استيقاظه حتىٰ نومه- مبنية علىٰ أفكار وتأمل ونظر.

٣- **ارتباط السلوك بالتفكير**، حيث ذهبت بعض المدارس إلىٰ أن السلوك مرتبطٌ بالتفكير، فكثير من سلوكاتنا ناشئة عن التفكير، وذهب أصحاب المدرسة المعرفية السلوكية إلىٰ أن «مثلث الإدراك» يبدأ بالأفكار ثم المشاعر ثم السلوك، وكل عنصر من هذه العناصر يؤثر في الأخرىٰ، فارتباط سلوكنا بالأفكار يجعلنا نتحدث عن التفكير.

٤- **الانفتاح المعرفي**، وهذا يتطلب من الإنسان أن يمتلك أداة التفكير، حتىٰ يضبط المعلومات والمعارف التي يتلقاها من الآخرين، وينظر في أدلتها، ولا يقبل منها إلا الصحيح، وهذا لا يكون إلا بالتفكير.

مستويات التفكير:

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٠-٢٤]. انطلاقًا من هذه الآيات يتبين وجود فروقات بين مستويات التفكير لمن تأمَّل، ومِن هنا، يتبين أن التفكير ليس علىٰ درجة واحدة، بل له مستويات متعددة.

يرىٰ البعض أن مستويات التفكير ستة، هي: التذكر، ثم الفهم، ثم التطبيق، ثم التحليل، ثم التقييم (أو التركيب)، ثم الابتكار.

ويرىٰ البعض أن التفكير ينقسم إلىٰ: مهارات التفكير الدُّنيا، ومهارات التفكير العليا، فالمهارات الدنيا لا تحتاج إلىٰ تعقيد في العمليات العقلية، أما العمليات العليا (التفكير المركب) فهي التي تحتاج إعمال العقل بشكل أكبر.

ومهارات التفكير الدنيا تشمل التحليل، أي: تفصيل مكونات الشيء إلىٰ أجزاء، أو البحث عن العلاقة، أو البحث عن الأسباب، كأن تظهر مشكلة مجتمعية فيُعْمِل الشخصُ فكرَهُ في تفكيك هذه الظاهرة إلىٰ أجزاء، وتحليل أسبابها.

ثم يأتي التقييم، وفيه يتم تقييم هذه الظاهرة، ثم إصدار الحكم المناسب عليها.

ثم يأتي الابتكار، وهو أعلىٰ مستويات التفكير، وفيه يبتكر الإنسان طريقة أو حلًّا للمشكلة موضع الدراسة.

أما مَن يقفز إلىٰ النتائج مباشرة دون المرور بخطوات التفكير السابقة فهذا أحد معوقات التفكير، إذ قد لا يصل إلىٰ الحقيقة، أو الإجابة الصحيحة للسؤال المطروح.

معوقات التفكير:

إن الشاب في حاجة لمعرفة كيفية تحسين عملية التفكير؛ لأنه قد يمارس التفكير بطريقة خاطئة، ومن المعلوم أن اتخاذ القرار مبني علىٰ عملية التفكير؛ لذا علىٰ الشاب أن يعرف كيف يفكر حتىٰ يصل إلىٰ النتائج المطلوبة بأقصر طريق،

ولكن هذا التفكير له معوقات تمنعه من السير في الطريق الصحيح، وفيما يلي هذه المعوقات:

أولًا: المعوقات الداخلية:

١- **التهويل**، من المعوقات الداخلية المبالغة والتهويل في النظر إلىٰ القضايا المختلفة، بحيث يبالغ الشاب فيها، ولا يعطيها حجمها، وبالتالي لا يتخذ القرار الصحيح تجاهها.

٢- **التعميم**، فبعض الناس يعمِّمُ مشكلة شخصية علىٰ عموم الناس.

٣- **عدم الواقعية**، وهذا المعوق يجعل الإنسان لا يفكر بالطريقة الصحيحة

٤- **القفز للنتائج**[١]، دون المرور بمراحل التفكير الأولية وصولًا إلىٰ النتائج.

٥- **الاعتماد علىٰ النفس**، ويقصد بهذا المعوق أن يبتعد المسلم عن طلب المعونة من الله تعالىٰ، فيكله الله ﷻ إلىٰ نفسه، فيضل ويشقىٰ، ويُروَىٰ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (ولا تجعل الأمر مشتبهًا علينا فنتبع الهوىٰ).

٦- **ترك الاستشارة**، لأن المستشار يفتح للمستشير زوايا الرؤية، فيبصر بشكل أفضل، ومَن يستشِرْ أهل الخبرة والفن يصل إلىٰ مراده بأقصر الطرق.

٧- **الاستشارة الخاطئة**، كمَن يستشير مَن لا يعرف، أو مَن ليس بثقة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

٨- **انضباط المشاعر**، إن انضباط المشاعر يساعد الإنسان علىٰ اتخاذ القرارات الصحيحة؛ لأن المشاعر والاحتياجات النفسية والبيولوجية لها أثر في القرارات؛ لذا قيل: لا تسأل جائعًا ولا خائفًا.

---

(١) في كتاب «التفكير السريع والتفكير البطيء»، بَيَّنَ دنيال كانمان خطورة التفكير السريع في اتخاذ القرارات، وهو كتاب علمي جيد في التفكير، وفيه دراسات وإحصائيات جيدة عن التفكير.

٩- **طرح الأسئلة**، وهو مِن الأدوات المساعدة علىٰ التفكير الصحيح، وسبق بيان «سؤال السؤال» في فصل سابق من هذا الكتاب.

ثانيًا: المعوقات الخارجية:

١- **البيئة المحيطة**، كأن يعيش الشخص في محيط يستهزئ بقراراته وتفكيره، أو أن تكون البيئة كابتة للأفكار.

٢- **التضليل الإعلامي**، فالأخبار الكاذبة، والشائعات، وتزييف الحقائق من المعوقات الخارجية التي تعيق عملية التفكير.

٣- **التفكير الجمعي**(١)، فإن الجماهير إذا اجتمعت فهي رؤوس مُتَعَدِدَة لعقل واحد، فإذا كان الإنسان داخل مجموعة فإنه يفقد استقلاليته الشعورية والعقلية، فيفرح إذا فرح مَن حوله، ويحزن إذا حزنوا، وهو ما يُسمَّىٰ «ثقافة القطيع»، وهذا يبعد الإنسان عن الاستقلال في التفكير.

مهارات التفكير:

إن التفكير يُدرَّس في عدة علوم، منها: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأحياء، وعلم الفلسفة؛ لذا فالتفكير فيه خلافات كثيرة ومدارس مختلفة بحسب العِلم الذي يدرسه، وبالنظر إلىٰ هذه العلوم يمكن تلخيص مهارات التفكير فيما يلي:

١- **مهارة التفسير**، ويُقصَد بها: استطاعة الإنسان إيضاح فكرته جيدًا بصياغتها صياغة صحيحة، وإبانتها للسائل.

٢- **التقسيم إلىٰ أجزاء**، وذلك بتقسيم المشكلة إلىٰ أجزاء أصغر، ثم علاج هذه الأجزاء، وبالتالي علاج المشكلة الأساسية.

---

(١) لا يقصد بهذا المعوق أن يبتعد الإنسان عن التفكير الجماعي، ويخالف المجموعة في قراراتها، بل المقصود أن يتخذ القرار المبني علىٰ دليل. وبذلك فالمقصد هو أن لا يتقيد الإنسان بقرارات المجموعة إذا كانت خاطئة غير قائمة علىٰ دليل.

٣- **المعرفة السليمة**، المأخوذة من مصادرها الأصلية، وعدم التسليم بما هو مشهور بين الناس. أما سطحية المعرفة فهي من معوقات التفكير.

٤- **الموضوعية**، وتكون بالاستدلال الصحيح القائم علىٰ دليل علمي، أما الذاتية فهي من معوقات التفكير.

٥- **التقييم**، وهو علم يُدرس في الجامعات، وفيه يضع الشخص التقييم الصحيح للظاهرة موضع الدراسة. ولا بد أن يكون التقييم مع المعرفة والخبرة وفق منهجية مناسبة؛ لأن بعض الناس يحكم بناء علىٰ معرفته السابقة غير المبنية علىٰ دليل.

٦- **المرونة**، بحيث يكون الشخص قادرًا علىٰ تغيير أحكامه إذا تبين له خطؤها.

٧- **الاستدلال**، بأن يكون الإنسان قادرًا علىٰ ذِكر الدليل الصحيح علىٰ رأيه.

٨- **التنظيم الذاتي**، ويعني مراقبة الإنسان أفكاره، وهو ما يُسمَّىٰ «التفكير في التفكير».

أنواع التفكير:

للتفكير نوعان، هما:

التفكير الإيجابي، مثل: التفكير الناقد، والتفكير الإبداعي، والتفكير العلمي، والتفكير المنطقي.

التفكير السلبي، وهو التفكير العاطفي أو السطحي غير القائم علىٰ دليل.

وهناك مَن يرىٰ أن أنواع التفكير هي: التفكير الناقد، والتفكير الإبداعي، والتفكير الابتكاري، والتفكير المنطقي، والتفكير العلمي.

ويبدو أن الأَوْلَىٰ هو أن يبدأ الشاب بالتفكير الناقد، فهو أولىٰ من غيره؛ لأنه يشتمل علىٰ التمحيص، والحكم، والأدلة، والتقييم. ويرىٰ آخرون أن الشاب

عليه أن يبدأ بالتفكير الإبداعي[١]؛ لأنه يساعده علىٰ النظر إلىٰ الموضوعات بطريقة مختلفة.

من معايير التفكير:

للتفكير معايير متعددة، منها:

١- **الوضوح**، أي وضوح الفكرة، ووضوح الدليل، ووضوح ما يريد التعبير عنه.

٢- **الصحة**، بحيث تكون الفكرة صحيحة ليست خطأ، ولا يشتمل علىٰ متناقضات ومغالطات منطقية ومحالات عقلية[٢]، فإذا كانت الفكرة خطأ فهذا يعوق عملية التفكير.

تعلم التفكير وتعليمه:

توجد مدرستان في تعليم التفكير،

الأولىٰ: ترىٰ أن التفكير يُدرس من خلال نشره في المناهج الأخرىٰ، الثانية: ترىٰ أن يُفرد التفكير بمنهج مستقل، بحيث لا يكون ضمن المناهج الأخرىٰ.

وكل طريقة لها إيجابيات وسلبيات، وأرىٰ أنه يمكن الدمج بينهما، بحيث يدرس في مناهج مستقلة، ولا مانع من بثه في كتب العلوم والتخصصات المختلفة.

---

(١) لا يُقصد بالتفكير الإبداعي أن يكون الشاب صاحب اكتشافات واختراعات وبراءات اختراع، بل المقصود أن يكون لديه إبداع في مجالٍ من المجالات، مثل: كتابة الشعر، أو حل المشكلات، أو غير ذلك.

(٢) لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب بديع في هذا، وهو «درء تعارض العقل والنقل»، وبَيَّنَ فيه أن النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح، وأن الشريعة لم تأتِ بالمتناقضات.

أهمية التفكير في الحياة:

إن حياة الشاب لا تخلو من اتخاذِ قرار، أو حلٍّ مشكلة، أو حكمٍ علىٰ الآخرين، فإذا لم تكن لديه قواعد ومعايير التفكير الصحيح فسيكون عنده خللٌ في قراراته، إما إذا سار الإنسان وفق خطوات علمية مدروسة فإنه يصل إلىٰ الحل الصحيح لما يواجهه من مشكلات، ومن هذه الخطوات:

١- ملاحظة المشكلة أو الظاهرة الاجتماعية التي يريد دراستها.

٢- صياغة المشكلة، وتحديدها حتىٰ تكون معلومة يسهل حلها.

٣- جمع المعلومات والبيانات والمعطيات حول المشكلة وأسبابها وجذورها.

٤- جمع الآراء ذات الصلة بالمشكلة.

٥- جمع الأدلة وفحصها، وبيان ما يمكن تطبيقه علىٰ هذه الظاهرة.

٦- تبني الرأي الذي يمكن أن يسهم في حل المشكلة.

٧- اتخاذ القرار الصحيح المناسب لحل هذه المشكلة.

تأثير الخطاب التربوي علىٰ التفكير عند الشباب:

إن التربية تدور حول غرس القيم، والتوجيه إلىٰ ما هو نافع، وغير ذلك، ولا بد للمربي أن يعرف كيف يوجه الشباب إلىٰ الطريق الصحيح دون مبالغة أو تهوين؛ لأن هذا مضر بالمتعلمين، لأن التربية الخاطئة تؤدي إلىٰ طريقة تفكير خاطئة؛ ولذا فهناك انعكاسات خطيرة تتبع الخطاب التربوي إذا لم يكن صحيحًا.

تطوير التفكير:

يمكن تطوير عملية التفكير من خلال الآتي:

١- مراقبة الأفكار، وتقييم طريقة التفكير ووسائله.

٢- تغذية العقل باستمرار، بالقراءة والاطلاع، والتجارب، والاحتكاك بالآخرين.

٣- مصاحبة المفكرين الذين يحسنون عملية التفكير.

٤- البناء المعرفي للتفكير بحضور الدورات المتخصصة في تنمية التفكير.

التفكير والعلم الشرعي:

إن العلم الشرعي ليس معلومات تُحفظ فقط، ولا سيما علوم الآلة كمصطلح الحديث وأصول الفقه، بل هذه العلوم تبني منهجية للتفكير؛ لذا فالعلم الشرعي عمومًا -وعلوم الآلة خاصة- أحد المساعدات التي تساعد الإنسان علىٰ بناء التفكير الصحيح، ومن ذلك أن تطبيق قواعد علم أصول الفقه علىٰ علم الفقه يحتاج إلىٰ تفكير، وإعمال عقل. وكذا علم مصطلح الحديث يعطي الإنسان معايير موضوعية صارمة في التعامل مع الألفاظ ومعرفة الرجال والحكم عليهم، وقبول رواية الراوي أو رفضها. وكذا دراسة اللغة العربية، فهي تعمل علىٰ تحسين الذائقة اللغوية، وإتقان الإعراب، والاهتمام بها يُحسِّن عملية التفكير.

برامج ومبادرات في التفكير:

توجد برامج عالمية في تعليم التفكير، مثل: تريز لحل المشكلات، وبرنامج الكورت، وبرنامج اتجاهات التفكير، وغيرها من الكتب والبرامج والدورات التي تعين الإنسان علىٰ تغيير عملية التفكير وتحسينها[١].

تعزيز التفكير:

التفكير في البيئة التعليمية أو التربوية أو الشبابية يعتمد علىٰ أشياء، هي: المعلم، والمنهج، والبيئة المحيطة، والأدوات. وهذه العناصر متكاملة وليست متقاطعة، فينبغي أن تُوجد جميعًا في بيئة التعليم حتىٰ تؤتي ثمارها، وتعزز التفكير وتسهم في تطويره.

---

(١) يمكن مطالعة كتابات الدكتور/ خالد الدريس حول «التفكير من منظور إسلامي»، فله مقالات جيدة ومقاطع مصورة في هذا الموضوع.

إن الأسرة هي البداية الحقيقية لعملية التفكير، ويمكن تنميته لدى الأطفال من خلال بعض ألعاب التفكير التي تسهم في بناء التفكير منذ الصغر، وكذا ينبغي أن يكون الوالدان قدوةً في ذلك، بحيث يفكران بطريقة صحيحة، ويتخذان القرارات بطريقة مدروسة؛ لأن الطفل يستفيد هذه المهارات بالتلقي وبالمحاكاة.

ومن ذلك أيضًا: إتاحة الحوار والنقاش بشكل مستمر، بحيث تكون البيئة داعمة ومعززة لعملية التفكير، وقبول التنوع والاختلاف في الآراء، واحترام آراء المجموعة، ومراعاة اختلاف طرقهم بالتفكير، ومعرفة الوالدين كيفية التعامل مع أنواع التفكير المختلفة لدى الأطفال، كالتفكير الإبداعي أو التفكير الناقد أو غيرهما.

إن الاعتماد على الخطوات العلمية والمنهجيات وحدها لا يكفي، ولا شك أن الإنسان لا يوفق إلى الخير إلا بفضل الله ﷻ، فإذا وُكل الشخص إلى نفسه هلك؛ لذا ورد في الحديث: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[١].

مراجع للاستزادة:

- فصول في التفكير الموضوعي.
- علم التفكير، د. صلاح معمار.
- فن التفكير رؤية إسلامية، لأحمد البراء الأميري
- التفكير السريع والبطيء، دانيال كونمان.
- قوة التفكير، إبراهيم الفقي.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٥٠٩٠).

الفصل السابع عشر
سؤال الصداقة

نتناول في هذا الفصل سؤال العلاقات الشخصية بشكل عام، وعلاقة الصداقة بشكل خاص، من حيث بيان المقصود بها، وأهميتها، والحاجة إليها، ودوائر العلاقات، وأنواعها، ومعاييرها، وعوامل نجاح الصداقات وفشلها.

معنىٰ العلاقة:

يمكن تعريف العلاقة عمومًا بأنها: رابطة تقوم بين شخصين أو أكثر.

وقيل هي: علاقة بين اثنين أو أكثر تقوم علىٰ أساس المودة والاحترام والتضحية.

وورد عن بعض السلف في تعريف الصداقة: اتفاق القلوب علىٰ المودة.

أهمية العلاقات:

١- التعارف وتقوية أواصر المحبة، فمِن مقاصد الشريعة أن تتعارف الشعوب والقبائل، والتعارف يحدث ببناء علاقة مع الآخرين، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وهذه العلاقة تأخذ أشكالًا متعددة، مثل: علاقة القرابة أو المصاهرة أو الصداقة أو غيرها.

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية أيضًا تقوية أواصر المحبة في الله ﷻ، قال النبي ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»**(١).

٢- أن الإنسان بطبعه مدني، ويحتاج إلىٰ التعامل مع الآخرين في العمل، أو الشارع، أو السكن، ولا بد من معرفة حدود كل علاقة من هذه العلاقات.

٣- تعقيد الحياة المعاصرة، وانتشار الموجة المادية، وتضخم «الأنا» عند بعض الناس، وبسبب هذا التيار الجارف يحتاج الشاب إلىٰ معرفة ضوابط العلاقات وأهميتها وكيفية التعامل معها.

٤- كثرة الخلافات والنزاعات داخل العلاقات، بما فيها علاقة الزواج التي هيَ مِن أوثق العلاقات، فكانت الحاجة داعية إلىٰ معرفة ضوابط العلاقات لتقليل تلك الخلافات.

٥- أن النبي ﷺ حث علىٰ مخالطة الناس ونفعهم، قال النبي ﷺ: **«المُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ المُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ»**(٢).

٦- كثرة شكاوىٰ الشباب من سوء علاقاتهم بالآخرين، أو عدم قدرتهم علىٰ تكوين علاقات سليمة، وهذا يبين أهمية مناقشة هذا الموضوع، حيث إنه سؤال مؤلم ومؤرق لبعض الشباب والفتيات.

٧- ظهور مصطلح جديد في العلاقات -وهو العلاقات الافتراضية- الذي ظهر من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، حيث سهلت هذه الوسائل إقامة العلاقات بين الناس والتواصل مع الآخرين، والتفاعل مع أفكارهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٠١١)، ومسلم رقم (٢٥٨٦).

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٥٠٧).

٨- أن الصداقة مسؤولية كبيرة، وقد قيل: مَن كثُرَ أصدقاؤه كَثُر غرماؤه. لأن الصديق عليه التزامات تجاه الأصدقاء، فإذا لم يؤدِّ هذه الالتزامات وقع في الحرج.

الحاجة إلىٰ العلاقات:

من المشهور لدىٰ علماء النفس والاجتماع أن الصداقة حاجة عند الإنسان؛ لأنه في حاجة إلىٰ الشعور بالانتماء إلىٰ المجموعة؛ لذا فالعلاقات جزء من الانتماء في هرم حاجات الإنسان لماسلو، فإذا لم يستطع الشاب تكوين علاقات صداقة ناجحة فَقَد الثقة بنفسه؛ لأنه يشعر بضعف ذكائه الاجتماعي.

إذن، الأصل أن الصداقة حاجة لدىٰ الإنسان، لكن إذا لم يستطع الشاب تكوين العلاقات بسبب عدم توافر شروط الصديق المطلوب فلا ضرر من قلة الصداقات، وإن كان ذلك له آثار سلبية أخرىٰ، كأن يشعر الشاب بالعزلة، وعدم التكيف الاجتماعي، وغير ذلك.

إن الأصدقاء الصالحين ذخر للإنسان في الدنيا والآخرة، والعلاقة بهم قد تكون أقوىٰ من علاقة المصاهرة والقرابة والنسب، قال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترىٰ استغاثة الجهنميين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١][1].

ومن عجائب الصداقة ما ذكره أبو حيان التوحيدي في كتاب «الصداقة والصديق» عن القاضي ابن سيار وأبي سليمان السجستاني، قال أبو حيان: (ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرىٰ بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية. فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يرثان علىٰ الدهر، ولا يحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/٣١٦).

ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة، حتىٰ أنا نلتقي كثيرًا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان، حتىٰ كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل)[1].

إن الصداقة ذات مكانة عالية، ومنزلة عظيمة في تاريخنا الإسلامي، وفي بيان أهمية هذه العلاقة يقول الشاعر:

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ	**فلا تستكثرنَّ من الصِّحابَ**
فإن الداءَ أكثرَ ما تراهُ	**يحولُ من الطعام أو الشرابِ**
إذا انقلبَ الصديقُ غدًا عَدُوًا	**مُبينًا والأمورُ إلىٰ انقلابِ**
ولو كان الكثيرُ يَطيبُ كانتْ	**مُصاحبةُ الكثير من الصوابِ**
ولكن قلَّ ما استكثرتَ إلَّا	**سقطتَ علىٰ ذئابٍ في ثيابِ**
فدعْ عنك الكثير فكم كثيرٍ	**يُعافُ وكم قليلٍ مُستطابِ**

إن الصحبة إذا كانت قائمة علىٰ أساس طاعة الله ﷻ، فلا شك أنها نافعة لصاحبها؛ لذلك قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. ورغم ذلك فإن بعض الناس قد يكون له أصدقاء صالحون، ثم يتخلىٰ عنهم فيصبح أمره فرطًا في أمور الدنيا والدين؛ لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الصداقة قوةٌ علىٰ الأعداء، وزينةٌ في الرخاء، وعدةٌ في البلاء.

وذهب البعض إلىٰ التقليل من اتخاذ الأصدقاء، وعدم التوسع في ذلك، ومن ذلك قول الغزالي رحمه الله: لا تستكثر من الأصحاب؛ حتىٰ لا تفضح أمامهم يوم القيامة. ولعله يقصد الاستكثار من أصدقاء السوء، أما الاستكثار من

---

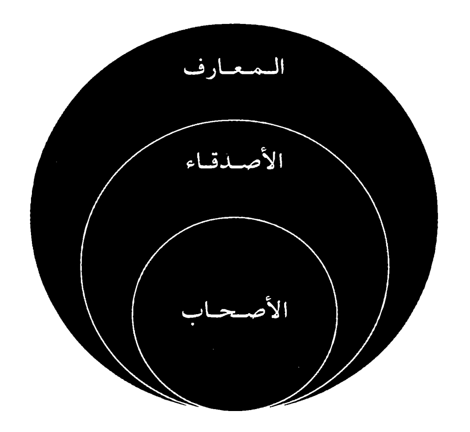
(١) الصداقة والصديق (٣٠).

الأصدقاء الطيبين فأمر محمود، وقد بَيَّنَ النبي ﷺ دور الصديق الصالح في نجاة صاحبه يوم القيامة، فقال: «... **وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ**»[1].

دوائر العلاقات:

بعض الناس لديهم علاقات واسعة، وبعضهم له علاقات ضيقة، فهذا يختلف من شخص إلىٰ آخر، لكن عمومًا العلاقات المتعددة تفتح للصديق آفاقًا جديدة، وخبرات أوسع عند التعامل مع أشخاص مختلفين.

والعلاقات لها ثلاث دوائر، هي:



الدائرة الكبرىٰ: المعارف، وهي علاقة عامة، وتشمل كل مَن يعرفهم الشخص في حياته، سواء أكانوا من العائلة أو زملاء الدراسة أو سكان الحي الذي يعيش فيه أو غيرهم.

الدائرة المتوسطة: الصداقة، وهي علاقة خاصة، كأن يكون للشخص أصحاب في الجامعة أو العمل أو السفر أو غير ذلك.

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٣٩).

الدائرة الصغرىٰ: الصحبة، وهي علاقة خاصة الخاصة، وهم مَن يثق فيهم الشخص، ويحرص علىٰ تقوية علاقته بهم، وعددهم يدور بين شخصين إلىٰ خمسة أشخاص.

وتظهر أهمية هذا التفريق في أن يعرف الشخص من يجب عليه أن يقدمهم علىٰ غيرهم إذا تكاثرت الواجبات عليه، وكذلك تفيد الشخص في تحديد طريقة التعامل مع أصحاب كلِّ دائرة، كإخبارهم بالأسرار، أو طلب المساعدة في الأمور الخاصة، أو غير ذلك.

ومن إشكاليات العلاقات أن الإنسان لا يحسن وضع نفسه في الدائرة الصحيحة في علاقته بالآخرين، إذ قد يضع نفسه في دائرة الأصدقاء لدىٰ شخصٍ ما، بينما ذلك الشخص يعده من المعارف، وهنا يحدث الخلاف والنزاع، وسوء العلاقة.

ومن المهم في العلاقات أن يتقبل الإنسانُ دائرته عند الطرف الآخر، ولا يضع نفسه في دائرة لا يرغب الطرف الآخر أن يضعه فيها، فهذا أدعىٰ لاستمرار العلاقة.

ومن فوائد هذا التقسيم أيضًا: أن الناس يختلفون في مستوىٰ العطاء، فالدائرة الأقرب يجب أن تأخذ الوقت الأطول والتضحية الأعظم، مثال ذلك: الزوجة من الدائرة الضيقة للزوج؛ لذا فالزوجة أولىٰ من غيرها بمال الزوج ووقته والحديث معه وغير ذلك إذا كثرت المهام لدىٰ الزوج ولم يستطع التوفيق بينها. وفي الحديث: «**خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١٤٢٦)، ومسلم رقم (١٠٣٦).

أنواع العلاقات:

العلاقات لها ثلاثة أنواع، هي: العلاقة مع الله، والعلاقة مع النفس، والعلاقة مع الآخرين. وقد جمعها النبي ﷺ في قوله: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1]. وهذا الحديث من جوامع كلم النبي ﷺ، إذ يبني منهجًا للتعامل مع العلاقات الثلاث في كلمات قليلة، وفيما يلي بيان هذه العلاقات:

العلاقة مع الله، وهي الواردة في قوله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ...**». وهي العلاقة الأهم في حياة كل شخص، وهي التي تؤثر في العلاقتين التاليتين، وهي التي ينبغي للإنسان أن يحاسب نفسه عليها كل يوم وباستمرار.

والعلاقة مع الله تعالىٰ تشمل فعل أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، والرضا بأقداره، كالآتي:

أ- **فعل الأوامر**، فهذا من حسن العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك الإسراع إلىٰ الصلاة عند سماع الأذان.

ب- **اجتناب النواهي**، أي ترك كل ما نهىٰ الله سبحانه وتعالى عنه من المحرمات والمنكرات والمكروهات.

ج- **تصديق أخباره**، فلا مجال للاجتهاد والأخذ والرد فيما ورد عن الله عز وجل، وهذا من تمام تعظيم الله سبحانه وتعالى.

د- **الرضا بأقداره**، وهذا من أركان الإيمان، ومن حسن العلاقة مع الله تعالىٰ أن يرضىٰ المسلم بما قدره الله تعالىٰ من خير وشر.

العلاقة مع النفس، وهي قوله ﷺ: «... **وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ...**». وتكون بأن يحترم الإنسان ذاته، ويعرف قدرها، ولا يحتقرها، ولا يرفعها فوق منزلتها، ويقوِّمها ويطهرها ويزكيها.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٨٧).

العلاقة مع الناس، وهي الواردة في قوله ﷺ: «... **وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**». بأن يعامل الناسَ بخلقٍ حسن، وأقله أن يبتسم في وجه الآخرين، وكلما زاد في الإحسان إلىٰ الآخرين فهذا أفضل وأكمل.

وقال الشاعر:

أَحْسِنْ إلىٰ النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهم   فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

معايير العلاقات:

للعلاقات معايير متعددة عليها تقوم وبها تستمر، ومن أهم هذه المعايير:

١- **الإيمان**، لأن الصديق غير المؤمن يورد صاحبه المهالك، قال الله تعالىٰ عن أهل الجنة بعد أن دخلوها وتساءلوا عن أصحابهم في الدنيا: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٦١]. و«القرين»: الصاحب الملازم، وكان يقول لصديقه: هل تصدق باليوم الآخر والبعث والنشور؟! وفي يوم القيامة سأل عن صديقه فعلم أنه من أهل النار، فاستشعر نعمة الله ﷻ عليه أنه لم يتأثر بهذا الصديق.

وهذا المشهد القرآني يدعو الشاب إلىٰ تأمل علاقته بالآخرين، فمِن نِعم الله تعالىٰ علىٰ الإنسان أن يوفقه لصاحب صالح، ويبعده عن صديق السوء.

٢- **التقوىٰ والعمل الصالح**، فالصاحب التقي هو الذي يقرب صاحبه من الله ﷻ، قال الله تعالىٰ في بيان أهمية التقوىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وحث النبي ﷺ علىٰ اتخاذ الأصحاب الأتقياء، فقال: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٨٣٢).

وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَىٰ غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَىٰ فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً للهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَىٰ بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَىٰ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَىٰ بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّىٰ أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَىٰ مِنْهَا السَّمَاءَ. فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّىٰ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَىٰ عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّىٰ جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَىٰ تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ**»(١). فلو لم يكونوا صحبة صالحة فربما ماتوا في الكهف، ولكن الله تعالىٰ نجاهم بأعمال أصحابهم الصالحة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٢٧٢)، ومسلم رقم (٢٧٤٣).

٣- المروءة، أي أن يكون الصديق ذا أخلاق عظيمة ومكارم مشتهرة، إذ إن هذا الصديق هو الذي يحفظ السر، ويعين صاحبه، ويساعده وقت الحاجة. قال الشاعر:

عَنِ المَرءِ لا تَسل وَسَل عَن قَرينَهُ فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَدي

المناعة من أصدقاء السوء:

قد يصحب الشاب أصدقاء السوء، ظنًّا منه أنه سيؤثر فيهم، ويثق في نفسه، وهذا مظنة أن يسلك الشاب سبيل هؤلاء الأصدقاء السيئين، لكن إن أراد التأثير فيهم فعليه أن يفعل ذلك بالأسلوب المناسب دون اتخاذهم أصدقاء؛ لأن الصاحب ساحب. والبيئة المحيطة تؤثر في أخلاق الشاب ولا بد، ومن ذلك حديث النبي ﷺ: «**الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ**»[1].

عوامل نجاح العلاقات:

إن النجاح في الصداقات والعلاقات يفتقر إلىٰ الذكاء العاطفي والاجتماعي، ويتحقق ذلك النجاح من خلال التواصل الفعال مع الآخر، من خلال معرفة اهتماماته وما يحب وما يكره، بحيث يتعامل مع كل شخص بما يناسبه. وتوجد عوامل متعددة لاستمرار العلاقات يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- التواصل المستمر، ويكون بالاتصال أو المراسلة، ومتابعة أخبارهم والتفاعل معها، وقد سهلت وسائل التواصل الاجتماعي هذه المهمة في هذا العصر.

٢- اللقاءات الشخصية، ويكون بمقابلة الأصدقاء حقيقةً، أو عن طريق اللقاءات الافتراضية بوسائل التواصل الحديثة، فالتواصل خاص، واللقاء عام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٣٣٠١)، ومسلم رقم (٥٢).

٣- **تقديم المساعدة**، وذلك إذا مر الصديق بأزمة أو مشكلة، ومشاركته مشاركة وجدانية في أفراحه وأحزانه ومناسباته المختلفة.

٤- **تقديم الهدية**، وهذا يساعد علىٰ استمرار الصداقة، وترسيخ المحبة بين الأصدقاء.

٥- **تحسين العلاقة بدوائر الصديق**، أي تحسين العلاقة مع عائلته، أو أسرته، أو غير ذلك، فهذه العلاقات من الوسائل التي تزيد التواصل والمحبة بين الأصدقاء.

٦- **العفو والتسامح**، أي غض الطرف عن زلات الصديق وأخطائه، إذا كان الخطأ غير مرتبط بترك واجب أو فعل محرم.

ومن أروع الأمثلة في ذلك: أن مِسْطَح بن أُثاثة وقع في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، وكان مسطح ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١١-١٢]. روىٰ البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: (فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ واللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ)[١]. فالعلاقات تفتقر دائمًا إلىٰ العفو والتسامح وغض الطرف عن أخطاء الآخرين.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٦٦١)، ومسلم رقم (٢٧٧٠).

٧- **الواقعية وعدم المثالية**، أي أن يتوقع أطراف العلاقة حدوث أخطاء من الطرف الآخر، إذ لا توجد علاقة خالية من الأخطاء، ولو قُطِعَت كل علاقة بسبب مشكلة لما بَقِيَت علاقة قائمة علىٰ وجه الأرض. يُروَىٰ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما تولىٰ الخلافة قابلَ أبا مريم قاتل أخيه زيد بن الخطاب رضي الله عنه في حروب الردة، ثم أسلم أبو مريم وحسن إسلامه، فقال له عمر: أأنت قاتل زيد بن الخطاب؟ قال أبو مريم: نعم يا أمير المؤمنين. فقال عمر: والله لا أحبك أبدًا، حتىٰ تحب الأرض الدم! قال أبو مريم: أوتمنعني بذلك حقًّا لي. قال عمر: لا. فقال أبو مريم: لا ضير، إنما يأسىٰ علىٰ الحب النساء[١].

٨- **النصح**، فإذا رأىٰ الصديق صديقه علىٰ خطأ أو ما يغضب الله سبحانه وتعالى فلا بد من نصحه وإرشاده، فالنصح هو السبيل الصحيح للتعامل مع الأصدقاء في حالة خطئهم، مع مراعاة أسلوب النصيحة، وفهم شخصية المنصوح لاستخدام الوسيلة المناسبة. وقد قيل: الصديق مَن صَدَقَك لا مَن صَدَّقَك.

٩- **العطاء**، ويقصد به العطاء بمفهومه الواسع، كأن يكون عطاء في الوقت، أو المال، أو أي شكل من أشكال المساعدة، ومن المعلوم أن العطاء يقوي أواصر علاقة الصداقة، خاصة إذا كان العطاء متبادلًا.

١٠- **التضحية والإيثار**، ومن صور التضحية: الصبر علىٰ السلوك غير المناسب، وتضحية بالوقت، أو الجهد، أو غير ذلك من صور التضحية التي تتطلبها علاقة الصداقة، وينبغي أن تكون التضحية متبادلة حتىٰ تستمر العلاقة.

قال الشاعر:

إِنَّ أخاكَ الحَق مَن كانَ مَعَك ... وَمَن يَضِرُّ نَفسَهُ لِيَنفَعَك

وَمَن إذا ريبَ الزَمانُ صَدَعَك ... شَتَّتَ فيكَ شَملَهُ لِيَجمَعَك

---

(١) الكامل في اللغة والأدب (٢/ ١٤٥).

كما أن الصداقة لا تقوم علىٰ انتظار المقابل من هذه العلاقة، فقد يضحي الصديق ولا يكافئه صديقه بالتضحية ذاتها، ومعرفة هذا يجعل العلاقة واقعية، فلا يدخل الصديق هذه العلاقة بعقلية التاجر الذي ينتظر الربح من كل الصفقات.

انتهاء العلاقات:

الصداقة هي ارتباط بين شخصين يقوم علىٰ أساس التفاهم والاحترام والمودة والتضحية، ولكن في بعض الحالات تظهر الحاجة واضحة إلىٰ إنهاء هذه العلاقة، وذلك في عدد من الحالات منها:

١- إذا كانت العلاقة تضر بدين المرء وآخرته، وتتسبب في الوقوع في المخالفات الشرعية، فهنا يجب إنهاء العلاقة.

٢- إذا كان استمرار العلاقة يسبب أضرارًا اجتماعية أو نفسية، بشرط أن يكون الضرر حقيقةً وليس وهمًا، وهذا يختلف من حالة إلىٰ أخرىٰ.

٣- إذا كانت العلاقة من طرف واحد، أي أن الطرف الآخر لا يعطي ولا يضحي، فهنا يمكن نقله من دائرة الأصدقاء إلىٰ دائرة المعارف، حتىٰ لا يُوضَع شخص في دائرة لا يستحقها.

٤- إذا كانت العلاقة تعارض إرادة الوالدين، كرغبة الأبوين في ابتعاد ابنهما عن أحد الأصدقاء، فهنا ينبغي علىٰ الابن طاعة الأبوين؛ لأنهما أدرىٰ بالمصلحة، والاستجابة للأبوين نوع من البر، لكن إذا رأىٰ الابنُ مصلحة ظاهرة متحققة للعيان في استمرار العلاقة، فهنا يأتي دور الحوار والنقاش، وتقديم الأدلة، وفي النهاية يتم التوافق علىٰ القرار السليم.

٥- إذا كان بقاء العلاقة يفضي إلىٰ مفسدة أكبر، فهنا يجب أن تتوقف العلاقة؛ لأنه لا ضرر ولا ضرار، ومعلوم أن الشريعة جاءت برفع الضرر والمفاسد.

صمغ العلاقات:

يُقصَد بصمغ العلاقات: كل عمل أو فعل أو حاجة تؤدي إلىٰ استمرار العلاقة وتثبيتها في وجه الخلافات التي يمكن أن تعصف بها، كوجود الأبناء الذي يقوي العلاقة بين الزوجين، ويثبت العلاقة بشكل أكبر مما لو لم يوجد الأولاد. وتوجد العديد من الوسائل التي يمكن من خلالها تقوية العلاقة مع الآخرين، منها:

١- **اختبار العلاقة**، يسعىٰ بعض الناس إلىٰ اختبار الطرف الآخر في بداية علاقته به، بهدف الحصول علىٰ تقييم مبدئي عن هذه العلاقة، ويرىٰ البعض أنه لا يصح اختبار العلاقات؛ لأن كثيرًا من الناس سيفشل في الاختبار، خاصة إذا تم إجراء الاختبار بطريقة خاطئة، كأن يطلب من طرف ثالث أن يغتابه أمام الصديق المختَبَر؛ لقياس رد فعله علىٰ ذلك!

٢- **مدة العلاقة**، إن العلاقات لا تُقيَّم بالمدة، وإنما بالمواقف، فإن تساوت المواقف وطالت المدة فإن العلاقة ذات المدة الأطول هي الأقوىٰ من العلاقة ذات المدة القصيرة.

٣- **إنزال الصديق منزلته**، بأن يعرف الصديق مدىٰ قوة الصداقة، وهل هو من أهل الصداقة أو لا، قال أرسطو: الصداقة إما منفعة، أو متعة، أو فضيلة. فأما صداقة المنفعة فتنتهي بانتهاء المنفعة، وصداقة المتعة تنتهي بانتهاء اللذة، وصداقة الفضيلة تستمر باستمرار الصديقين، وأعلىٰ الصداقات هي التي يجتمع فيها الثلاث.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن الصديق ثلاثة أقسام، هي: الصديق الغذاء، وهو الذي يعين علىٰ الخير ويدل عليه، والصديق الدواء، وهو الذي يُحتَاج إليه في أوقات دون أخرىٰ، والصديق الداء، وهو الضار غير النافع، ويجب التخلص منه.

وقسم الغزالي الصديق إلىٰ أربعة أقسام، هي: مَن يشفع وينفع، ومَن يشفع ولا ينفع، ومن ينفع ولا يشفع، ومَن لا ينفع ولا يشفع. ومعرفة منزلة الصديق تعين علىٰ استمرار العلاقة معه، خاصة إذا كانت صداقة قائمة علىٰ أصول صحيحة

آثار الصداقة:

للصداقة آثار كثيرة في الصديقين، وهذه الآثار قد تكون إيجابية أو سلبية:

أولًا: الآثار الإيجابية:

١- العون علىٰ الطاعة، فالإنسان بحاجة إلىٰ مَن يأخذ بيده، ويهديه إلىٰ الطريق الصحيح، لذلك يتمنىٰ أهل النار في الآخرة أن لو كانوا صحبوا الصالحين في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

٢- الثبات علىٰ الحق، ومنها قوله ﷻ للنبي ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٣- غرس الثقة بالله ﷻ، ومن ذلك قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]. فالصاحب قد يثبت صاحبه علىٰ الدين واليقين والثقة بالله سبحانه وتعالى.

٤- تحصيل بركة المجالس، ويتحقق ذلك مع الأصدقاء الذين يعينون علىٰ الخير، ففي الحديث: «**إِنَّ للهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ ﷻ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ**

عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[١]. والشاهد قوله ﷺ: «... هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

٥- دوام الصحبة في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

٦- الشفاعة، وقد سبق حديث النبي ﷺ عن أهل الجنة: «... وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ»[٢].

ثانيًا: الآثار السلبية:

١- تعظيم الدنيا ومحبتها والاشتغال بها، وفتح أبواب الشرور والمعاصي.

٢- الغفلة واتباع الهوىٰ والنفس والشيطان، والدلالة إلىٰ النار.

٣- الضياع والخسران والندم والحسرة في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

٤- الانحراف والضلال، فكم مِن صاحب سوء كان سببًا في انحراف صديقه أو دلالته علىٰ السوء والشر!

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٨٩).

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٣٩).

٥- التباعد والتباغض في الآخرة، قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

أسباب فشل الصداقة:

يكثر الحديث عن فشل الصداقة والألم والخيبة والحسرة والندامة التي تتبع انتهاء العلاقات، وهذا يعود إلىٰ عدد من الأسباب، منها:

١- أن الواقع المعيش أصبح أكثر تعقيدًا، مما تسبب في اليأس والإحباط لكثير من الشباب والفتيات، وبالتالي سوء العلاقة مع الآخرين.

٢- القدوة السيئة في العلاقات، سواء أكانت القدوة من الأصدقاء أو المشهورين إعلاميًّا، وأحيانًا بسبب الأبوين.

٣- الاستحقاق، أي أن يشعر الإنسان أنه مستحق لمرتبة أعلىٰ، وتعامل أفضل من صديقه، فعندما لا يجد ذلك فإنه يسعىٰ إلىٰ إفشال هذه العلاقة.

٤- رفع التوقعات، أي أن الإنسان يرفع توقعاته في تعامله مع الآخرين، ويظن أنهم يضحون من أجله بوقتهم ومالهم وجهدهم، وهذا غير موجود في الواقع بالصورة التي يتصورها بعض الشباب.

٥- سوء تقييم العلاقة، بألا يفهم الصديق العلاقة علىٰ حقيقتها، أو لا يختار الشخص المناسب الذي ينبغي له أن يصحبه.

ضوابط العلاقة بين الجنسين:

لابد من توافر الضوابط الشرعية في العلاقة بين الشباب والفتيات، ومنها:

١- عدم اتخاذ أصدقاء من الجنس الآخر، كأن يتخذ الشاب فتاة صديقة أو العكس؛ لأن هذا مظنة الوقوع في الفاحشة، قال تعالىٰ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ [النساء: ٢٥].

٢- عدم الخضوع بالقول، قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٣- الالتزام بالحجاب الشرعي في أثناء التعامل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٤- عدم الخلوة بالأجنبية، قال النبي ﷺ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»[1].

٥- عدم التواصل بين الجنسين إلا للضرورة والحاجة، والضرورات تُقدَّر بقدرها؛ وذلك غلقًا لباب الفتنة، ومنعًا من الوقوع في المحرم.

٦- غض البصر في أثناء التعامل، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

٧- مراعاة الآداب الاجتماعية والعرفية في أثناء التعامل مع الجنس الآخر، بشرط ألا تكون هذه الأعراف محرمة أو تؤدي إلىٰ محرم.

تدخل الآباء في صداقات الأبناء:

العلاقة الجيدة بين الوالدين نموذج تطبيقي لتعليم الأبناء بناء العلاقات بشكل عام، فاحترام الزوج زوجته والعكس يعطي الطفل نموذجًا للعلاقات السليمة، وإحسان العلاقة بينهما يربي الأبناء علىٰ الحرص علىٰ بناء علاقات سليمة.

ومما يضبط تدخل الآباء في علاقات الأبناء ما يلي:

١- فتح باب الحوار والنقاش مع الأبناء، وتعليمهم معايير اختيار الأصدقاء ومَن يثقون بهم، ومعايير الصديق الصالح والصديق السيء.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٣٠٠٦)، ومسلم رقم (١٣٤١).

٢- تعليمهم كيفية التعامل مع الصداقات، وطرائق قطع العلاقة، ومؤشرات العلاقة الجيدة والسيئة، وأهمية الصديق في حياة الفرد.

٣- تعليم الأبناء قصص القرآن والسُّنة عن الأصدقاء، والفوائد المستفادة من هذه القصص، وكيفية تطبيقها في الواقع.

٤- تكوين صداقات بين الأسر القريبة والمتجاورة التي تشتهر بالصلاح والتقوىٰ، وألا تشتهر بالانحراف السلوكي أو ما يضر الأبناء.

مراجع للاستزادة:

- الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي.
- في أدب الصداقة، عبدالرحمن منيف
- كيف تكسب الأصدقاء، ديل كارنيجي.
- عندما تصبح الصداقات مؤلمة، جان ياجر.

الفصل الثامن عشر
سؤال الإرادة

نتناول في هذا الفصل سؤال الإرادة، وذلك ببيان المقصود بها، وأهمية هذا السؤال، وخصائص الإرادة في الفكر الإسلامي، وكيفية ضبط الإرادة، ومستوياتها، ومعوقات تقويتها.

المقصود بالإرادة:

الإرادة في اللغة: مصدر أراد يريد إرادة.

والإرادة من الجانب النفسي هي: الميل والرغبة في الشيء.

ومن الجانب العقلي هي تفضيل الشيء.

ومن الجانب العملي هي الرغبة في العمل أو التنفيذ.

ولها تعريفات متعددة في الاصطلاح منها:

١- ميلٌ يعقبه اعتقاد النفع. أي ميل الإنسان إلىٰ ما يغلب علىٰ ظنه أنه مفيد له ولو ظاهريًّا.

٢- وتُعرَّف أيضًا بأنها: الاختيار الحر والتصميم الواعي لقيام الإنسان بأعماله وتحمله لعواقبها.

٣- ويمكن تعريفها بأنها: كبح الرغبة إلىٰ الشر، وإلزام النفس بطريق الخير والصواب.

أهمية سؤال الإرادة:

١- الإرادة من مظاهر تكريم الله ﷻ الإنسان، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧١-٧٢]. فالله جل وعلا خلق الإنسان، وكرَّمَهُ بأن نفخ فيه من روحه، فأصبح الإنسان مكونًا من الجسد، وهو من الطين، والروح وهي النفخة الإلهية، والجسد يدعوه إلىٰ الأرض والركون إليها ولشهواتها ونزواتها، والروح تدعوه إلىٰ الارتقاء إلىٰ السماء، واستلهام المدد من الله جل وعلا. والإرادة هي التي تجعل الإنسان يتخلص من الجسد وشهواته، وتقرب الإنسان من السماء وما يحبه الله جل وعلا.

٢- أن الحياة المعاصرة في كثير من مظاهرها تسلب الناس إراداتهم الحقيقية، فأصبحت عندهم إرادات جديدة، وتُخلق لهم رغبات مستحدثة بفعل الإعلانات وغيرها من وسائل التأثير، فأصبح كثير من الناس يشعر أنه مسلوب الإرادة لكثرة الدوافع التي توجهه نحو رغبات وسلوكات معينة.

٣- أن الإرادة زادٌ للسائلين، وطريقٌ لوصول الإنسان إلىٰ مبتغاه، فالمانع من الوصول إلىٰ الله تعالىٰ هو عدم السلوك، وعدم السلوك يكون بعدم الإرادة، وعدم الإرادة بسبب عدم الإيمان، وعدم الإيمان يكون من عدم وجود الهدىٰ. فالإرادة زاد في الطريق إلىٰ الله ﷻ.

٤- الإرادة الصحيحة طريقٌ للوصول إلىٰ الجنة؛ لأن العمل الصالح الذي يدخل الإنسان الجنة يحصل من خلال قوة الإرادة، والفرق الجوهري بين الناس هو في الإرادة؛ لأنها تدعو الإنسان إلىٰ الفعل والعمل الذي يوصله إلىٰ الجنة.

٥- أن طبيعة الإنسان هي الفتور، والكسل، والدعة، والراحة، والخمول، والإخلاد إلىٰ الأرض، والإرادة هي التي تدفعه إلىٰ العمل، ومواصلة الإنجاز.

الإرادة في القرآن والسُّنة:

وردت الإرادة في القرآن الكريم ونسبت إلىٰ أصحابها، ومن ذلك:

١- الإرادة الإلهية، وهي الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

٢- الإرادة الإنسانية، وهي الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسرَاء: ١٩]. ويلاحظ ارتباط الفعل بالإرادة، فالإرادة وحدها لا تكفي.

٣- الإرادة الشيطانية، وهي الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدَة: ٩١].

كما وردت لفظة الإرادة ومرادفاتها في أحاديث كثيرة، منها:

١- النية، ومن ذلك حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»[1]. والنية أي: قصد العمل والإرادة القوية لفعله.

٢- الهَّم، ومن ذلك حديث: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ**»[2].

دوائر الإرادة ومستوياتها:

يقسم البعض الإرادة في ثلاث دوائر، كالآتي:

١- دائرة العزم علىٰ العمل.

٢- دائرة تنفيذ العمل.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١)، ومسلم رقم (١٩٠٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٦٤٩١)، ومسلم رقم (١٣٠).

٣- دائرة إتمام العمل.

وهذه الدوائر متداخلة ومتكاملة، ومن خلالها يستطيع الشاب القيام بالعمل في جميع مراحله، وعليه أن يسعىٰ إلىٰ استغلال هذه الدوائر وتنميتها.

أنواع الإرادة:

الإرادة نوعان، هما: إرادةٌ شرعية دينية، وإرادة قَدرية كونية.

١- الإرادة الشرعية الدينية، هي التي يحبها الله جل وعلا ويرضاها، مثل: الإيمان والعبادات وجميع التكاليف الشرعية.

٢- الإرادة الكونية، وهي التي أوجدها الله ﷻ وخلقها في الكون، لكنه قد لا يحبها ولا يرضاها، مثل: الكفر وإتيان المعاصي، فوجود الكفر إرادة كونية، لكن الله ﷻ لا يحب هذا الفعل.

مستويات الإرادة:

تناول عدد من الأئمة الإرادة بالبيان والشرح، مثل: الغزالي وابن تيمية وابن القيم، وذكروا لها تقسيمات وأنواعًا ومستويات وخصائص. كما تحدث الفلاسفة عن الإرادة، وذكروا لها مستويات وخصائص، كما تناولها علماء الكلام تحت عنوان «الجبر والاختيار»، والخلاف بينهم في هذا معروف.

ومن أبرز التقسيمات ما ذكره ابن القيم رحمه الله: الخطرة، ثم الفكرة، ثم الشهوة، ثم العزيمة، ثم الفعل، ثم العادة.

خصائص الإرادة في الفكر الإسلامي:

الإرادة في التربية الإسلامية لها ما يميزها عن غيرها من الأفكار والفلسفات الأخرىٰ، ومن ذلك:

١- أنها إرادةٌ ربانية مرتبطةٌ بالإرادة الشرعية، ومتعلقة بما أمر الله ﷻ به، وما نهىٰ عنه.

٢- أنها إرادةٌ أخلاقية، فإرادة الإنسان مرتبطةٌ بقيمه وأخلاقه ومبادئه الإسلامية.

٣- أنها تربية متوازنة، توازن بين الجسد والروح، والعقل والوجدان، والدنيا والآخرة، فهي لا تركز علىٰ شيء دون الآخر، فلا تركز علىٰ الجسد دون الروح، كما هو حاصل في الفلسفات الوضعية.

٤- أنها تربية وقائية، حتىٰ لا يقع المسلم في إرادة الفعل السيئ أو الذي يوصل إلىٰ الشهوات أو الملذات؛ لأن الفعل يمر بسلسلة تبدأ بالتصورات والخواطر وتنتهي بالعمل، فحراسة التصورات والخواطر يمنع حدوث الفعل المحرم.

٥- أنها إرادة عملية، إن الإرادة عملٌ جوهري في نفس الإنسان، وفي نقل تصوراته إلىٰ الواقع لذلك قيل: الإرادة هي التطبيق العملي للأفكار التي تدور في الذهن.

كيفية ضبط الإرادة:

الإرادة والسلوك بينهما تداخل، فكلاهما يغذي الآخر، وكلما ازداد علم الإنسان وإيمانه واعتقاده وخبرته وتجاربه كان ذلك أدعىٰ لضبط سلوكاته، وكلما قلَّت الإرادة قل الفعل أو اندثر. ومثال ذلك: إذا قلت الإرادة في الإقلاع عن معصيةٍ ما فإن الإنسان لا يستطيع تركها، حتىٰ وإن كانت هذه المعصية لا تحقق له اللذة، لأنها أصحبت عادة له. لذلك قال عمر رضي الله عنه لابنه لما رآه يشتري لحمًا: أوكلما اشتهيت اشتريت؟!

إن الحياة المعاصرة مملوءة بالأساليب والوسائل التي تسلب الإنسان إرادته، كالإعلانات التي تنتشر في كل مكان، فإنها تدفعه إلىٰ الشراء وإن كان لا يحتاج؛ لأن الإعلان أنشأ عنده إرادة ورغبة في هذا الشيء، فاتجه إلىٰ شرائه.

ومن المهم للشاب أن ينمّي إرادته، فلولا الإرادة لانتقل الإنسان من عبادة الله ﷻ إلىٰ عبادة هواه، أو عبادة المعبودات الباطلة، وهذا يبين أهمية الإرادة وتقويتها والانتباه لها ومراقبة سلوك الإنسان وأفكاره وخواطره حتىٰ لا يقع فيما يغضب الله سبحانه وتعالى.

إن ضبط الإرادة يشمل الأعمال الصغيرة والكبيرة، كأن يضبط الإنسان كمية الطعام التي يأكلها كل يوم، ويشمل أيضًا إقامة جميع العبادات الواجبة عليه؛ لأن حرص الشاب علىٰ ضبط إرادته في المهام الصغيرة -كممارسة الرياضة أو التقليل من الطعام والمباحات[1]- يساعده في تنمية الإرادة في المهام الكبيرة.

معوقات تقوية الإرادة:

يمكن تقسيم المعوقات التي تعوق الإرادة إلىٰ عوامل إيجابية، وعوامل سلبية، فالعوامل السلبية هي التي تعوق الإنسان. والعوامل الإيجابية هي التي تساعده علىٰ تقوية الإرادة، وفيما يلي بيان هذه العوامل:

أولًا: العوامل السلبية:

١- الشيطان، فهو أكبر عائق للإرادة؛ لأن دور الشيطان الوسوسة، وإضعاف إرادة الفعل لدىٰ الإنسان؛ لأن ضعف الإرادة يؤدي إلىٰ ضعف العمل.

٢- الكسل، فإذا دبَّ الكسل في قلب الإنسان أفسد عليه يومه وليلته وفعله وهمته؛ لذلك كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ**»[2].

٣- اليأس، بأن يشعر الإنسان أنه يائس من الحياة، وأن كل ما فيها سيء، وأنه لا مجال لإصلاح ما أفسده الآخرون، فيصاب بالإحباط وترك العمل.

---

(١) في كتاب «تربية الإرادة في الكتاب والسنة» بَيَّن المؤلف أن مِن العوامل التي تساعد علىٰ تربية الإرادة الصحة الجسمية، وضبط النظام الغذائي؛ لأن هذه الأعمال تساعد الإنسان علىٰ ضبط إرادته.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٨٢٣)، ومسلم رقم (٢٧٠٦).

ثانيًا: العوامل الإيجابية:

١- الصحة الجسمية، والقدرة علىٰ التحكم في الذات، والحرص علىٰ التغذية الجيدة التي تساعد الإنسان علىٰ تنفيذ إرادته.

٢- البيئة المحيطة، فقد تكون البيئة عاملًا إيجابيًّا يدفع الشاب إلىٰ الأمام، كوجود مَن يشجع الشاب ويعينه علىٰ الفعل والمحاولة.

٣- الجلساء والأصحاب، وتأثير الجليس في جليسه معلوم بأدلة الشرع والمشاهدة؛ لذلك علىٰ الشاب أن يحسن اختيار أصدقائه وجلسائه.

٤- الأمل والتفاؤل، فكلما كان الإنسان أكثر تفاؤلًا وأملًا في الحياة أقبل علىٰ العمل والاجتهاد فيه، وترك اليأس والتشاؤم، وهذا يقوي الإرادة ويغذيها.

٥- الإيمان وحسن الظن بالله تعالىٰ، فالإيمان يجعل الشاب يرفع مستوىٰ الإرادة بهدف الوصول إلىٰ المرغوب، ومن ذلك: حسن الظن بالله ﷻ، فهذا يدعو إلىٰ العمل وإتقانه.

٦- القدرة علىٰ التحكم في العواطف والوجدان، فكثير من الناس تحركهم عواطفهم وانفعالاتهم، فلا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من السير في الطريق الخطأ.

كيفية تنمية الإرادة:

يمكن تنمية الإرادة لدىٰ الشباب بعدد من الوسائل، منها:

١- ربط إرادته بالإرادة الشرعية، وهي فعل ما أمر الله ﷻ به، واجتناب ما نهىٰ عنه، قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[١]. فيجب علىٰ الإنسان أن يأتي أوامر الله ﷻ قدر استطاعته، والانتهاء عن كل ما نهىٰ الشرع عنه، فهذا يقوي الإرادة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٧٢٨٨)، ومسلم رقم (١٣٣٧).

٢- تعلُّق القلب بالله ﷻ خوفًا ورجاءً وإنابةً وخشيةً، فتعلُّق القلب بالله ﷻ يمنحه قوة يتكئ عليها، ويستند إليها في تقوية إرادته بشكلٍ مستمر.

٣- مخالفة الهوىٰ، وترك ما تحبه النفس، خاصة إذا كان محظورًا شرعيًّا، فمغالبةُ الهوىٰ تقويةٌ للإرادة، قال الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شبَّ علىٰ حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
وجاهد النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

٤- إلزام النفس بالأعمال المختلفة، وإن كانت يسيرة، فهذه الالتزامات مع تراكمها تمثل الحجارة التي تبني جبل الإرادة داخل الإنسان.

٥- اجتناب العوائق، فإذا وجد الشاب عوائق تعيقه عن الوصول إلىٰ الهدف وجب عليه التغلب علىٰ هذه العوائق، ومنها: الصحبة السيئة، والكسل، والتسويف.

٦- اعتياد العادات السليمة التي تساعد الشخص علىٰ قوة التحمل، وإلزام النفس بعملٍ ما، وإن كانت النفس لا ترغب فيه.

٧- استحضار العواقب، ومعرفة نتائج قوة الإرادة، والعلم أن ذلك من أسباب السعادة؛ لأن الإنسان إذا انتصر علىٰ نفسه شعر بالسعادة، ولأن النفس بطبعها تميل إلىٰ الخمول والكسل والبخل وغير ذلك من الصفات، والتخلص من هذه الصفات من موجبات قوة الإرادة.

٨- الحرص علىٰ العبادات، ومثال ذلك: الصيام عمومًا -سواء الواجب أو المندوب-، فإنه يجعل الشخص قوي الإرادة؛ لأن فيه كبحًا للشهوة والرغبة، والانسياق خلف الشهوات، وإن كانت مباحة.

٩- الحرص علىٰ النجاحات الصغيرة؛ لأن النجاحات الكبيرة قد تصعب علىٰ بعض الناس، فهنا ينتقل الشاب إلىٰ تحقيق النجاحات الصغيرة، ومع تراكمها تتحول إلىٰ إنجاز كبير.

١٠- الابتعاد عن الشهوات، فهي تغرق الإنسان في الدونية، وتضعف إرادته، سواءً أكانت بالنظر، أم بالوقوع في محرم، أم بغير ذلك.

١١- تنفيذ القرارات، فكثير مِن الناس يفكر ويضع خططًا، لكنه يضعف عند التنفيذ، أو لا ينفذ كما تم التخطيط مسبقًا، والتنفيذ هو الذي يشعر المرء بالإنجاز، مما يدعوه إلىٰ مزيد من التنفيذ.

١٢- محاسبة النفس، ويتحقق ذلك بالتأمل والتفكير والتخطيط قبل العمل، وإعادة تقييم الفعل بعد الانتهاء منه، والنظر في مدىٰ تحقق النتائج المرجوة منه، وأثرها في حياة الفرد وحياة الآخرين.

تنمية الإرادة عند الأبناء:

١- وضع دستور للأسرة، فهذا مما يعلِّم الأبناء الانضباط، واجتناب الانفلات، والحرص علىٰ عدم الخروج عن الأوامر الدينية والاجتماعية المتعارف عليها.

٢- وضع أهداف صغيرة، تكون في نطاق قدرة الابن، كحفظ ثلاث سور من القرآن الكريم، أو حفظ بعض الأحاديث النبوية، فهذا النجاح الصغير سيشعر الابن بقدرته علىٰ تحقيق أهدافه بشكل مستمر.

٣- تعويد الأبناء علىٰ التحكم في النفس، فلا يصح للوالدين تحقيق كل ما يريده الطفل؛ لأن تعويد الطفل علىٰ تحقيق كل رغباته يسبب له مشكلات مع التكيف مع الآخرين عند كبره.

٤- تعليم الابن المهارات المختلفة، ويُقصَد بها المهارات التي تساعده علىٰ التحكم في نفسه، مثل: المهارات العقلية، والمهارات العملية.

٥- دراسة سير الناجحين؛ لأن الناجح لم يصل للنجاح إلىٰ بالإرادة، وقصص الناجحين كثيرة في تاريخنا الإسلامي والتاريخ المعاصر.

٦- الحرص علىٰ العادات الصحيحة، كالاستيقاظ مبكرًا في الصباح، وتناول الإفطار في وقت معلوم، وعدم السهر ليلًا إلىٰ وقت متأخر، وغير ذلك من العادات السليمة التي يسهل تنفيذها علىٰ الأطفال.

٧- معرفة فقه الأولويات، بأن يُربَّىٰ الابن علىٰ ترتيب الأولويات، فحقُّ الله ﷻ -كالصلاة والصيام- مُقدَّم علىٰ كل شيء، ثم يأتي حق الوالدين، ثم حقوق الآخرين، وهكذا.

٨- ربط الابن بالمقادير، ويقصد بذلك: ربط الابن بهدف واضح محدد، وإلزامه بإتمامه في الوقت المحدد، كقراءة ثلاث صفحات في اليوم، فهذا الهدف محدد معلوم، ويمكن تحقيقه وقياسه، وهذا يختلف عن هدف آخر مثل: حرص الابن علىٰ القراءة، فهذا هدف غير محدد، ويسهل علىٰ الابن التفلت منه.

٩- الاستعانة بالله ﷻ، وطلب التوفيق منه، وتعليم الابن كيف يطلب من الله ﷻ السداد والتوفيق وقوة الإرادة، وأن الله ﷻ هو الموفق لكل خير أولًا وأخيرًا.

مراجع للاستزادة:

- سور الطين، د. عبدالله السفياني.
- منهج الإسلام في تربية الإرادة، علي أحمد.
- الإرادة الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، محمد عثمان.

الفصل التاسع عشر
سؤال الفشل

يتناول هذا الفصل سؤال الفشل والنجاح، وهو سؤال مهم؛ لأن الفشل يترتب عليه ندم وألم وحسرة، والنجاح عكسه، كما أنه سؤال مقلق لكثير من الشباب والفتيات، خاصة في عصر الانفتاح الثقافي وطول المدة التي يقضيها الشباب في متابعة قصص الناجحين في وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة.

تعريف النجاح والفشل:

يمكن تعريف النجاح بأنه: السعي لتحقيق غاية.

وبذلك فهو يشتمل علىٰ ثلاثة عناصر:

١- السعي، وهو الجهد المبذول.

٢- التحقيق، وهو الرؤية والخطة التي تُوصِّل إلىٰ المقصود.

٣- الغاية، وهي المراد أو الهدف الذي يريد الشخص تحقيقه.

وبذلك فالمعنىٰ الحقيقي للنجاح هو فعل هذه العناصر الثلاثة، والفشل هو ترك واحدة منها، أي: ترك الجهد، أو التنازل عن الرؤية، أو ترك الهدف الذي يبتغي الإنسان تحقيقه.

أما الفشل فله تعريفات متعددة، منها:

١- قيل هو: عدم تحقيق الإنسان ما يُؤمِّله من أحلام ورؤىٰ.

٢- وقيل هو: الإخفاق في حصول الإنسان علىٰ ما يريد، أو ما رسمه من أهداف.

والمعنىٰ الحقيقي للفشل هو: الإخفاق في تحقيق مراد الله وما يرضيه. فإذا فشل الإنسان في تحقيق العبودية فهو الفاشل الحقيقي، وإن قُدِّرَ له النجاح في كل أمور الدنيا.

والمتأمل في لفظة الفشل في المعاجم يجد أنها حالة شعورية وليست حالة سلوكية، فهي تدل علىٰ الشعور لا السلوك. مثال ذلك: الفرق بين الهزيمة والانهزامية، فالهزيمة هي أن يُغلَب الشخص، وهي حالة سلوكية، أما الانهزامية فهي أن يُغلب الإنسان من الداخل، وهي حالة شعورية.

أهمية سؤال الفشل:

تبرز أهمية هذا السؤال من خلال ما يلي:

١- كثرة الحديث عن النجاح، سواء أكان ذلك في وسائل التواصل أو غيرها، وانتشار الحديث عن الناجحين حول العالم من السياسيين والرياضيين والمفكرين ورجال الأعمال وغيرهم. وبناءً عليه صار الإنسان يقيِّم نفسه بناءً علىٰ أسس النجاح المنتشرة بين الناس.

٢- المفهوم الخاطئ للفشل والنجاح، فإذا حصل الإنسان علىٰ المال أو المنصب أو غير ذلك فهذا نجاح لدىٰ كثير من الشباب. والصواب أن حصر النجاح في هذه الأشياء غير مستقيم.

٣- كثير من النماذج التي صُدِّرت للشباب علىٰ أنها ناجحة هي نماذج غير صحيحة، وغير مستوفية معايير النجاح بالمفهوم الحقيقي للنجاح؛ لأن الشاب إذا اقتدىٰ بهذه النماذج ربما يصل إلىٰ الفشل.

٤- أن الحديث عن النجاح براق، ويُعجِب الناس، ورغم ذلك لا يعرف كثير من الناس الفشل، ولا معاييره وضوابطه، فقد يفشل في حين يظن نفسه ناجحًا.

٥- احتمالية حدوث الفشل في مراحل الحياة المختلفة، سواء أكانت مراحل تعليمية أو وظيفية أو أسرية أو غيرها، ومن الأهمية معرفة كيفية مواجهة الفشل في المواقف المختلفة.

النجاح والفشل في القُرآن والسُّنة:

ورد الفشل في بعض آيات القرآن الكريم، وكلها مرتبطة بسياق غير السياق الذي ينتشر اليوم بين الناس، إذ ورد الفشل في سياق الحديث عن حروب المسلمين وأعدائهم، وهذه الآيات هي:

١- قول الله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

٢- قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٣- قول الله ﷻ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

٤- قول الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ويُلاحظ في بعض هذه الآيات أنها جاءت في سياق الحديث عن مجموع الأمة، وما يتعلق بالشأن العام للمسلمين.

أما في السياق الفردي فلم يرد لفظة «الفشل»، بل وردت ألفاظ أخرىٰ، مثل: الفوز، والفلاح، وكلها مقترنة بدخول الجنة والنجاة من النار. قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ولو استقر هذا المفهوم في نفس الشاب لهان عليه أيُّ فشل يصيبه، وليس المقصود هنا التهوين والتفريط فيما يجب علىٰ الإنسان فعله، بل المقصود ترك الحسرة والندم لفوات شيء من متاع الدنيا. وبهذا يتضح المعنىٰ الحقيقي للفشل، وهو خسارة الجنة ودخول النار.

تطبيع الفشل:

يُقصَد بتطبيع الفشل: تعليم الشباب والنشء أن الفشل جزء من حياة الإنسان، وأنه أمر واقع لكل أحدٍ دون استثناء.

والهدف من تطبيع الفشل هو الواقعية، وعدم التسبب في صدمات للشباب الذين يظنون أن الحياة كلها نجاح وإنجازات -كما يصور ذلك بعضُ مدربي التنمية البشرية وغيرهم-؛ لأن كثيرًا من الناس فشل في أمور الدنيا، ولا يصح أن نصور للناس أن الفشل لا بد أن يعقبه نجاح باهر عظيم وغير ذلك من العبارات الجذابة، وذلك أن دورات تطوير الذات (التنمية البشرية) تبث في الناس حالات استثنائية لأشخاص تحولوا من الفشل إلىٰ النجاح، وتجعل هذه الحالات قاعدة، وتلزم المستمعين بها.

والأفضل هو تعليم الشباب الاستفادة من تجارب الفشل، ووسائل التعايش معه، وطرق مواصلة الحياة دون تحقيق إنجازات عظيمة يتحدث بها الآخرون. كما ينبغي للشاب أن يعلم أن النجاح في الدنيا مع إقامة الشخص علىٰ معصية الله هو استدراج له، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. وأن النجاح والفشل مرتبطان بالقضاء والقدر، وأن الله ﷻ هو الذي يُقدِّر ذلك، ويوقن المسلم أن هذا هو الخير له في الدين والدنيا.

إن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل الإنسان مطمئنًا إلىٰ ما قُدِّرَ له، وأن الفشل الذي يصيبه قد يصرف الله ﷻ به سوءًا أكبر، وقد يكفر به الله ﷻ السيئات، وقد يمنع الله تعالىٰ الشابَّ النجاحَ الصغير ليمنحه نجاحًا أكبر، وأن اللهَ ﷻ قد يُغلِق علىٰ العبد بابًا، ويفتح له أبوابًا أخرىٰ، وقد قيل: إذا بُذل المجهود، فارْضَ بالموجود، وإن لم يتحقق المقصود.

إن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل القلب مطمئنًا لأقدار الله ﷻ، وأن الدنيا دار ابتلاء، وأنه لا شيء يكمل فيها إلا كان مصيره إلىٰ النقصان، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه: «**كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّىٰ العَضْبَاءَ لاَ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ قَعُودٍ فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ النبي ﷺ: «حَقٌّ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**»[(١)].

ومن مشاهد عدم النجاح: ما حدث للمسلمين في غزوة أحد، وكان اختبارًا صعبًا لهم، إذ هزموا وبينهم رسول الله ﷺ! وكان ذلك درسًا مهمًّا حتىٰ لا يعودوا إلىٰ مخالفة أمر النبي ﷺ.

النجاح ووسائل التواصل الاجتماعي:

إن وسائل التواصل عَمَّقَت لدىٰ الشباب حب الدنيا ومادياتها وشهواتها وملذاتها، فصار الشاب يتخيل أن النجاح إنما يكون في الدنيا فقط، وهذا مفهوم قاصر للنجاح، إذ الدنيا دار عمل وابتلاء، والعمل فيه مشقة وكبد، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البَلَد: ٤]. أما الفشل الحقيقي فهو البعد عن مراد الله تعالىٰ، قال النبي ﷺ: «... **وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»[(٢)]. فالفشل كل الفشل أن يبتلىٰ الإنسان في دينه، وأن يكون في الآخرة من الخاسرين.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٧٢).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٥٠٢).

النجاح وفق الشريعة الإسلامية والنظرة الغربية:

من المعلوم أن النجاح والفشل في المفهوم الغربي يرتبط بأمور الدنيا فقط، فإذا نجح الشخص في أموره المعيشية فهو الناجح، وإن لم يكن له أي نجاح متعلق بالآخرة. أما النجاح في التصور الإسلامي فيشتمل علىٰ النجاح في الدنيا والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن المسلم لا يركن إلىٰ النجاح الدنيوي فقط، فإن أيَّ صعودٍ وعلو وارتفاع في غير ما يريده الله هو نزول وهبوط، والدنيا دار ابتلاء، وقد يُرىٰ فيها العاصي الفاجر ناجحًا بمعايير الدنيا، فاشلًا بمعايير الآخرة. وقد يبتلي الله ﷻ التقيَّ بنجاحِ الفاجر، ويبتلي الفاجر بفشل التقي، حتىٰ يقول: لو كان هذا التقي علىٰ حق ما ابتلاه الله كل هذا الابتلاء، وفي هذا المعنىٰ يقول الله ﷻ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١]. ولو استقر هذا المعنىٰ في النفوس لهانت أشياء كثيرة يظنها الناس من ضروريات الحياة.

ومن صور الاختلاف بين الشريعة والنظرة الغربية للنجاح أنهم في الغرب ينظرون إلىٰ الأهداف ذاتها، ويسعون إلىٰ تحقيقها، حتىٰ وإن كانت الوسيلة محرمة، أما في الشريعة فالوسائل لها حكم المقاصد، وكل ما يؤدي إلىٰ محرم فهو محرم.

اختلاف مفهوم الفشل، ففي النظرة الإسلامية يعني البعد عن أوامر الله تعالىٰ؛ لذلك كان السلف يُعَزُّون الرجل منهم إذا فاتته صلاة الجماعة! لأن هذا هو الفشل الحقيقي عندهم. أما النظرة الغربية فلا تلقي بالًا بأحكام الله تعالىٰ.

كل الأعمال مرتبة بالنية في الشريعة الإسلامية، ومن ذلك حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ،**

فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1]. أما في النظرة الغربية فلا اعتبار للنية في العمل.

الحاجة إلىٰ النجاح الدنيوي:

قد يقول شاب: قد اقتنعت أن النجاح أخروي، واتضح عندي المعيار الصحيح للنجاح والفشل، وأنا محافظ علىٰ الأوامر الشرعية بحسب قدرتي، لكن أريد تحقيق النجاح الدنيوي أيضًا، فهل هذا يتعارض مع الشريعة؟

يقال: لا، بل العكس هو الصحيح، فالإنسان مأمور بالسعي وتحصيل أسباب النجاح والتأثير في الآخرين، والأخذ بكل الأسباب والوسائل التي تحقق ذلك، والنصوص الشرعية دالة علىٰ ذلك، وقد طبق السلف هذا في حياتهم، ومن ذلك أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كان من أثرياء الصحابة، وكان من العشرة المبشرين بالجنة. ومن المعلوم ألا تعارض بين النجاح الدنيوي والأخروي، والأكمل هو الجمع بينهما، إذ ليس المقصود ترك الأحوال الدنيوية من أجل أعمال الآخرة، بل المقصود عدم تقديم عمل الدنيا علىٰ عمل الآخرة. وقد قيل: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.

إن النجاح في الدنيا يتطلب من الشاب ألا يكلف نفسه ما لا يطيق، بل يسعىٰ لتحصيل ما هو في إمكانه، مع صلاح النية، وفي ذلك يقول الشاعر:

إنَّ حظِّي كدقيق ... فوقَ شوكٍ نثروهُ
ثمَّ قالوا لحُفاةٍ ... يومَ ريحٍ اجمعوهُ
صعُبَ الأمرُ عليهمْ ... قلتُ: يا قوم اتركوهُ
إنَّ مَن أشقاهُ ربِّي ... كيفَ أنتم تسعدوهُ؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري رقم (١)، ومسلم رقم (١٩٠٧).

حبُّ النجاح وكُرْهُ الناجحين:

ينتشر بين الناس مقولة: يحب الناس النجاح ويكرهون الناجحين. أي أن الناس يحبون النجاح ولكن يكرهون الآخرين الذين يحققون هذا النجاح، وفي هذا المعنىٰ يقول الله ﷻ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩]. إن المسيرَ السريع يشعر الكسول بالبطء، فهو يحب أن يكون سريع المسير، لكن تأخر بسبب كسله وفشله؛ لذا يكرَهُ الذين سبقوه في المسير.

في الحقيقة، الناس لا يكرهون الناجح، بل يكرهون مَن يذكِّرُهُم بفشلهم؛ لأن الفشل يصغِّرُهم في أعينهم، كما أن نجاح الناجحين يشعل نار المقارنة في قلب الفاشل، فيقارن نفسه بالآخرين، وينظر إلىٰ نجاحاتهم بنوع من الغيرة والحسد.

عوامل الفشل:

يمكن تقسيم عوامل الفشل إلىٰ ما يلي:

العوامل الإيمانية، فمِن أسباب الفشل ضعف علاقة الشاب بالله ﷻ، فإن ضعف الإيمان يتبعه الوقوع في المعاصي، وهذا مِن أسباب الخسارة والهلاك في الآخرة، وهذا هو الفشل الأكبر.

العوامل النفسية، وهي المقارنة والهزيمة الداخلية، وهي من أهم عوامل الفشل؛ لأنها نابعة من الداخل، والسفينة لا تغرق بسبب وجود الماء حولها، بل بسبب وجود الماء داخلها.

ومن العوامل النفسية أيضًا: طريقة التفكير، وغياب الرؤية الشاملة للأمور.

العوامل الاجتماعية، وهي العُرف أو التقاليد، كأن يتعارف الناس علىٰ أن مَن يدرس في خارج البلاد فهو شخص ناجح؛ لأن الأعراف والتقاليد تحكم بذلك، وكذلك النقد الذي يصدر من المجتمع لكلِّ فعلٍ يفعلُهُ الشاب.

العوامل الشخصية، وهي كثيرة، منها:

١- إضاعة الوقت في أشياء غير مفيدة، حتىٰ يضيع عمر الشاب في أشياء غير مفيدة، ويجد الآخرين قد سبقوه بالنجاح والتميز.

٢- التسويف والمماطلة والتأخير، وهذا مِن عمل الشيطان، ومن أسباب الفشل، وعلىٰ الشاب إدراك ذلك، والمبادرة إلىٰ العمل والتنفيذ. ففي الحديث: «... **احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[١].

الفشل والعبودية:

قد يكون الفشل في بعض المواطن من أسباب إعادة الإنسان إلىٰ دائرة العبودية؛ لأنه يرىٰ ضعفه وافتقاره إلىٰ فضل الله ﷻ وعونه. أما النجاح فقد يؤدي إلىٰ الكبر والتعالي وترك الاعتماد علىٰ الله ﷻ، ويروىٰ في ذلك عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: ابتلانا اللهُ بِالضراء فصبرنا، وابتلانا بالسراء فلم نصبر. و الله جل وعلا يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ خَيْرٌۭ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ شَرٌّۭ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

انعكاسات الفشل:

توجد انعكاسات سلبية كثيرة تصيب الإنسان إذا فشل في تحقيق أهدافه، منها:

١- أن الإنسان يخسر الآخرة إذا كان الفشل متعلقًا بأمور الدين، قال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكَهْف: ١٠٣-١٠٤].

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤).

٢- أن الإنسان يخسر ما يطمح إليه من الدنيا، كالمال أو الجاه أو الشهرة، وهذا مظنة حزن الإنسان وأسفه، خاصة إذا فشل الإنسان فيما كان يظنه خيرًا لنفسه.

٣- اليأس والقنوط، وسوء الظن بالله ﷻ، وعدم الثقة بما عنده، واليقين بالله إذا استقر في قلب الإنسان ونفسه تغيرت لديه كثير من المفاهيم التي يظنها من المسلمات.

الفرق بين الناجح والفاشل:

١- الناجح يتحمل مسؤولية أعماله، والفاشل يتذرع بالظروف.

٢- الناجح لا يبرر أخطاءه، بل يعترف بها، والفاشل يلوم الآخرين علىٰ فشله.

٣- الناجح يحاسب نفسه ويجاهدها، والفاشل ينساق وراء رغباته.

٤- الناجح لا يستكين ولا يضعف، والفاشل يُحبط بسرعة عند الفشل.

٥- الناجح يعتمد علىٰ نفسه ويأخذ بالأسباب، والفاشل يتواكل علىٰ غيره.

٦- الناجح متفائل، والفاشل متشائم.

٧- الناجح يفكر في الحل، والفاشل يفكر في المشكلة.

كيفية التعامل مع الفشل:

توجد أربع استراتيجيات للتعامل مع الفشل:

أولًا: التقبل، ويتمثل في الإيمان بقضاء الله وقدره، والإيمان بأن كلَّ ما يصيب الإنسان مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ.

ثانيًا: التفهم: البحث عن الأسباب، ومحاولة علاجها، والتخلص من المعوقات التي تعترض طريق النجاح، والتعلم من التجربة، فالفشل تجربة ناجحة طالما أن الشخص استفاد منها، وعمل علىٰ عدم تكرارها مستقبلًا.

ثالثًا: التهيئة للمرحلة الجديدة، والاستعانة بالله ﷻ علىٰ ذلك، والأخذ بالأسباب، والاستعداد لما هو قادم من تحديات.

رابعًا: الانطلاق، السير نحو الهدف بثقة ومثابرة ونشاط، مع استشارة المتخصصين في مجال الهدف المرجو، وإتقان العمل.

تربية الأبناء علىٰ النجاح:

توجد العديد من الوسائل التي يمكن أن نربي أبناءنا علىٰ إدارة الفشل من خلالها، ومنها:

١- تصحيح مفهوم النجاح والفشل للأبناء، وأن المقصود بالنجاح ليس ما يُطرح اليوم في الدورات التدريبية ومواقع التواصل الاجتماعي -وإن كان هذا مهمًّا ولا شك-، ولكن المقصود بالنجاح أن يسير الشاب في الطريق المستقيم الذي من أجله أنزل الله ﷻ الكتب، وأرسل الرسل.

٢- نقل الخبرات إلىٰ الأبناء، وذلك بتعليمهم التصرفات الصحيحة في المواقف المختلفة، كالدراسة والتعامل مع الآخرين والبيع والشراء وغير ذلك من المهارات التي يحتاجها الأبناء.

٣- مساعدة الأبناء في تخطي عقبة الفشل، وتهيئتهم لمواجهة الفشل بشجاعة، والاستفادة من الأخطاء وعدم تكرارها.

٤- تعليم الابن البحث عن النجاح الذي يستطيعه، وعدم رفع الطموحات بما لا يتناسب مع الإمكانات، وإظهار الفرح والسرور بإنجازه، وغرس الثقة بنفسه وقدراته وإمكاناته.

٥- ترتيب أولويات النجاح، وذلك بعدم المبالغة في النجاحات الدنيوية علىٰ حساب النجاحات الأخروية، إذ الفوز في الآخرة هو هدف المسلم الأسمىٰ.

٦- مدارسة قصص الناجحين، وهي كثيرة ومبثوثة في كتب السير والتاريخ، والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم وعلو هممهم في تحقيق النجاح.

مراجع للاستزادة:

- الفشل البناء، لجون ماكسويل.
- فن الفشل، د. حسين آل ثابت.
- متعة الفشل، د. سليمان العلي.
- نعمة الفشل، جيسيكا لاهي.

الفصل العشرون
فصل ختامي

في هذا الفصل الختامي أتناول بعض القضايا المشهورة التي تنتشر بين الشباب، والإجابة عن بعض الاستفسارات التي يكثر الحديث عنها، ثم بعض الوصايا والتجارب الشخصية التي أقدمها بين يدي القارئ الكريم في نهاية هذا الكتاب.

كثرة الجدال والمراء

ينتشر في مواقع التواصل الاجتماعي الجدال بين الشباب من ذوي التخصص الواحد، خاصة الشباب الذين درسوا العلوم الشرعية، فيحدث الجدال من باب الغيرة علىٰ الدين، ونصرة الحق وغير ذلك مما يظنه الشباب من أسباب إثارة الخلاف والجدال.

إن الخلاف أمر طبيعي، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هُود: ١١٨]. وتجدر الإشارة إلىٰ أنه ليس كل اختلاف يصلح

أن يُنشَر بين الناس، فإن بعض الخلاف يجب أن يناقش داخل أهل التخصص فقط، وهذا من مخاطر وسائل التواصل الاجتماعي، حيث إنها أتاحت للجميع حرية مناقشة أي موضوع في أي وقت وبأية طريقة.

إذن المشكلة ليست في ذات الاختلاف، بل في إدارة هذا الاختلاف، والتعامل معه، حيث إن بعض الشخصيات تجنح إلىٰ إثارة الخلاف والنزاع والشقاق، وقد يتحول هذا الصراع إلىٰ صراع داخل البيت الواحد في مسائل اجتهادية، أو بين الأصدقاء، مما يسبب التباعد والشقاق.

ومن الإشكاليات أن بعض الشباب يفرح بالباطل وينشره لوجود شُبهة حق فيه، فينشر هذه الشبهات، ويدعو غيره للجدال حولها، ظانًّا أنه يحسن مسائل من العلم لا يحسنها غيره.

ومن الإشكاليات أيضًا: أن من يثيرون النقاش يتحزبون، كل منهم يريد نصرة رأيه، فإذا وقف شخص موقفًا وسطًا فإنه يُتَّهم ويُرمَىٰ بما ليس فيه.

ومن الإشكاليات أيضًا: أن مَن يثير هذه القضايا قد يكون غير متخصص، ولا يحسن الحديث فيها؛ لذا علىٰ المتصدر أن يكون ذا علم كافٍ، وأفق واسع، وفَهم لشمولية الإسلام؛ لذا قيل: (لو سكت مَن لا يعرف لسقط الخلاف).

إن وسائل التواصل أعطت كثيرًا من الشباب أكبر من حجمهم، فيرغب كلٌّ منهم في الإعراب عن موقفه في كل شاردة وواردة! كأنه يتوهم أن الناس تنتظر رأيه لتصْدُرَ عنْهُ، فترىٰ بعضهم يسجل رأيه وفق ما يريده متابعوه حتىٰ لا يخسر متابعتهم له!

وفي رأيي توجد بعض النقاط التي يمكن من خلالها حل هذه الظاهرة، ومن ذلك:

١- **استشعار خطورة الكلمة،** فإن ذلك يبعد الإنسان عن مواطن الجدال والنزاع، والتصدر للحديث في القضايا العامة والخاصة.

٢- **ضبط معايير النقاش،** فمعايير بعض الشباب غير منضبطة، إذ قد يشارك في هذه الجدالات بهدف جذب الانتباه، فإذا علم الشاب أن هذا الجدال يثير الأحقاد والخصام، فإنه سيبتعد عن ذلك ويشغل نفسه بما يفيد. وكم من رجال ليس لديهم حسابات في وسائل التواصل الاجتماعي وهم مؤثرون في بيئاتهم من خلال إصلاح النفس، ودعوة الآخرين للخير، والإصلاح بين الناس وغير ذلك مما لا يحسنه ذوو الحسابات الإلكترونية في مواقع التواصل الاجتماعي!

٣- **الإحجام عن المشاركة في مثل هذه المناقشات،** والبعد عن الخوض فيها، إذ إنه لا ينبني عليها عمل، بل الهدف منها إظهار القدرة علىٰ تبني الآراء والدفاع عنها.

٤- **عدم الاستعجال في الحكم علىٰ الأشياء،** إذ إن السرعة تنافي الدقة غالبًا، فقد يكون من الحكمة التروي وعدم الاستعجال، حتىٰ يتحدث أهل الاختصاص، فيتعلم الشاب منهم كيفية التعامل مع هذه القضايا المثارة.

٥- **مشاورة ذوي الرأي والعلم،** علىٰ المتابع لهذه النقاشات أن يبحث عمَن يثق في دينهم وعلمهم، ويستشيرهم، ويَصْدُر عن رأيهم، قال تعالىٰ: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

أبرز التحديات التي تواجه الشباب

التحدي الأول: تحدي الهوية: قضية «الهوية» من القضايا المهمة التي تواجه الشباب، ومعرفة الإنسان مَن هو؟ وما دينه؟ وما أصوله؟ يساعده في مواجهة هذا التحدي، وذلك أن بعض الشباب لديهم شكوك حول الإيمان والقرآن والشريعة، وقل الاعتزاز بالدين في نفوس كثير من الشباب.

إن الاعتزاز بالهوية واليقين بما يحمله الشاب من الدين الإسلامي والقرآن الكريم والسُّنة النبوية من العلاجات المهمة التي تعين علىٰ تجاوز هذا التحدي، والأصل أن المسلم يثق بما ورد في القرآن الكريم والسُّنة النبوية، فإن واجه الشاب شبهة فعليه بسؤال أهل العلم فسيجد عندهم الجواب الكافي الشافي عن هذه الشبهة.

التحدي الثاني: التحدي القيمي والأخلاقي، هناك موجة من سوء الأخلاق والقيم، مثل: قيمة العفة، وقيمة الحياء، وقيمة الخُلق الحسن، وعلىٰ الشاب أن يعلم أنه لا ينبغي له أن يتنازل عن قيمه وأخلاقه، وعليه أن يتعلم هذه الأخلاق ويطبقها، حتىٰ يتشبع بها، وتكون جزءًا من شخصيته.

التحدي الثالث: الخوف من المستقبل، وهو مقبول إذا كان في وضعه الطبيعي، ومن ذلك: الخوف من المستقبل الوظيفي، أو الديني، أو الاقتصادي، لكن إذا زاد عن الحد فإنه يصبح عبئًا علىٰ الشاب. ومما يساعد في مواجهة هذا التحدي أن يسعىٰ الإنسان إلىٰ تقوية إيمانه بالقضاء والقدر، ويعلم أن الأمور تجري بمقاديرها، ويتعلم العقيدة، لا سيما أبواب حُسن الظن بالله تعالىٰ، والإيمان بالقضاء والقدر.

التحدي الرابع: اعتماد العقل أداة للقياس: من التحديات أن العقل أصبح أداة قياس، فيقيس القُبح والحسن، والمهم وغير المهم، ومع كثرة هذه المسائل يبدأ الشاب في الاعتماد علىٰ عقله في الحكم علىٰ كل الأشياء، بما فيها الدين والعقيدة وغير ذلك، والمشكلة أن بعض الناس يصور للآخرين أن العقل مضاد للدين، وهذا غير صحيح، فالعقل معتبر في الشريعة، وهو مناط التكليف الشرعي.

فإذا علم الشاب ذلك، وحاول التوفيق بين نصوص الشريعة والمسلمات العقلية زاد يقينه بصحة الإيمان، ومن مقتضيات الشريعة أن حياة الإنسان فيها جزء غيبي؛ كالبعث، والنشور، والقيامة، والجنة، والنار . . . إلخ، وأول صفة من

صفات أهل الإيمان هي الإيمان بالغيب، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣].

ومما يساعد علىٰ تجاوز هذا التحدي: التسليم بما ثبت في الشريعة، وإن كان الإنسان لا يفهم حكمتَهُ، فالتسليم من أساسيات الدين، وينبغي للإنسان أن يربي نفسه عليه، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومما يساعد في تجاوز هذا التحدي: ألا ينقاد الشاب خلف كلِّ مَن يشكك في الدين أو العقيدة؛ لأن مِن الناس مَن لا يُطربه من الحديث إلا الغريب، فيأتي بالشبهات والغريب من الألفاظ حتىٰ يوهم الشباب بأن لديه ما ليس لدىٰ الآخرين.

إن التقليد[1] من المخارج المهمة للشاب في هذا الباب، بأن يتبع الشابُّ مَن يثق فيهم من أهل العلم والتخصص، إذا لم يكن في استطاعته طلب العلم الشرعي والبحث عنه في مظانه، وهذا ليس عيبًا، فالإنسان يطيع الطبيب إذا أعطاه الدواء، ويطيع رجل الأمن في اتباع التعليمات والقوانين . . . وغير ذلك، فلماذا يشعر بالحرج عند تقليد علماء الشريعة؟! إن التقليد ليس عيبًا، ولا يدل علىٰ النقص في القدرة أو الذكاء.

ومما يساعد في ذلك أيضًا: أن تكون لدىٰ الشاب مرجعية واضحة، ويقصد بها مناهج التلقي والاستدلال، وهما القرآن الكريم والسُّنة النبوية، فالنصوص موجودة، لكن طريقة الاستدلال والتلقي فيها إشكال لدىٰ الشباب، وعلىٰ الشاب أن يتعلم كيف يستدِل، ووجوه الاستدلال؛ لأن صحة الدليل لا تعني صحة الاستدلال. فقد يكون الدليل صحيحًا، لكن الاستدلال بهذا الدليل خاطئ. إذن

---

(١) **يقصد بالتقليد**: اتباع الإنسان غيرَهُ من أهل العلم فيما يقول أو يفعل، معتقدًا للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمل في الدليل.

دراسة العلم الشرعي ومعرفة رتب الاجتهاد والمجتهدين يساعد علىٰ تجاوز بعض التحديات العقلية التي تواجه بعض الشباب.

محرِّكات الأفكار

توجد قاعدة مهمة في السلوك، وهي أن السلوك يبدأ بالملاحظة، ثم التنبؤ، ثم الحكم، ويقصد بذلك أن أول شيء هو الملاحظة وفهم ما يجري، ثم التنبؤ بما يمكن أن يحدث انطلاقًا من الملاحظة، ثم إصدار الحكم وفقًا للملاحظة والتنبؤ.

وإن الأفكار لها محركات كثيرة لدىٰ الشباب، وفيما يلي أهمها:

المحرك الأول: الفضول، فكثير من الشباب لديه فضول للاستكشاف، وحب للاطلاع والمعرفة، وهذا يحرك عنده كثيرًا من الأفكار؛ لأنه كلما تنبأ واستكشف ظهر له شيء جديد، فحرك لديه فكرة، وهذه الفكرة تحركه نحو السلوك والعمل.

وينبغي للإنسان أن يضع للفضول حدًّا، فلا يسترسل معه، حتىٰ لا يكون سببًا في الوقوع في المحرمات، فربما اعتاد الإنسان فعلًا سيئًا أو محرمًا بسبب الفضول تجاهه.

وليس الفضول شرًّا دائمًا، بل قد يكون لدىٰ شاب فضول لفعل الخير، فعليه أن يوجه هذا الفضول إلىٰ مزيد من الخير، فإذا تركه بلا قيد ولا إطار فإنه سيُورِدُهُ المهالك، وفي الحديث: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٣١٧).

المحرك الثاني: النظر والتفكير، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص، فقد يحدث موقف فيفهمه شخص بطريقة، ويفهمه آخر بطريقة أخرىٰ، واختلاف النظر والتفكير محرك لكثير من الأفكار، والمطلوب هو أن يحسن الإنسان النظر إلىٰ الأشياء والمواقف المختلفة، فهذا المحرك يحتاج تحسينًا، وفهمًا، وتوعية، واستخدامه بطريقة مفيدة نافعة.

المحرك الثالث: الهوىٰ، الإنسان له رغبات وميول، وهذه الأشياء قد تورد الإنسان المهالك، وقد جاء النهي عن اتباع الهوىٰ في كثير من آيات القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سُورَةُ صٓ: ٢٦]. إن الهوىٰ يورث المهالك، ويحرك أفكارًا سيئة مضرة، فإذا قطع الإنسان طريق الهوىٰ والرغبات السيئة من بدايته نجا، وهذا يحتاج مجاهدة ومدافعة واستعانة بالله ﷻ.

احتياجات الشباب

توجد احتياجات كثيرة للشباب يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين:

أولًا: احتياجات الشاب مِنْ غيره:

الاحتياج الأول: التفهم، أي فهم دوافعه وسلوكه وطريقته وتغيراته، وعدم التعامل معه علىٰ أن تصرفاته سيئة أو غير مفيدة.

الاحتياج الثاني: التقبل، أي أن يتقبل الآخرون طريقة الشاب، وأسلوبه، وشكله، وعيوبه، وهذا يساعد الشاب علىٰ قبول الآخرين، والتشاور معهم، وطلب نصيحتهم. والتقبل لا يعني القَبول، فالمقصود هو تقبل الخطأ لإصلاحه، وإرشاد الشاب إلىٰ الصواب. وقد ورد في الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ

فَتًى شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ. فَقَالَ ﷺ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**». قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**». قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**». قَالَ ﷺ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». قَالَ أبو أمامة: فَوَضَعَ النبيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**». فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ[1]. فتقبل النبي ﷺ الحديث معه، ولم يقبل أخطاءه، بل أرشده إلىٰ علاجها.

الاحتياج الثالث: التشارك، كأن يَعرِض عليه المربي الحلولَ المناسبة التي يُطلَب من الشاب أن يقوم بتنفيذها، ثم يتعرف المربي علىٰ رأي الشاب في هذه الحلول، ويناقش وجهة نظره في ذلك، ويحفِّزه علىٰ إطلاق الحلول المبتكرة، ومِن ثم تنفيذها، ويزداد تفهم الوالد للابن من خلال عدد من الوسائل، منها:

١- **معرفة خصائص النمو**، فهذا يساعد في التعرف علىٰ سلوك الطفل أو الشاب، ثم معالجة أسباب هذا السلوك.

٢- **مراعاة الواقع المعيش**، وهذا لا يعني التنازل عن أساسيات التربية، وترك المبادئ والقيم، بل يراعي المربي تغير الظروف وأثرها في التربية.

٣- **الاستماع من النشء**، فلا تكون التربية قائمة علىٰ تلقين الأوامر والتوجيهات، بل بالاستماع والتوجيه وتعديل السلوك بطرق علمية مدروسة؛ لأن الشاب نشأ في بيئة مختلفة وبأسلوب مختلف غير الذي نشأ عليه الأب، فضلًا

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٢٢١١).

عن الخبرة والعلم والمعرفة التي اكتسبها الأب من خلال مروره بالمواقف المختلفة.

٤- **الذكاء الاجتماعي**، وذلك من خلال معرفة مشاعره، ودراسة نمط شخصيته، وهل هو شخص اجتماعي أو خجول أو عدواني . . . إلخ، ومن ثَمَّ تختلف طريقة التعامل مع كلٍّ نمط من أنماط الشخصية.

أولًا: احتياجات الشاب تجاه نفسه:

الاحتياج الأول: الحاجة إلىٰ التدين، فالإيمان شيء فِطري، ورغم ذلك يغفل كثير من المربين عن هذه الاحتياج المهم، حيث يشتغلون عنه بأشياء ثانوية إذا قُورِنَت بالتدين.

الاحتياج الثاني: جماعة الرِّفاق، ويقصد به حاجة الشاب إلىٰ بيئة أو مجتمع أو أصدقاء، ولا يقوم مقام هذا الاحتياج التلفاز أو وسائل التواصل الاجتماعي أو الألعاب الإلكترونية، فالاحتياج إلىٰ المجتمع احتياج مهم في حياة الشاب.

الاحتياج الثالث: الشعور بالتقدير، وغيره من الاحتياجات المعنوية الأخرىٰ، كالنجاح أو الإنجاز بما يناسب عمره وقدراته، وإن كان الإنجاز صغيرًا، كأن يشعر أنه ابن بار، أو صديق جيد، أو مسلم صالح.

تهديدات تواجه الشباب

التهديد الأول: الشهوات بأنواعها، لا شك أن الانحرافات السلوكية والجنسية من الأمور التي تؤثر علىٰ دين الشاب، ونظرته لنفسه، وعلاقته بالآخرين، فليَبْذُل الشابُّ جهدَهُ لحماية نفسه من ذلك.

التهديد الثاني: الشكوك، كأن يشك الشاب في أحكام الدين، ولا يثق فيما بين يديه من القرآن الحكيم والسنة النبوية المطهرة، ويستطيع الإنسان أن يتخلص من ذلك بطلب العلم، والحرص علىٰ العمل به، والمشاركة في المبادرات المتخصصة في ذلك.

التهديد الثالث: المبالغة في المطالبة بالحقوق، بأن يكثر الإنسان المطالبة بالحقوق دون أداء ما عليه من واجبات. فالشريعة جاءت بحفظ الحقوق، فإذا أراد الشاب حقوقه فليؤَدِّ ما عليه من واجبات.

تجارب شخصية

توجد بعض التجارب الشخصية التي تشتمل علىٰ العديد من الفوائد، وتشكل للشاب فارقًا في حياته، وبعضها ليس تجربة اختيارية، بل بعضها واجب علىٰ الإنسان، وفيما يلي بعض هذه التجارب:

١- المكث في المسجد بعد صلاة الفجر إلىٰ الشروق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك: هذه غدوتي، لو لم أتغد الغداء سقطت قوتي.

٢- المكث في المسجد بعد صلاة الجمعة يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يفتح اللهُ به عليه، فيدعو لنفسه وللمسلمين، وهذه التجربة ستُحدِث فارقًا كبيرًا في حياة الشاب.

٣- المكث في المسجد بين المغرب والعشاء، للتذكر والتفكر وقراءة القرآن وتدبره وتدارسه.

٤- الحرص علىٰ صلاة الليل، ولو ركعتين قبل الفجر، وهذا له فضل وشرف معلوم.

٥- الانتصار علىٰ النفس، بأن يفكر الشاب فيمَن بينه وبينهم خصومة، ويطلب منهم الصفح والعفو وإنهاء العداوة والخصومة.

٦- المبادرة إلىٰ عمل الخير، ولو أن يعلِّم غيرَهُ التجويد، وأحكام العقائد والعبادات ونحو ذلك.

٧- الحرص علىٰ الورد اليومي من القرآن الكريم، ولو كان قليلًا، مع التدبر والتفكر ومطالعة تفسير هذا الورد.

٨- التأمل في الكون من خلال الرحلات البرية أو البحرية، فالتفكر من العبادات العظيمة المهجورة.

٩- مخالفة الرغبات، والابتعاد عن العادات ولو لأيام؛ ليقوىٰ الشاب علىٰ التحكم في نفسه، وقيادتها إلىٰ التقليل من المباح، وإلزامها بما فيه الخير.

وصايا عامة

إن كان ثمة وصايا أوصي بها نفسي والقارئ الكريم فهي:

الوصية الأولىٰ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا . . .**»[1]. والتقوىٰ هي: فعل الأوامر واجتناب النواهي، فإذا تعثر الشاب أو سقط أو أخطأ أو أذنب فليتذكَّرِ الوصية التالية.

الوصية الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: ١١٤]. فإذا فعل الشاب معصية فليتبعها بحسنة يُغفر له.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٨٧).

الوصية الثالثة: «... **وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1]، فليعمل الشاب علىٰ تحسين خلقه مع والديه، وأقاربه، وأصدقائه، ومع الناس مِنْ حوله.

الوصية الرابعة: «... **احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»[2].

الوصية الخامسة: لمَن يحب الاستماع، ويعتمد عليه في تلقي المعرفة يمكن مطالعة بودكاست «نقطة»، وبودكاست «كاف»، وبودكاست «تواق»، وبودكاست «أصدقاء القمر»، وغيرها من المواد الصوتية النافعة.

الوصية السادسة: أوصي الشباب والفتيات بالاطلاع علىٰ كتب أهل العلم، لا سيما الكتب التي تناولت السلوك والأخلاق وأعمال القلوب، ومنها علىٰ سبيل المثال:

١- كتاب «العبودية»، لابن تيمية، وهو كتاب مختصر، وفيه معانٍ عظيمة يحتاجها الشاب في هذا الزمان.

٢- كتاب «قاعدة في المحبة»، لابن تيمية، وهو مأخوذ مِن كتابه «الفتاوىٰ».

٣- كتاب: «الداء والدواء»، أو «الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي»، لابن القيم، وقد تكلم فيه عن العشق والمعاصي والذنوب.

٤- كتاب «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، لابن القيم، وهو مفيد في منازل السير إلىٰ الله ﷻ.

٥- لابن رجب سلسلة رسائل شرح فيها أحاديث متفرقة، منها: «ذم القسوة»، وشرحه حديث «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»[3]، وهما من مجموع رسائل ابن رجب.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٨٧).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤).

(٣) رواه الترمذي رقم (٢٣٧٦).

٦- كتاب «مداواة النفوس» لابن حزم، وفيه تناول الحديث عن النفس ومداواتها وعلاجها.

أسأل الله ﷻ أن أكون قد وُفِقت في تقديم ما ينفع، وأسأله ﷻ أن أكون أضأت فكرًا، وشرحت صدرًا، ونشرت علمًا، وأسأله ﷻ أن يُصلح نيتي وأن يتقبل مني ومنكم، وأن يعفو عن الزلل والتقصير.

المـراجـع

١- ارتياض العلوم، مشاري الشثري.

٢- إسلام السوق، باتريك هانيي.

٣- أسئلة الطفل الإيمانية، الدكتور، عبد الله الركف.

٤- الأسئلة العقائدية عند الأطفال وكيفية الإجابة عليها؟ بسام العموش.

٥- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، دار الفكر، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٦- التفكير الذي لا يُقهَر، ريوهو أوكاوا.

٧- ثم صار المخ عقلًا، عمرو شريف.

٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٩- حياة تالفة، تود سلون.

١٠- دليل الغلوم الإسلامية، أو السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية، أحمد سالم.

١١- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

١٢- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١٣- سنن الترمذي، محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

١٤- السنن الصغرىٰ للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦-١٩٨٦م.

١٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

١٦- قصة الالتزام ورواسب الجاهلية، محمد حسين يعقوب.

١٧- اللغة هوية، الدكتور/ مختار الغوث.

١٨- لماذا؟ ساني موسينك.

١٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٠- المستدرك علىٰ الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١-١٩٩٠م.

٢١- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٢- معالم في طريق طلب العلم، الدكتور/ عبد العزيز السدحان.

٢٣- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، دار الحرمين - القاهرة.

٢٤- المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون.

٢٥- من اليوم لن تهرب من أسئلة طفلك المحرجة؟ عبد الله عبد المعطي.

٢٦- النبأ العظيم، محمد دراز.

٢٧- أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.
٢٨- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة - بيروت.
٢٩- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، ١٩٨٦م.
٣٠- تربية الإرادة في الكتاب والسنة.
٣١- التفكير السريع والتفكير البطيء، دنيال كانمان.
٣٢- التفكير من منظور إسلامي، خالد الدريس.
٣٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.
٣٤- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
٣٥- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة - المغرب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٣٦- درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٣٧- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٣٨- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

٣٩- سنن الترمذي، محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٤٠- السنن الصغرىٰ للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦-١٩٨٦م.

٤١- الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق - سورية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٤٢- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٤٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٤٤- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ = صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٥- المستدرك علىٰ مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمعه ورتبه: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.